رسالة القلم
إسلامية ثقافية شاملة
العدد السابع والأربعون - السنة الثانية عشرة - رجب ١٤٣٧هـ - أبريل ٢٠١٦م
التراجع الروحي عند طالب العلم... حوار مع سماحة الشيخ عادل الشعلة
اتباع الهوى وطول الأمل
حقيقة العبادة
العفة في الآيات والروايات
الطفل والتربية الروحية
الفضائل الأخلاقية وسبل تطويرها في القرآن الكريم
الصبر
محور العدد: التربية الروحية
٤٧

رسالة القلم

Resalat - Alqalam

مجلّة طلابيّة فصليّة
تهدف إلى نشر الثقافة الإسلامية

علما بأن المقالات لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

نستقبل ملاحظاتكم وانتقاداتكم حول المجلة عن طريق المراسلة

رسالة القلم

إسلامية ثقافية شاملة

• الهيئة الاستشارية:
الشيخ عبد الله علي الدقاق
الشيخ علي فاضل الصددي
الشيخ غازي عبد الحسن السماك

• المشرف العام :
الشيخ عبد الرؤوف حسن الربيع

• رئيس التحرير:
الشيخ محمد علي خاتم

• مدير التحرير:
الشيخ عباس علي الصايغ

• رئيس هيئة التحرير:
الشيخ عزيز حسن الخضران

• هيئة التحرير:
السيد جلال عدنان علوي
الشيخ علي عقيل الجمري
الشيخ منصور إبراهيم الجبيلي

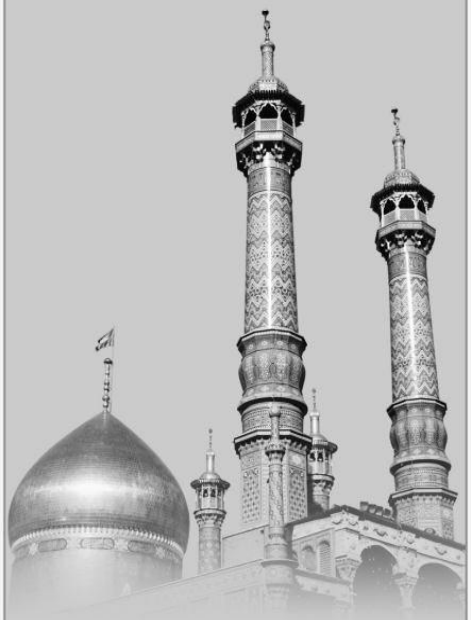

فصلية تصدر عن
طلاب البحرين في الحوزة العلمية
بمدينة قم المقدسة

برعاية
مكتب البيان للمراجعات الدينية

اقرأ في هذا العدد

كلمة العدد

في مَحضَرِ الله — رئيس التحرير — ٣

حوار العدد

التراجع الروحي عند طالب العلم — حوار مع سماحة الشيخ عادل الشعلة — ٧

محور العدد: التربية الروحية

اتباع الهوى وطول الأمل — الشيخ عزيز حسن الخضران — ٥٥

حقيقة العبادة — الشيخ محمد عاشور عبد الرسول — ٧٤

العفة في الآيات والروايات — الشيخ حسين عبد الله الأعرج — ٨٩

الطفل والتربية الروحية — الشيخ عباس الصائغ — ١٠٥

الفضائل الأخلاقية وسبل تطويرها في القرآن الكريم — الشيخ قاسم عبد الكريم جاسم — ١٣٩

الصبر — الشيخ محمد حميد أحمد — ١٦٧

بحوث ومقالات أخرى

جذور الفكر الإرهابي في الزمان المعاصر — الشيخ محمود جليل طاهري — ١٧٨

شرب أبوال ما يؤكل لحمه (حليّته وعدمها) — الشيخ علي فاضل الصودي — ١٨٩

كلمة العدد

في مَحْضَرِ اللهِ

من أراد أن يربّي نفسه تربية روحية يعني ذلك أنّه يريد أن يغيّر أو ينظّم سلوكه وفقاً لما يعتقد به من خلق رفيع ومبادئ عالية استمدّها من السماء عن طريق الأنبياء والرسل عليهم السلام الذين تركّزت دعوتهم في ذلك متّخذين صورة اللجوء إلى الله وعبادته، إذ بها يختصر الإنسان طريقه في مسير تربية نفسه تربية روحية.

وحقيقة دعوتهم هي الدعوة إلى الله تعالى وإلى عبادته، وترك عبادة الآلهة المصطنعة سواء كانت من الحجارة أم الحيوان أم الناس بل حتى من الذوات، فكما لا تجوز عبادة الأصنام الحجرية، كذلك لا تجوز عبادة الأصنام البشرية، إذ المطلوب من الإنسان أن يعبد الله وحده من دون أن يعبد غيره.

عبادة الله هي الأساس

لذا قام رسول الله صلى الله عليه وآله بكتابة كتاب إلى أساقفة نجران جاء فيه: «**من محمد رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أسقف نجران وأهل نجران، إن أسلمتم فإنّي أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أما بعد فإنّي أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم فقد آذنتم بحرب، والسلام**»[1].

فالعبادة هي الأساس في المفهوم الديني لأنّ من يعبد الله تعالىٰ سيسخّر نفسه إلىٰ طاعته تعالىٰ ولزوم مرضاته واتباع أوليائه وهذا غاية ما يريد الوصول إليه المربّي نفسه.

فلا بدّ من أن تتصف العبادة بما وصفها صاحب الرسالة حيث يقول صلى الله عليه وآله: «**اعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه، فإنّه يراك**»[٢]... ومن يعتقد بأنّ معبوده يراه فإنّه لن يعصيه أبداً، ولك عبرة بما جرىٰ بين نبي الله يوسف عليه السلام وزليخا لمّا همّت بيوسف عمدت إلىٰ صنم وغطّته، فقال لها يوسف: ما صنعت؟ قالت: طرحت عليه ثوباً أستحي أن يرانا، فقال يوسف: فأنت تستحين من صنمك وهو لا يسمع ولا يبصر، ولا أستحي أنا من ربي[٣]؟!

وما نريد الوصول إليه هو أنّ كلّ من أراد أن يربّي نفسه عليه أن يستشعر أولاً وقبل كلّ شيء أنّه في محضر الله... وأنّه تعالىٰ نعم الشاهد... يعلم كلّ ما يُفعل، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور... يعلم سركم وجهركم... يعلم مثواكم ومنقلبكم...

لا بدّ من استشعار السالك أنّه في محضر الله، يقول الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاءً شديداً**»[٤].

لِمَ هذا البكاء من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو آمنٌ من عذاب الله وسخطه ونحن لا نستحي حتى!!!

ماذا عليّ فعله إذا استشعرت أنّي في محضر الله تعالىٰ؟

لكي نجيب علىٰ هذا السؤال لا بدّ من الوقوف علىٰ موقف نبي الله موسىٰ عليه السلام وماذا فعل عندما كان في محضر الله...

١. **أراد أن يطيل الحديث مع الله**ﷻ، فلمّا سأله: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى**﴾؟ كان بإمكانه أن يرفعها من دون كلام فيتضح أنّها عصا، وكان بإمكانه أن يجيب بكلمة واحدة ويقول: عصا، لكنه لمّا علِم أنّه في محضر الله تعالىٰ وهو يحبّ الله ويعشقه فكان هذا الموقف موقف حديث بين العاشق والمعشوق فأطال في الجواب وقال: ﴿**هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾.

٢. **الطاعة والتسليم إلى الله**ﷻ، بعد ذلك قال اللهﷻ إلى موسىٰ: ﴿**أَلْقِهَا يَا مُوسَى**﴾. هنا موسىٰ عليه السلام لم يسأل اللهﷻ عن سبب رمي العصا ... فلمّا صارت حيّة تسعىٰ وكانت ضخمة جداً أو أنّ نفس التحوّل غير المتوقّع سبب الفزع في قلب موسىٰ فما كان منه إلا الفرار... ولكن اللهﷻ لما أمره بالرجوع إليها وأخْذِها، رجع من دون اعتراض... فلمّا كان موسىٰ بهذا المستوىٰ من التسليم استحق من الله التكريم وأيّده بالمعجزات وكلّفه بتبليغ الرسالة فقال له: ﴿**اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**﴾... إنّك يا موسىٰ لّما أظهرت تسليمك للهﷻ وأنّك قادر علىٰ مقارعة نفسك فأنت أهل أن تقارع مثل فرعون وأمثاله من الظلمة.

٣. **طلب العون من الله تعالىٰ**: ﴿**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي**﴾ وكذا لا بدّ من طلب العون من اللهﷻ لكلّ سالك لنتقرّب إلىٰ الله بالفرار من المعاصي والذنوب ونعبد اللهﷻ حق العبادة.

ولا بدّ من التنبه إلىٰ ضرورة أن نعبد الله حق العبادة، أي: أنّا نعبد الله في كلّ مكان، وفي كلّ زمان، وفي كلّ فعل لا بدّ أن يرتسم بصورة عبادية.

طلب الكسب الحلال عبادة بل هو من أفضل العبادات ثوابا، ورد في

حديث المعراج: «**يا أحمد! إن العبادة عشرة أجزاء تسعة منها طلب الحلال، فإن أطيب مطعمك ومشربك فأنت في حفظي وكنفي**»[٥]. في النظر توجد عبادة لله تعالىٰ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**نظر الولد إلى والديه حبا لهما عبادة**»[٦]... وعنه صلى الله عليه وآله: «**النظر إلى العالم عبادة**»... وعنه صلى الله عليه وآله: «**حسن الظن بالله من عبادة الله**»[٧]... وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّ من العبادة لين الكلام وإفشاء السلام**»[٨]... و عن إمامنا الصادق عليه السلام: «**إنّ فوق كل عبادة عبادة، وحبّنا أهل البيت أفضل عبادة**»[٩]. المحافظة علىٰ العفاف من الرجال والنساء عبادة، الإخلاص في العمل عبادة، التواضع، التفكر، التفقّه، أداء حق المؤمن، قضاء حاجة المؤمن، غض البصر عن ما حرّم الله ... كل هذه تمس حياتنا اليومية وكلها عبادات بل من أفضل العبادات.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «**يقول الله: ابن آدم! اعمل بما افترضت عليك تكن من أعبد الناس**».

إن تحقق هذا سهلت التربية الروحية بل ليست التربية الروحية إلا هذه.

رئيس التحرير

الهوامش:

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٢١، ص٣٤٤.
(٢) الفيض الكاشاني، الوافي، ج٢٦، ص١٨٥.
(٣) المجلسي، بحار الأنوار، ج١٢، ص٣٠٠.
(٤) السيد هاشم البحراني، تفسير البرهان، ج٣، ص٣٧.
(٥) إرشاد القلوب، ص٢٠٣.
(٦) تحف العقول، ص٤٦.
(٧) الدرة الباهرة، ص٢٤.
(٨) غرر الحكم، ح٣٤٢١.
(٩) المحاسن: ج١، ص٢٤٧، ح٤٦٢.

التراجع الروحي عند طالب العلم

حوارٌ مع سماحة الشيخ عادل الشعلة ﷾*

حاوره: الشيخ علي عقيل الجمري

والسيد فاضل السيد عباس الوداعي

خلق الله الإنسان وجعل له وساماً لا يطاله غيره، ولا يحرزه سواه، وهو تاج الكرامة الإلهية والخلافة الربانية على وجه الأرض ليكون مظهراً للتجلي الأعظم، قال الحكيم العليم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

فأعطاه مع العقل الروح؛ ليشقّ بهما طريق النور ويحلّق بهما في سماء القرب، ومدارج الكمال، حتى يخرج إلى فضاء سعة رحمته، ولمعات برق القرب من آثار حمايته وعنايته، فكلّما اشتدّ أوار العقل وإشعاع الروح تعادلت كفّة ميزان السمو والرقي عند الإنسان، وإذا ما رجحت إحداهما على الأخرى أنبأ ناقوس الخطر وقُرِعَ جرس الحذر، وكانت النفس على شفا جرف هار!!.

وما أخطر الانزلاق في دنيا الإنسان! وما أسوأه في صفوف طلبة العلم الديني والمتلبسين بلباس العلم والتقوى؛ لأنّهم المعنيون بتربية أنفسهم ورسل الهداية لأبناء الأمّة، فكيف بهم إذا سقطوا في امتحان التربية الروحية؟!

وأيّ شيء يُرتجى منهم، وأيّ خطر يتهدّدهم ويهدّدون!!

فالتربية الروحية والسلوك العملي بـ (معيّة) التربية الفكرية والنمو العلمي: بمثابة صمّام الأمان وحزام السلامة عن الوقوع في أودية الظلام والانحراف.

ومن هنا ظفرت مجلة رسالة القلم بعلَم من أعلام الفضيلة والتُقىٰ والأدب الرفيع، إذ كرّس الكثير من عمره مهتمّاً بتطوير الجانب الروحي لدىٰ طالب العلم الديني (الحوزوي)، بالمطالعة والتحقيق في هذا البُعد من أبعاد الإنسان.

فما أحوجنا للوقوف بالنفس قبل قراءة هذه الأسطر النفيسة وهذا الحوار المُتلمّس حاجات الطالب مع فضيلة الشيخ عادل الشعلة (حفظه ورعاه).

ليكون محطّة (عملية فاعلة) بعد ذلك، فلا يكفي مجرّد الأمل والتمني في تهذيب النفس وإصلاحها، فلا يُدرك ذلك إلا بالسعي الحثيث والصبر والعزيمة.

السؤال١: كثير من الطلبة يشتكي من حالة التراجع الرّوحي عنده مع تقادم السنين في الدّراسة، فهل -يا ترى- طلبُ العلم يترك هذا الأثر؟! وما هي أسباب هذا التّراجع الرّوحي؟ وما هو علاج هذه الحالة الخطيرة؟

بسم الله الرحمن الرّحيم.

أولاً: المراد من التّراجع الرّوحي

ربّما يرد إلىٰ الذهن من السؤال حول وضع التّراجع الروحي، هو التراجع عن المستوىٰ الكمّي للعبادات والطاعات التي كان يُمارسها طالب العلم قبل التحاقه بالحوزة، كاهتمامه بالنوافل، وصلوات الجماعات، والتعقيبات، وقراءة القرآن، وحضور فعاليات الاعتكاف والدّعاء، بينما هذه الممارسات كاشفة عن الوضع الرّوحي، والوضع الروحي مثل الإقبال والنشاط العبادي النابع من الحبّ ونشدان القرب.

فقد يكون هناك تراجع كمّي لكن قد يبقىٰ التوقُّد الروحي مشتعلاً إقبالاً وشوقاً، وحبّاً ووصالاً، إخلاصاً يتحقّق في انطلاقة وممارسة كلِّ عمل، وذكراً يتفجَّر في مواقف الإثارة والغضب والاختلاف والنقاش، ولساناً لهجاً حال ذهاب الطالب وإيابه من وإلىٰ درسه، وقلباً متيَّماً في لحظة انشداد قد تتوهَّج في فراغ تخلّل بين درس يُنتظر ابتداء أو أذان يُرفع.

ليس من ضيرٍ كبيرٍ في تراجع الممارسات الروحية -نافلة أو تلاوة أو تعقيب- حين يطرأ ظرفٌ يحول عن ممارسة عبادية مُستحبة بسبب حساب أولويات طارئة أو محسوبة، ولكن الضائر هو استمرارية هذا التراجع، والأخطر هو التراجع في الأحوال الروحية -الإقبال والحبّ والإخلاص ونحوها-؛ لأنّ الممارسات الروحية تُشعل الأحوال الروحية، فبالتلاوة وقيام الليل يتوهَّج الحبُّ والوصال، وكلَّما زادت الممارسات الروحية زادت الأحوال الروحية، وكلَّما زادت الأحوالُ الروحية زادت الممارسات الروحية، يتحوَّل الجلوس في الدرس إلىٰ محراب، والسير إلىٰ الدرس سير في المحراب؛ لأنَّه يستشعر أجنحة ملائكة السماء التي يطئها بأقدامه تعظيماً، بل حين يتنفَّسُ وهو مشتغلٌ بدرسه يتذكَّر -إن لم يستشعر- استغفار الطير له في الهواء، وحين يتحرَّك قلمُه في تأليف كتاب، يستشعر سيلان قطرات الجراحات في جهاد للشيطان والنفس والطّغيان، وهي قطرات إنْ كانت خالصة لله فسوف تفضّل علىٰ مداد الشّهداء في ساحات الحرب بالسلاح المادِّي، وهو ما يدفعه ليعيش الحماسة في الدفاع، والجدَّ في التصدِّي، وبذل الوقت والجهد علىٰ حساب راحته ورفاهيته، وكلُّها حالاتٌ روحية لا توازيها أحوال، وقس علىٰ ذلك.

ثانياً: أسباب التّراجع الرّوحي

وهي كثيرة متعدِّدة:

منها: الذنوب التي قد يقع فيها طالبُ العلم من مثل: الغيبة، والحسد، والكراهية،

وإيذاء الزوجة، أو التقصير في برّ بوالديه وغير ذلك، فإنْ لمْ يتخلَّص من الأمراض التي ابتلىٰ بها القلب فلن يقترن العلمُ بالعمل، وسيكون سبباً في التخلُّف الرّوحي، ولو تأمَّلْنا قليلاً فيما ورد عن الحارث بن المغيرة النصري، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾[٢]. قال(صلوات الله عليه): «**يعني بالعلماء من صدَّق فعلُه قولَه، ومن لم يصدِّق فعلُه قولَه فليس بعالم**»[٣]. ومن الواضح أنَّ الخشيةَ وضعٌ روحي يستشعر فيه الخاشي عظمة الحقّ وهيبته، وخوف الحجب عنه، وهذا الوضع الروحي الخاص لا يحصل إلاّ لمن اطَّلع علىٰ جلال الكبرياء، وذاق لذّة القرب، وهذا الاطلاع والتذوّق، لا يحصلان إلاّ بطهارة الظاهر والباطن الحاصلة باقتران العمل بالعلم، كما يُشير إليه النّص المتقدم، فالذنوب تسبّب تراجعات كبيرة في أوضاع الإنسان الروحية.

ومنها: غياب المنهج الروحي والأخلاقي في الدراسات الحوزوية، وهو أمرٌ يتطلَّب وقفةً جادَّة وأساسية؛ إذ كما تتطلَّع الحوزة لصيانة لسان طالب العلم عن الخطأ في النطق، وكما تتطلَّع لصيانة عقله عن الخطأ في التفكير، أفلا ينبغي أنْ تتطلَّع لصيانة قلبه لتتحصّن جميعُ جوارحه عن الانحراف؟!

ومنها: إهمال الطالب نتيجة الغفلة والانشغال عن هذا الجانب، بما يشمل من مثل الانشغال العلمي؛ لأنّ المواد العلمية -بما هي مواد جافة- إلا القليل منها كمادة الفقه ودراسة آيات الأحكام والحديث، فإنْ ارتبطت جميعُها بالمقاصد، وكانت لدىٰ طالب العلم نية حسنة في ذلك، فسوف يستشعر لذة الوصال.

ثالثاً: لعلاج تلافي التراجع الروحي

ينبغي القيام بالأمور الآتية:

الأمر الأول: وضع خطّة روحية وأخلاقية، ولا أقل تدوين الأولويات العبادية والأخلاقية والولائية، لتكون واضحة من جهة، ومحطّ الاهتمام التطبيقي اليومي أو

الأسبوعي من جهة أخرىٰ. فمن حدَّد زماناً خاصاً لزيارة المعصومة عليها السلام مثلاً، فسوف يحرص علىٰ تحقيق ذلك، ولن يهمل الزيارة انشغالا بالارتباطات الأخرىٰ، وقس علىٰ ذلك من مثل قيام الليل وتلاوة القرآن وغير ذلك.

الأمر الثاني: معاندة الظروف ومجاهدة النفس في تطبيق هذه الخطّة لتتحوّل الممارسات إلىٰ ملكات، وذكر الأخطار والأمراض التي ترغب في تلافيها في ضمن الخطّة، وأخذ قرارٍ بالتصدي لها أمر مهمٌّ في إدامة ذكر الله تعالىٰ، وله تأثيرات روحية كبرىٰ.

الأمر الثالث: تخصيص وقت يوميّ للتفكّر، فمن شأن التفكُّر إيقاظ الإنسان من غفلاته، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**أفكر تفق**»[٤]، ومن أفاق قام بما يجب القيام به؛ لأنَّ التفكُّر داعية، فعن ربعي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**التفكُّر يدعو إلى البرّ والعمل به**»[٥].

فمن تفكَّر في عظمة الله وآلائه ونعمائه استحىٰ، ومن تفكَّر في سكرات الموت وما بعده من العقوبات خاف، ومن تفكَّر في محن الدنيا وعدم وفائها وما فيها من المصائب والبليات وفي فناء أهلها قاده ذلك إلىٰ الاستعداد، وكلّ ذلك موجب لترك الدنيا، والميل إلىٰ الآخرة، ومحبة الحقّ، واستعمال الأعضاء الظاهرة والباطنة فيما خلقت لأجله.

ويمكن الإشارة إلىٰ أمثلة من الأبواب التي ينبغي فتحها للتّفكّر فيها:

الباب الأول: **الأعمال**: ومن موارد التفكُّر في الأعمال: أنْ تدرس طبائعها، وما إذا كانت نافعة أم لا، فعن عليه السلام أنَّه قال: «**تمييز الباقي من الفاني من أشرف النّظر**»[٦].

ويمكن إدخال مفهوم المحاسبة ضمن هذا النوع من التفكُّر، لدراسة النواقص والأخطاء وتدارك ما فات بالتوبة والاستغفار ونحو ذلك، والاستعداد لما ينبغي فعله.

الباب الثاني: الموت: يتفكَّر المؤمن في استعداداته للموت، والموانع التي تحول بين ذلك، وكيف يتلافى تلك الموانع، ونحو ذلك، ويمكن القيام بذلك في أحد المقابر ولو مرَّة في الأسبوع، وهذا يبيِّن ضرورة تحديد وقتٍ في الجدول لزيارة قبور المراجع والعلماء والشهداء، فعن الحسن الصيقل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عمَّا يروي النَّاس: «**أن تفكر ساعة خير من قيام ليلة**» قلت: كيف يتفكر؟ قال: «**يمر بالخربة أو بالدار فيقول: أين ساكنوك، أين بانوك، مابالك لا تتكلمين**»[٧].

الباب الثالث: القرآن: فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**اعطوا أعينكم حظّها من العبادة**» قالوا: وما حظها من العبادة يا رسول الله؟ قال: «**النظر في المصحف، والتفكُّر فيه، والاعتبار عند عجائبه**»[٨].

ولذا ينبغي للمؤمن أنْ يكون له حظٌّ يوميٌ -ليس من تلاوة القرآن والتفكُّر فيه، ومجاهدة النفس في التزامها ومواظبتها على ذلك-، بل في النّظر فيه، وهو سيقود لاستشعار مصدره ومكانته وتاريخه وغير ذلك، وهو موجب للخشوع والخضوع.

الباب الرابع: آلاء الله وآياته: فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**التفكُّر في آلاء الله نعم العبادة**»[٩].

وعنه عليه السلام فيما أوصى به ابنه الحسن عليه السلام: «**لا عبادة كالتفكُّر في صنعة الله عزوجل**»[١٠].

الأمر الرابع: مجالسة الرّوحانيين أو حضور مجالس الوعظ والإرشاد الأخلاقي والرّوحي، فعن الفضل ابن أبي قرة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قالت الحواريون لعيسى عليه السلام : يا روح الله، من نجالس؟ قال: من يذكِّركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغبكم في الآخرة عمله**»[١١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**تذاكرُ العلم بين عبادي ممَّا تُحيى عليه القلوب الميتة إذا انتهوا فيه إلى أمري**»[١٢].

السؤال٢: أحياناً يشعرُ الطالب بأنَّ الوقت قد تضيّق عليه، إمّا لعدم إدارته الحكيمة للوقت أو لطارئ قد حصل له، فيجد نفسه أمام أحد أمرين: إمَّا أنْ يُكمل دراسته من تحضير وتقرير وغيرهما، أو أنَّه يوقف كلّ ذلك ويُمارس في هذا الوقت المتبقي عنده عبادَته التي يداوم عليها، كقراءة القرآن أو صلاة الليل مثلاً أو غيرها فماذا يصنع؟

بسم الله الرحمن الرّحيم.

إنْ لم يكن أحدُنا قادراً علىٰ تنظيم جدول شؤونه الدراسية أو غيرها فهو من التحدّيات التي ينبغي أن يضعها كهدف يتطلَّع إلىٰ تحقيقه؛ إذ المفترض أنَّه قد وضع أنشطته وفق دراسةٍ تحقِّق الغايات، فإذا تأثَّر نشاطٌ معيَّن فلا ينبغي أن يتأثّر نشاط آخر، ليمسك بزمام بقية البرنامج ولا ينهار برنامجه كانهيار حجر الشطرنج، فالالتزام بالخطَّة الموضوعة يعني تحقيق أهدافك، فإذا تأثَّر شيءٌ فلا ينبغي أنْ ينسحب هذا التأثير علىٰ بقية الأشياء، بل سيقودُ إلىٰ تقييم الالتزام بالخطَّة، وما إذا كانت تحتاجُ إلىٰ بعض التعديلات.

نعم أحياناً هناك أولويات تقتضي تأثُّر أنشطة لاحقة، فلا يمكن إهمال مثل تحضير ما سيلقيه الأستاذ علىٰ طلابه، إن لم يكن النشاط اللاحق بمثل هذه الأولوية.

ولذا من أجل إدارة ناجحة للوقت، ينبغي التخطيط والتنظيم والتوجيه والمتابعة والتقييم الفعّال للأعمال والممارسات، ولتحقيق هذا الموضوع أشير لبعض الإجراءات الآتية:

أولاً: تحليل واقع الأعمال والأفعال التي تُمارس يومياً وأسبوعيا، فتُدوّن بشكل مفصَّل، وتُحصرُ الأوقات التالفة، كالوقت الذي يُقضىٰ في استعمال برامج التواصل الاجتماعي عبر النت أو في مشاهدة برامج القنوات الفضائية أو في الحديث الجانبي

بعد الانتهاء من الدّرس أو الصلاة، وبذلك سيتَّضح كيف يُقضىٰ الوقت، ويُعرف مقدارُ الوقت الذي يتسرَّب يومياً من بين الأصابع دون أن يُتنبه إليه، ويُساعد علىٰ تحليل الأَولىٰ والأهم من غيره.

ثانياً: وضع جدول يومي وأسبوعي، تحدّد فيه:

الأولويات الجسدية كالراحة والتجمُّل والأكل.

والأولويات العبادية كالفرائض والتعقيبات والنوافل وتلاوة القرآن وإحياء الليالي الفاضلة في الأسبوع والشهور.

والأولويات والولائية كزيارات النبي وأهل بيته(صلىٰ الله عليهم أجمعين) وإحياء مناسباتهم.

والأولويات الأسرية لأداء حقوق الوالدين والزوجة والأولاد.

والأولويات العلمية والثقافية والتبليغية للقيام بما هو مسؤولية وواجب وتكليف، وهي واضحة للمعنيين بحسب اختصاصهم وتفرّغهم للفقاهة أو للتدريس أو للدراسة أو للخطابة أو للتأليف أو للإدارة أو للتّفقيه الاجتماعي أو غير ذلك.

طبعاً هناك قاعدة نافعة في تحسين مهارات تدبير الوقت وتُسمىٰ بقاعدة "باريتو" نسبة إلىٰ عالم الاقتصاد الإيطالي (فيلفريدو باريتو)، أو تُسمىٰ بقاعدة "ثمانين عشرين"؛ باعتبار أنّ (باريتو) يدّعي أنَّ العالم لا يعرف مساواة في توزيع الثروات، وذلك لأنَّ ٢٠٪ من البشر يملكون ٨٠٪ من أموال العالم، وعمَّمت مجالات استعمالات القاعدة من عالم الاقتصاد والمال إلىٰ كلِّ المجالات، وأطلق عليها اسم: "القلّة المؤثِّرة والكثرة الضعيفة"، باعتبار أنّ ٨٠٪ من النتائج تنشأ عن ٢٠٪ من الأسباب.

وإذا طبّقنا هذه القاعدة علىٰ موضوع تنظيم الوقت، فسنرىٰ أنّ ٢٠٪ مما نقوم

به قد يستهلك ٨٠٪ من الوقت. أو قل: ٢٠٪ من المهام قد تكون مسؤولة عن ٨٠٪ من النتائج. ووفق هذا تكمن أهمية تحديد ٢٠٪ من المهام التي يمكن أن تدرَّ ٨٠٪ من النتائج أو تستهلك ٨٠٪ من الوقت، وتركّز عليها، لكي تستغل الوقت بطريقة فعّالة، وتصون المجهود من الهدر في أشياء غير مهمة.

إذاً فلنفكر في تلك الـ٢٠٪ وإسهامها بشكل مؤثِّر في ما نريد تحقيقه من أهداف ونتائج، ولنبدأ بالتحليل والمراقبة لنعرف أيّ الـ ٢٠٪ التي ينبغي أنْ نقوم بها في حياتنا وعلاقاتنا مع ربنا والمجتمع والدراسة وتحقّق ٨٠٪ من النتائج التي نسعى لها.

وتعرف المهام الداخلة ضمن فئة الـ٢٠٪ المؤثرة، من خلال اتصافها بالاستعجال والأولوية، ومما تحبّ القيام بها ولها تأثير في الوصول إلى الأهداف التي تتطلَّع إليها.

ولذا عليك أن تدوّن المهام التي عليك القيام بها خلال الأسبوع المقبل، وأنْ تقسِّم هذه اللائحة إلى جزئين: الأول تضعف فيه الأعمال التي تنتج ٨٠ في المئة، والثاني للأعمال التي تنتج ٢٠ في المئة فقط. وهكذا تخصّص أفضل أوقاتك للأعمال التي تنتج ٨٠ في المئة، وبالتأكيد سوف يصبح إنتاجك أكبر بكثير من السابق.

السؤال٣: تنتاب طالبُ العلمِ أحياناً حالةُ إدبار فتؤثِّر على تحصيله وروحيّته، فكيف يقوم بالتّصرف الحسن معها؟ وماذا لو طالت عنده هذه الحالة؟

بسم الله الرحمن الرّحيم.

الإقبال نوعان:

النوع الأول: إقبال في العمل: بمعنى حضور القلب وتفهّمه لما يفعل ويقول، وأوضاع وتحولات النفس بحسب طبيعة تفاعلات الأحوال والأقوال والأفعال، فمن تذكَّر عظمة من يخاطب ويتكلّم معه، وأنَّه ليس كسائر المُخاطَبين، فسوف يستشعر

الهيبةَ منه، ومن لاحظ أنَّه مُقصِّر في أداءِ حقّه، فسوف تحصل له حالة حياء، ومنهم من يستشعر الخوف أو الرّجاء بملاحظة تقصيراته مع ملاحظة سعة رحمته تعالىٰ. ومنهم من يُصلّي صلاة مودِّع مع ملاحظة موته.

ومن المعلوم أنّ هذا النوع من الإقبال هو روح العمل وعمدة شرائط القبول؛ إذ مقدار القبول متوقِّف علىٰ مقدار القبول، ولذا فالطامع إلىٰ الوصال ليس له إلاّ المجاهدة الدائمة في تخليص الفكر من المُشغلات الصارفات إلىٰ أنْ يتوفَّق للسانٍ عامل من وراء قلب. وأعني بالمجاهدة الدائمة هي أنْ تكون قبل العمل، وفي أثنائه وما بعده، لتظلّ النّفس مستأنسة بالقربات والطاعات غير مستوحشة ولا نافرة.

النوع الثاني: إقبال علىٰ العمل: بمعنى الرغبة والنشاط، وحبّ التعبد والتهجد، والذّكر القرآني أو غيره.

وإنَّ للنفور والكسل والإدبار أسباب، منها الآتي:

السبب الأول: جفاف البيئة التي يعيشها، والأصحاب أحد مكونات هذه البيئة، فإن لم يتمتع الأصحاب بالنقاء النفسي، والتأجّج الروحي، فسوف يفقد المرء المحفزات والمشجعات والمنبهات، بل سيضطر لمعاندة هذا الواقع، فإمّا أنْ يتغلَّب عليه أو يغلبه فينساق مع تيار الجفاف الغالب.

ولا ريب أنَّ للأصحاب تأثير إيجابي أو سلبي، ومن شدّة هذه التأثيرات تجد أنَّ المرء يعضُّ أصبع الندم قائلاً: ﴿**يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً**﴾[١٣].

وقال تعالىٰ في بيان تأثيرات الأصحاب: ﴿**الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾[١٤].

السبب الثاني: افتقاد الطالب للمربي الذي يقوِّي من عزمه إذا فتر، ويحرِّك همَّته إنْ ضعفت، ويرشّده لموارد التأثيرات السلبية، ويقدِّم له مفاتيح التأثير الإيجابي لفتح

أبواب القرب باستقرار وثبات.

السبب الثالث: تحميل النّفس ما يزيد علىٰ طاقتها دون أن تروّض علىٰ ذلك، كمن يُحمِّل نفسه في حال نشاطها بما لن يتمكّن من القيام به حال الفتور، كمن لم يكن برنامجه وحاله يساعده علىٰ تلاوة القرآن ثلاثة أجزاء لكنّه يشرع في هذا البرنامج حال إقباله ثمّ يتراخىٰ تدريجياً لكونه فوق طاقته، ومنهج النبي وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) هو تبني ما يمكنه الاستمرار عليه، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**قليل تدوم عليه أرجى من كثير مملول منه**»[١٥].

السبب الرابع: المعاصي، فيمكن وقوع طالب العلم في المعاصي، إمّا منه أو في المكان الذي يتواجد فيه، كأنْ يغتاب أو تصدر منه نظرة شهوية وغير ذلك، أو يستمع للغيبة ويرىٰ المعاصي دون أن يحرِّك ساكناً قلبياً أو جوارحياً، ولكلّ ذلك تأثيرات سلبية علىٰ صفاء القلب وطهارته.

السبب الخامس: سوء إدارة شؤون تلبية الحاجات اليومية؛ كطريقة تعاطيه مع الطعام، فلذلك وأمثاله تأثيرات علىٰ النفس.

ووفق ما ذكر يمكن قول الآتي:

أولاً: هذه نماذج من الأسباب المؤثِّرة سلبياً، فإنْ كان شيئاً منها موجوداً في حياته فليسعَ جاهداً للتخلّص منه، وإنْ لم يكن شيئاً منها ظاهراً فليتوسَّل إلىٰ الله تعالىٰ ليكشف له المؤثِّرات التي تصدر منه دون شعور، كإهانةٍ أو أذىً يسبِّبه لزوجته، أو أحد والديه دون التفات، بل ربَّما يعقُّ أبويه الميتين في حالة من الغفلة والنسيان، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**يكون الرّجلُ عاقّاً لوالديه في حياتهما، فيقوم عنهما بعد موتهما، ويصلي ويقضي عنهما الدين، فلا يزال كذلك حتى يكتب باراً، ويكون بارّاً في حياتهما، فإذا مات لا يقضي عنهما ولا يبرهما بوجه من وجوه البرّ فلا يزال كذلك حتى يكتب عاقّا**»[١٦].

ولعلّ التّراجع الروحي بسبب بذور أمراض باطنية، فليتنبه إليها، فعن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزّ وجلّ: إنّ من عبادي المؤمنين عباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلاّ بالغنى والسعة والصحة في البدن، فأبلوهم بالغنى والسعة وصحة البدن فيصلح عليهم أمر دينهم، وإنّ من عبادي المؤمنين لعباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلاّ بالفاقة والمسكنة والسّقم في أبدانهم فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسّقم، فيصلح عليهم أمر دينهم، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادتي فيقوم من رقاده ولذيذ وساده فيتهجد لي الليالي، فيتعب نفسه في عبادتي فأضربه بالنعاس الليلة والليلتين نظراً منّي له وإبقاء عليه، فينام حتى يصبح فيقوم وهو ماقت لنفسه، زارئ عليها، ولو أخلي بينه وبين ما يُريد من عبادتي لدخله العجب من ذلك، فيصيّره العجب إلى الفتنة بأعماله، فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه، لعجبه بأعماله ورضاه عن نفسه، حتى يظنّ أنّه قد فاق العابدين، وجاز في عبادته حدّ التقصير، فيتباعد منّي عند ذلك، وهو يظنّ أنّه يتقرّب إليّ، فلا يتّكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي؛ فإنّهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم وأفنوا أعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين، غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي، والنعيم في جناتي، ورفيع درجاتي العلى في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا، وبفضلي فليفرحوا، وإلى حسن الظّن بي فليطمئنوا، فإنّ رحمتي عند ذلك تداركهم، ومني يبلغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي، فإني أنا الله الرّحمن الرحيم، وبذلك تسميت**»[17].

فهنا تراجعٌ عباديٌ بتدبير إلهي؛ لحفظ المؤمن من التّراجع الروحي، وإشارة إلى خطورة الإحساس بتوّهم التقدُّم والرّقي الروحي، بينما هو في عين التراجع الرّوحي والقربي، ولذا ينبغي دراسة أحوال النّفس وأمراضها ومعالجاتها لكي لا تؤدي إلى التّراجع العبادي أو الروحي في حال قد أوكلنا الله إلى أنفسنا، فليس للمؤمن إلاّ أنْ يراقب نفسه، ويتدبَّر في أحواله، ويتضرَّع إلى الله في أنْ يبصِّره أقواله وأفعاله، لعلَّ

ذلك يفتح باباً من النّور المُرشد.

ثانياً: إنْ عَجَزَ المؤمنُ عن التّعرف علىٰ سبب ظاهر أو خفي في تراجعه العبادي والروحي، فليقم بما يمكنه تلافي بعض الخسارات العبادية والرّوحية، فيذهب إلىٰ صلوات الجماعات، ويتصدَّق، ويكثر من أذكار الصلوات والحوقلات والتسبيحات والسّجودات، ودعوة مؤمن، وزيارة والديه أو الاتصال بهما لإبداء عنايته بهما إن كانا حيين أو إهدائهما بعض الأعمال الصالحة إنْ كانا ميتيين، وغير ذلك من أنحاء الطاعات والمقرِّبات للمولىٰ الكريم.

إنّ القلوب تتغيَّر وتتحوَّل، وما سمي القلب قلباً إلا لكثرة تقلّبه؛ قال الشّاعر:

قد سُمي القلب قلباً من تقلبّه * فاحذر علىٰ القلب من قلبٍ وتحويل

فلنكثر التضرُّع إلىٰ الله تعالىٰ بدعاء الغريق، فعن عبد الله بن سنان قال: "قال أبو عبد الله عليه السلام: «**ستصيبكم شبهة فتلقون بلا علم يُرى، ولا إمام هدى، ولا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق**»، قلت: كيف دعاء الغريق؟ قال يقول: «**يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك**»"[18].

ثالثاً: أن يهتمَّ -سواء كان مهتماً سلفاً بالأعمال الصالحة المتقدمة أو لم يكن- بمراعاة النّفس وعدم إجبارها علىٰ النوافل والمستحبات، فعن علي بن معبد أو غيره، عن أحدهما عليهما السلام قال: «**قال النبي صلى الله عليه وآله إنَّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فتنفّلوا، وإذا أدبرت فعليكم بالفريضة**»[19].

وشبيهه ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النّوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض**»[20].

ولكن لا ينبغي الانسياق مع إدبارها حتى لا تتمادىٰ، فإنْ استثقلت قيام نافلة الليل مرة، فلا ينبغي أن يُسمح لها في ليلة أُخرىٰ، وإن كان ولا بدَّ من التّرك فلا

أقل يُقام من نافلة الليل بعضها أو تُستبدل ببعض الأعمال العبادية كمجرد السّجود بين يدي الله تعالىٰ شاكياً سوء الحال وحالة الإدبار، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**وخادع نفسك في العبادة، وارفُق بها ولا تقهرها، وخذ عفوها نشاطها إلاّ ما كان مكتوباً عليكَ من الفريضة، فإنَّه لا بدّ من قضائها وتعاهدها عند محلّها**»[٢١].

فقد يُستفاد من الحديث مطلوبية استخدام أسلوب المخادعة، فارفق بها ولا تقهرها، ولكن لا تهملها، لأنّ المخادعة تعني الوصول إلىٰ ما لا يمكن الوصول إليه بشكل مُباشر، مما يعني السعي للإتيان بما يثقل علىٰ النّفس، بلطف ومداراة من غير عنف، لا أنْ تترك، فالنفس لحال رغبتها، فربما لن تتحقق الرغبة والإقبال من غير مخادعة وإكراه، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**إذا صعبت عليك نفسك فاصعب لها تذلّ لك، وخادع نفسك عن نفسك تنقد لك**»[٢٢].

وهناك فرق بين الإكراه الابتدائي الترويضي وبين الإكراه حال المداومة، فمن لم يكره نفسه ابتداء ويروِّضها فلن ترغب ولن تُقبل علىٰ ما ينبغي القيام بها، وهذا ما قد يُستفاد من مثل ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**أفضلُ الأعمالِ ما أكرهتَ نفسكَ عَليْه**»[٢٣].

فحين يجد الإنسان إدباراً فليسعَ ليتداركه، لأنّ المداومة أمر مؤثِّر في الأعمال، فعن سليمان بن خالد قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إياك أنْ تفرض على نفسك فريضة فتفارقها اثني عشر هلالاً**»[٢٤]، فمن قرَّر القيام بطاعة من الطاعات المقرِّبة إلىٰ الله تعالىٰ فلا ينبغي مفارقتها لتعطي تأثيرها، وهذا يعني المداومة ومعاندة النفس حين يستمرُّ معها الكسل والخمول، فتروَّض لتلتزم لكي يُشكِّل العملُ الدّائمُ قاعدةً للرّقي إلىٰ مراتب أرفع في القرب.

رابعاً: تذكير النّفس بما يجدِّد بصيرتَها، فإنْ استثْقَلتْ نفسي عن تلاوة القرآن، فعليّ النّظر في النصوص الحديثية التي تتكلَّم عن القرآن، وإن استثْقَلتْ نفسي عن

صلاة الليل، فعليّ النظر في الروايات المعنيّة بصلاة الليل، وهكذا، فكلام النبي وأهل بيته(صلوات الله عليه وعليهم) نورٌ، ومن شأن هذا النور أنْ يبث الحياة إلى القلب من جديد، ويحرِّك الهمَّة ويشعل العزيمة.

وفي هذا الإطار ينبغي اختيار واستشعار بعض الثمار، لتكون منبهاً وحافزاً، مثل اختيار هدف التقرُّب إلى الله تعالى للخروج من دائرة الكذَّابين، لكي يكون الهدف هذا دافعاً للقيام، أمَّا كون النافلة مثلاً موجبة للتقرُّب فمما ورد عن حماد بن بشير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله : -**إلى أن قال- **وما تقرّب إليّ عبدٌ بشيء أحبّ مما افترضت عليه، وإنَّه ليتقرب إليّ بالنافلة حتى أحبّه**»[٢٥].

وإمَّا كونُ النافلة مخرجة من دائرة الكذابين، فما ورد عن المفضل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**كان فيما ناجى الله عز وجل به موسى بن عمران عليه السلام أنْ قال له: يا بن عمران، كذب من زعم أنَّه يحبّني فإذا جنّه الليل نام عنّي، أليس كُلُّ محبّ يحبّ خلوة حبيبه، ها أنا ذا يا بن عمران مُطّلع على أحبائي..**»[٢٦].

خامساً: التركيز على اجتناب ما يوجب قساوة القلب والقيام بما يُرقِّقه، فمن عالج قساوة قلبه صانه عن الإدبار، فكثرة الذنوب، والرغبة في عيش الغد، وكثرة الكلام، وكثرة الضّحك، وترك الذكر، وأمثال ذلك كلُّها موجبات لقساوة القلب، والقيام بنقيضها موجب لرقته، وإن ضُربَ ترك الذّكر مثالاً للمؤثِّر السلبي، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**ترك الذكر يميت النّفس**»[٢٧]، بينما القيام به مرقِّقاً للقلب، كما ورد عن أبي جعفر عليه السلام أنَّه قال: «**وتعرَّضْ لرقة القلب بكثرة الذكر في الخلوات**»[٢٨].

السؤال٤: الروايات عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام تُشير إلى وجود مرض الحسد بين طلبة العلم، ويلحظ هذا المرض عادة بشكل واضح بين الأقران، سواء كانوا في درس واحد أم منطقة واحدة أم غير ذلك، فكيف يحصّنُ

الطالبُ نفسه من هذا المرض؟ وإذا وقع كيف يتخلَّص منه؟

بسم الله الرحمن الرّحيم.

من المهمّ للمؤمن تشخيص الحال الذي يعاني منه، فهل هو غيرة أو غبطة أو حسد، ولكلٍّ حال حكم خاص، فإنْ كان غبطةٌ ومنافسة، بمعنى تمنّي مثل ما عند المغبوط؛ أي: يريد لنفسه مثل ما عند أخيه دون أن يريد زوال ما عند أخيه، فهذا الحال ليس مذموماً بل يدور حكمه مدار السبب، فإنْ كان دنيوياً، فعلّته حبُّ المباحات الدنيوية والتنّعم فيها، وهو وإنْ لم يكن حراماً، إلاّ أنَّه منافٍ للزهد والتوكّل والرضا، وإن كان السبب أمراً دينياً فعلّته حبُّ الله وحبّ طاعته، وهو أمر قد يكون واجباً وقد يكون مستحباً، كلّ بحسبه، ويمكن شموله تحت قوله تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[٢٩].

طبعاً هذا كلُّه إنْ كان الأمرُ مقصوراً علىٰ مجرَّد الوصول إلىٰ مثل ما للمغبوط لكونه من مقاصد الدين، أمَّا لو اقترن معه حبّ المساواة وكراهة التخلُّف والنقصان، ففيه خطر الوقوع في الحسد؛ لأنّ إرادة المساواة لغيره تفتح باب شهوة زوال النعم عن الغير عند العجز عن الوصول إليها؛ إذ بزوالها يزول شعوره بالتخلُّف والنقصان، بل قد يشعر بالارتياح أو الفرح والعياذ بالله.

ولعلّه لذلك عُبّر عن الغبطة بالحسد في بعض النصوص، وقد حمل معنى الحسد في هذه النصوص علىٰ الغبطة، باعتبار عدم انفكاكها عن أحدٍ، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**ثلاث لا يسلم منها أحد: الطيرة، والحسد، والظنّ**»، قيل: فما نصنع؟ قال: «**إذا تطيّرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق**»[٣٠]؛ أي: إنْ وجدت في قلبك شيئاً من الحسد فلا تعمل به، وكن كارهاً له.

وكيف كان فالسؤال عن الحسد، والحسد يعني تمني المرء لزوال نعمة الله تعالىٰ عن أخيه المؤمن، مع ظنِّه بكون تلك النعمة التي يتمنَّىٰ زوالها هي من صلاح

ومصلحة المحسود، ولذا فإنْ كان باعثُه لذلك هو مجرَّد الحرص على وصول النعمة إلى نفسه فهو عائد إلى رداءة قوته الشهوية، وأمَّا إن كان الباعث مجرّد الرغبة في وصول المكروه إلى المحسود فهو من رذائل قوته الغضبية، ويكون من نتائج الحقد الناتج من الغضب، وأمَّا إنْ كان الباعثُ مركَّب من القوتين المذكورتين، فهو من نتائج رداءتهما معاً.

فالمعيار في كون المرء «حاسدا»: أنْ يريد المرء للآخر ما يكرهه لنفسه، ويكره له ما يريده لنفسه، وهذا يكشف عن خبث في السريرة.

علاج الحسد:

وأشير إلى ثلاثة أدوية لعلاج هذا المرض:

الدواء الأول: أنْ يغيّر الحاسد طبيعة تفكيره الخاطئ، وذلك بأنْ يعرف أنَّه سيقع فيما يريد الفرار منه، فإنْ كان يريد المصلحة لنفسه والضرر لمحسوده، فبالحسد سيحصل عكس ما يريد، فبالحسد سيضرُّ نفسَه، وينفع محسودَه، أمَّا ضرر نفسه فمن جهتين:

الجهة الأولى: أنَّ الحسد يسبِّب الأمراض الباطنية كالحزن والألم؛ إذ أنَّه يحزن ويتألم بكلّ نعمة يراها عند غيره، ونِعَمُ اللهِ تعالى لا تُحصى فآلامه وأحزانه لا تُحصى.

الجهة الثانية: انتقالُ صالح أعمال الحاسد إلى ديوان المحسود بسبب ظلمه لمحسوده، فعن النبي صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النّار الحطب**»[٣١].

وأمَّا منفعةُ المحسود، فقد اتضحت من خلال ازدياد حسناته ورفع درجاته؛ إذ المظلومية التي تعرَّض لها كالعيب أو الغيبة أو التسقيط أو الإهانات أو غير ذلك، أوجبت حمل الحاسد لبعض معاصي المحسود، ونقل بعض من حسناته إليه.

الدواء الثاني: أنْ يُصفِّي رؤيتَه العقائدية من الشوائب والانحرافات؛ إذ أنَّ الحاسد ساخطٌ على إرادة الله تعالى، وشاكّ في حكمته، وإلاّ فلو كان مسلِّماً بقضاء الله تعالى وقدره، ومطمئناً بعلم وحكمة خالقه، لما اعترض **أولاً**: على وضعه، فإنّ الله تعالى قد أفاض نعمه عليه بحسب استعداده ومصلحته، وهما أمران لا يدركهما العبد من نفسه، ولما تمنَّى **ثانياً**: زوال النعم الإلهية عن عباد الله، لأنّ الله تعالى محبّ للخير، والحاسد مُحبٌّ للشرّ، فهو معاند لما يُحبُّه الله ويريدُه، وفي الكتب القديمة: «**يقول الله عزّ وجلّ: الحاسد عدوّ لنعمتي، متسخِّط لفعلي (لقضائي)، غير راض بقسمتي (التي قسمت بين عبادي)**»[٣٢].

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**قال الله عزّ وجلّ لموسى بن عمران عليه السلام: يا بن عمران، لا تحسد النَّاس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدّنَ عينيك إلى ذلك، ولا تتبعه نفسك، فإنَّ الحاسد ساخطٌ لنعمي، صادّ لقسمي الذي قسمت بين عبادي، ومن يكُ كذلك، فلست منه وليس مني**»[٣٣].

فليطمئن الحاسدُ بأنَّ اللهَ تعالى عليم حكيم عادل، لا يظلم أحداً مثقال ذرةٍ، ولينظر بعين البصيرة إلى ما فضَّله اللهُ به على كثير من خلقه، فإنّ الجحودَ بفضل الله تعالى موجبٌ للهلاك؛ إذ الكثيرون ينظرون إلى ما حُرِمُوا منه، ولا ينظرون إلى ما رزقوا به، وهذا جحود للنعم.

الدواء الثالث: تطهير النّفس من الأمراض الباطنية، ومن الأمراض المولدة للحسد:

أولاً: حبُّ الرئاسة وطلب الجاه، فقد يحبّ المرء الثناء والمدح على شجاعته أو علمه أو عبادته أو جهاده أو رؤيته السياسية، ويكره أنْ يكون له نظير أو متفوِّق عليه في ذلك، فيتمنَّى زوال الصواب في الفكرة لتظهر صوابيّته، ويتمنَّى أنْ يغيبَ فلانٌ عن الساحة السياسية لتتفرّد وتسود قناعتُه ورؤيتُه، ويشتدُّ هذا الأمر خوفاً

من المقاصد الواحدة، كتحاسد الضرَّات في مقاصد الزوجية، وتحاسد الأخوة في نيل المنزلة في قلب الوالدين، وتحاسد التلامذة في نيل المنزلة في قلب الأستاذ، وتحاسد العلماء والتيارات السياسية في نيل المقبولية الجماهيرية، أنت لا تجد تحاسداً بين أشخاص وجهات من بلدان بعيدة، وذلك لعدم تنافسهما علىٰ مقاصد واحدة يشاركه معه في مكان واحد.

ثانياً: التّكبر، فبعض النَّاس يشعر بالترفُّع العائلي أو العلمي ونحوهما، فيتوقّع متابعة تلامذته، فإذا تميّز أحدهم علمياً أو اجتماعيا لم يتحمَّل تفوُّق تلميذه عليه، فيتمنى زوال نعمة التفاف الجماهير وسيادة الرأي لتصل إليه، وقد يكون تكبُّره مدعاة لاستحقاره لتلميذه أو زميله، ويستنكر تقدَّمه وتميُّزه، فيحسده ويحبّ زوال ما لديه من نِعَم.

ثالثاً: الكراهية والبغضاء؛ إذ من عادىٰ أو اختلف قد يفرح لزوال الدّعم والالتفاف الاجتماعي مع من يختلف معهم في الخيارات السياسية مثلاً.

والتطهير يحصل بالتخلُّص من الأمراض، فيرتفع في وضعه المعنوي والأخلاقي والروحي والفكري؛ لأنّ الحسد من صفات الهابطين المسجونين في سجن الأنا والذات، أمَّا المتخلِّصون من الحسد، فهم أهل العلو والرّفعة، ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾[٣٤]؛ فينظرُ لأصحاب النعم بالنظرة الإيجابية، فيفرح حين يجد المتحمّلين للمسئوليات في نصرة الدين، فيشكر الله تعالىٰ أن وفق لمن يعينه علىٰ أداء رسالته، أو تخليصه من المسئوليات التي علىٰ عاتقه، وأنّ العزة التي صارت لفلان ليست عزة لشخصِه، بل هي عزّة للدين والمجتمع والوطن، فيعمل علىٰ مساندتها، وليس التخلّي عنها أو إضعافها.

السؤال٥: نلاحظ أنَّ النَّاس في المجتمع يبالغون في المدح والمجاملة، وهذا المدح له آثاره الخطيرة كما في الروايات، فكيف أتعامل مع هذا

المدح والمجاملات؟

بسم الله الرحمن الرّحيم.

المدح عملية ذبح، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**مَنْ مَدَحَكَ فقدْ ذَبَحَكَ**»[٣٥]، وإذا تعرَّض المؤمن لهذا الذبح، فينبغي اتخاذ المواقف المناسبة لمقاومة هذا الذبح، ومن هذه المواقف:

الموقف الأوّل: أنْ يتوجَّه إلى الله تعالى مُستذكراً أحواله مع الله تعالى ليتصاغر في نفسه، وليصرّح بذلك علنياً من خلال الدعاء الذي ورد كـ(أمر، وصفةٍ، وسيرةٍ):

أمَّا كأمر: فلوروده عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**يا علي، إذا أُثني عليك في وجهك فقل: اللهم اجعلني خيراً مما يظنُّون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون**»[٣٦].

وأما كَصِفةٍ: فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في بيان صفات المتقين لهمام: «**إنْ زُكِّيَ أحدُهم خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم مني بنفسي، اللهمَّ لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنّون، واغفر لي ما لا يعلمون، فإنَّك علّام الغيوب، وستّار العيوب**»[٣٧].

وأما كسِيرَةٍ: فقد ورد أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام كان إذا أُثني عليه في وجهه يقول: «**اللهمَّ إنّك أعلم منّي بنفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهمَّ اجعلني خيراً مما يظنّون، واغفر لي ما لا يعلمون**»[٣٨].

ونَقْل هذا الدعاء كسيرة يُبيِّن لنا بأنّ القول ليس إخفاتياً بل مسموعاً للمادح، وهي ردّة فعل موجبة لإخماد انتفاخ النّفس، وكأنَّه يقول لنفسه استذكري وضعك مع ربّك.

الموقف الثاني: استذكار الرؤية التي تصوغها الروايات للمادح لكي لا يستخف به المدح، عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**لو مشى رجلٌ إلى رجلٍ بسكين مرهف كان**

خيراً له من أن يثني عليه في وجهه»[٣٩]، وفي هذا التّصوير إيضاحٌ لمدىٰ خطورة التفاعل مع الإطراء، وأنّ الذبح به موجب لهلاكه؛ لأنّ للإطراء ريحاً خبيثة موجبة للوث القلب، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**احترسوا من سورة الإطراء والمدح، فإنَّ لهما ريحا خبيثة في القلب**»[٤٠]، ومن صور الريح الخبيثة:

أولاً: الزهو: ما عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**كثرة الثناء ملق يُحدثُ الزهو، ويدني من العرة (العزّة)**»[٤١].

ثانياً: الإعجاب بالعمل: عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**ولا تغتر بقول الجاهل، ولا بمدحه، فتكبر وتجبر وتعجب بعملك، فإنَّ أفضل العمل: العبادة والتواضع**»[٤٢].

الموقف الثالث: دراسة طبيعة المدح المسموع لتتعامل النَّفسُ معه بوعي وبصيرة، فلو كان المذكور ليس في الممدوح، فليعرف بأنَّ المادح إنْ كان عالماً بذلك فهو مستهزئ، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**مَنْ أُثْني عَلَيْهِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ سُخِرَ بِهِ**»[٤٣]، والموقف الاستهزائي يؤذّي النفس ويستخفها ولا يفرحها، والمعزّز للأذىٰ أنّ هذا النمط من المادحين لا يؤمن جانبُهم ليفرح بإطرائهم، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**من مدحك بما ليس فيك فهو خليقٌ أنْ يذمّك بما ليس فيك**»[٤٤].

وعنه عليه السلام أنّه قال: «**مادحك بما ليس فيك، مُستهزئ بك، فإنْ لم تنفعه (تُسعفهُ) بنوالك، بالغ في ذمّك وهجائكَ**»[٤٥].

وقريب منه ما ورد عنه عليه السلام أنّه قال: «**إنَّ مادحك لخادع لعقلك، غاش لك في نفسك بكاذب الإطراء وزور الثناء، فإنْ حرمته نوالَك أو منعتَه إفضالك، وسَمَكَ بكلّ فضيحة، ونسبك إلى كلّ قبيحة**»[٤٦].

الموقف الرابع: كراهةُ المدح أو تكريه النفس له: عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**حبُّ الإطراء والثناء يعمي ويصم عن الدين، ويدع الديار بلاقع**»[٤٧]، فإنْ كانت هذه تأثيرات حبّ المدح، فلا يحبّه إلاّ جاهل، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«أيُّها النَّاس! اعلموا أنَّه ليس بعاقل من انزعج من قول الزور فيه، ولا بحكيم من رضي بثناء الجاهل عليه»[٤٨].

الموقف الخامس: اعتبارُ المدح مذكِّراً ومقياساً للتوحيد والولاية، فحين يسمع أحدنا الإطراء فلينظر لباطنه، فإنْ رأى فرحاً وارتياحاً، فليجعله إنذاراً بالمرض الخطير المستشري في باطنه بصمت، فيستنفر جهده للتخلّص منه قبل الفوت، فعن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «**لا يصير العبدُ عبداً خالصاً لله عزّ وجلّ حتى يصير المدحُ والذمُّ عنده سواء؛ لأنَّ الممدوح عند الله عزّ وجلّ لا يصير مذموماً بذمِّهم، وكذلك المذموم، فلا تفرح بمدح أحدٍ، فإنَّه لا يزيد في منزلتك عند الله، ولا يغنيك عن المحكوم لك، والمقدور عليك، ولا تحزن أيضا بذمّ أحدٍ فإنَّه لا ينقص عنك به ذرة، ولا يحطّ عن درجة خيرك شيئاً، واكتفِ بشهادة الله تعالى لك وعليك، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾**[٤٩]، **ومنْ لا يقدر على صرف الذمّ عن نفسِه، ولا يستطيع على تحقيق المدح له، كيف يرجى مدحه أو يخشى ذمّه، واجعل وجه مدحك وذمّك واحداً، وقفْ في مقامٍ تغتنم به مدح الله عزّ وجلّ لك ورضاه»**[٥٠].

وعن أبي جعفر عليه السلام أنَّه قال لجابر بن يزيد الجعفي: «**وإنْ مدحت فلا تفرح، وإنْ ذممت فلا تجزع، وفكّر فيما قيل فيك، فإنْ عرفتَ من نفسك ما قيل فيك، فسقوطك من عينِ الله عزّ وجلّ عند غضبِك من الحقّ أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين النَّاس، وإنْ كنتَ على خلاف ما قيل فيك، فثوابٌ اكتسبته من غير أن يتعب بدنك، واعلم بأنَّك لا تكون لنا وليا حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا: إنّك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنَّك رجلٌ صالحٌ لم يسرُّك ذلك، ولكن أعرض نفسك على كتاب الله، فإنْ كنتَ سالكاً سبيله، زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه، فاثبت وأبشر، فإنَّه لا يضرّك ما قيل فيك، وإنْ كنتَ مبائنا للقرآن فماذا الذي يغرّك من نفسك، إنّ المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها، ويخالف هواها في محبة الله، ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله**

فينتعش، ويقيل الله عثرته فيتذكّر، ويفزع إلى التّوبة والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف، وذلك بأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[51]»[52].

السؤال٦: كيف يربي طالبُ العلم نفسه في الموقفين التاليين:

(أ) حينما يحتدم النّقاش في المباحثة قد تعترضُ النّفسَ بعضُ الخواطر بشكلٍ طارئ كحبّ الغلبة، والإصرار على الرّأي، وخوف المراء، والعجب بلطافة البيان، فكيف يمكن السيطرة على هذه الخواطر حتى لا يفلت الإخلاص من اليد؟

(ب) ما هو الحال الذي ينبغي أنْ يعيشه طالب العلم عند ثناء المدرس عليه أو على أحد آخر أمامه؟

بسم الله الرحمن الرحيم.

أولاً: فيما يتعلّق بتسرّب الخواطر الشائبة إلى النفس عند النقاش، فيمكن الإشارة إلى النقاط الآتية:

النقطة الأولى: من شعر من نفسه ذلك، فليعلم بتلوّث باطنه بمستوىً من المستويات، وهو ما يستدعي تمييز نوع المرض لعلاجه، فمرض حبّ الغلبة راجع إلى القوة الغضبية، ومرض العجب راجع إلى القوة الشهوية، ومرض الإصرار على الرأي راجع إلى القوة الشيطانية.

النقطة الثانية: أن نُعلِّم النّفس آداب الحوار مع الآخر، فتتعلّم أنْ تستمع ولا تُصاخب أو تُشاغب، ونقاش رفع الأصوات ليس صحيحاً على الإطلاق -وإنْ اقتضته الحكمة فهو بحاجة لتشخيص وليس انسياقاً لغضب النفس وشهوتها-، فإنْ كان الغرض إيصال الحقّ والصواب إلى الآخر أو كان الغرض فهم الحقّ أو تشخيصه

فلن يتحقَّق بالانفعال المؤدِّي للصمم، وكم هو جميل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**ينبغي للعالم أنْ يكون قليل الضّحك، كثير البكاء، لا يمازح، ولا يصاخب، ولا يماري، ولا يجادل، إنْ تكلَّمَ تكلّم بحقّ، وإنْ صمتَ صمت عن الباطل، وإنْ دخل دخل برفق، وإن خرج خرج بحلم**»(٥٣).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**إذا جلست إلى عالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلّم حسن الاستماع كما تتعلَّم حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه**»(٥٤).

وآداب الحوار -ما يشمل خلوصه ابتداء واستمرارا لله والحقّ- تتحقَّق من خلال تنبّه النّفس إلى أمراضها في حواراتها، ويشرع صاحبُها إلى ترويضها، ففي مثل التّحلّي بالإخلاص فيمكن تعويدها على الصمت في الحالات التي لا يُوجب شبهةً وضرراً دينياً أو فكرياً أو نحو ذلك، فإنْ لم يكن شيئاً من هذا القبيل فيمكنه منعها عنه حين ترغب في الكلام وتشتهي النقاش والحوار، أو حين تشعر بالقدرة على إفحام الآخر، أو حين الشعور بصوابيّة الفكرة ووضوح خطأ فكرة الآخر، فالامتناع في مثل هذه الموارد يمكن من تقنين اللسان بالعقل، وبذلك يتجرَّد عن الشهوات الابتدائية أو الطارئة كشهوة الانتصار وغيرها.

ثانياً: في الأمر المتعلِّق بثناء الأستاذ:

فأمّا ثناؤه فإنْ كان ثناؤه عليَّ، فلا ينبغي أن يؤثِّر في النّفس سلبياً، لأنّ المدح كما أُشير إليه ذبح، وينبغي مقاومة هذا الذبح؛ لأنّ التسليم له موجب للهلاك والابتلاء بالأمراض، كمرض العجب، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**إعجاب المرء بنفسه برهان نقصه، وعنوان ضعفه**»(٥٥).

فمن وجد فيه شيئاً من هذا الإحساس -كالعجب والفخر والزهو ونحوها- فليخاطب أستاذه في باطنه: عرفتَ شيئاً وغابت عنك أشياء.

ويستذكر في باطنه نواقص نفسه التي لا يعلم بها إلا هو، وهذا ما يمكن استفادته مما ورد عن أبي جعفر عليه السلام أنَّه قال في وصيته لجابر الجعفي: «**وسدّ سبيل العجب بمعرفة النّفس**»[٥٦]، فمعرفة النفس بموارد ضعفها وسلبياتها وتقصيرها مع ربّها موجب لسدٍّ مثل هذه التوهّمات. ومن أبعاد معرفة النفس معرفة منشأها وأحوالها ومآلاتها، وهو أمر يشير ما عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**ما لابن آدم والعجب؟! وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة**»[٥٧].

ولو فرض أنْ نال المرءُ من الكمالات الجسمانية والإمكانات المالية ما من شأنها إيجاب العجب والفخر والزهو فليقل لنفسه:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أنْ لا بقاء للإنسان

أنت خلو من العيوب ومما ... تكره النّفس غير أنّك فان

فليعرف أحدُنا قدرَه لكي لا ينفش ريشه، وإن أراد نفشه، فلينفشه بعد أن يمرّ على الصراط، وحين يتكئ على سريره في جنان الخلد، أجارني الله وإياكم من غفلة النّفس.

وإن كان ثناء الأستاذ على زميل من الزملاء، فعليَّ اجتناب ما يُثير حسدي وكراهيتي وانزعاجي، بل أسأل الله تعالى أن يُكثر من أمثاله، ويوفقّه في مسيرته العلمية والعملية ليكون جنود الدين وحماته، بل لو تعرَّض المتميزون إلى ما يُعيق مسيرتهم العملية والعملية، وأمكنني المساعدة والإعانة في تذليل تلك العقبات لوجب عليَّ ذلك، لتمكينهم مما يجعلهم مرابطين في ثغر نصرة الدين وإعزاز المؤمنين.

أخيراً إنْ شعر طالبُ العلم بتميِّز كلطافة البيان ونحوه، فليعلم بأنّ ذلك من نعم الله تعالى ومننه، فلا يشعر بفضل منه، بل الفضل من الله تعالى، وكلّ ذلك موجب للشكر له سبحانه، فما بنا من نعمة إلا من الله تعالى.

وينبغي مراقبة النفس لكي لا تنسىٰ فضل الله تعالىٰ عليها، وليُصرف عن الذهن كلّ خاطر مريض.

السؤال٧: هناك حالة عامة وهي: الغفلة عن الجانب الأخلاقي والرّوحي، سواء بين الأستاذ والطالب، أم بين الطلبة أنفسهم، فيترك هذا الأمر أثره على الطالب، فيصبح غير آبه، وغير مهتمّ بهذا البعد، فما هي الاقتراحات التي من الممكن أن تحدّ من هذه المشكلة الخطيرة؟

بسم الله الرحمن الرحيم.

سأعرض عن ذكر المقترحات التي تتعلَّق بدورنا تجاه البيئة السلبية العامة، وهي بيئة تتطلَّب سعياً جاداً لتغييرها؛ لأنَّنا نعيش فيها ونتعايش معها، فإنْ ظلَّت علىٰ حالها فلن نفلت من تأثيراتها السلبية.

وإن كان من مقترحات خاصة، فينبغي لطالب العلم الآتي:

أولاً: تنبُّهه إلىٰ أنَّ العلم الحقيقي هو العلم الأخلاقي والروحي، وهذا ما أشارت إليه الكثير من الأخبار منها عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**رأسُ العلم التمييز بين الأخلاق، وإظهار محمودها، وقمع مذمومها**»(٥٨).

وعنه عليه السلام أنَّه قال: «**خيرُ العلم ما أصلحتَ به رشادك، وشرُّه ما أفسدتَ به معادك**»(٥٩).

وعن أبي جعفر عليه السلام أنَّه قال لجابر الجعفي: «**واعلم أنَّه لا علم كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب**»(٦٠).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**العلم يرشدك إلى ما أمرك الله تعالى به، والزهد يسهِّل لك الطريق إليه**»(٦١).

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنَّ موسى عليه السلام لقى الخضر عليه السلام فقال: أوصني، -** فأوصاه الخضر بوصايا إلى أن قال:- **أشعر قلبك التقوى تنل العلم**»[٦٢].

فإذا كان هذا شأن العلم الأخلاقي والروحي وموقعيّته، فإنَّ التقصير في رأس العلم وخيره خلاف الرشّد والصواب.

ثانياً: تنظيم الشأن الأخلاقي والروحي وبرمجتهما ضمن المهمات والأنشطة اليومية درساً أو قراءة أو أعمالاً ونحوها كالاستعمال الدائم للمنبِّهات والمذكرِّات كمجالس الوعظ، وزيارة المقابر وأمثال ذلك، ومجاهدة النفس الدائم لتطبيق ما تمّ تبنِّيه من أمور في البرنامج اليومي.

وما لم ينظّم المرء ويدوِّن حاجاته الأخلاقية والروحية والعبادية والولاية، فسوف تضيع أو يغفل عنها في زحمة الانشغالات والارتباط، فمثلاً الأبعاد الولائية: كزيارة عاشوراء اليومية أو الزيارة المقنّنة والجادة للمعصومة (صلوات الله عليها)، فإنْ دُوّنتا وتحولتا إلى مشروع ضمن البرنامج اليومي أو الأسبوعي أو غير ذلك، فلن يُحرم المرء من تأثيراتهما الكبرى، ولن تتحوَّل إلى روتين بارد، أو استقصاد عرضي إن لم يطويا في سجل الغفلة أو النسيان، فيكون جافياً مشمولاً لقول أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**ما أجفاكم بالحسين عليه السلام**»[٦٣].

وهكذا الشأن في الأعمال العبادية كقيام الليل والنوافل اليومية وقراءة القرآن وما شابهها.

أو الأعمال الرّوحية كزيارة المقابر ومجالس الوعظ والإرشاد وقراءة كتاب وعظي أو المحاسبة والمراقبة والتفكُّر، فمثل المحاسبة والتفكُّر وحضور مجالس الوعظ والإرشاد، عملٌ روحي، يحرِّك رغبات النفس نحو القرب من الله تعالى، ويُشعل همّتها في التغيير.

هذا بعض ما ينبغي مراعاته لتلافي النقص العلمي والروحي والأخلاقي في هذا

المجال.

السؤال٨: ما هي الأمور التي يُعدُّ التمسّك بها بمثابة الضمانة من عدم الانزلاق في مستنقع الانحراف؟

صمَّامات الأمان التي ذكرها الإسلام كثيرةً جداً، ولها مسارات مختلفة كالصيانة عن الانحراف في علاقة الإنسان مع ربِّه، أو في علاقة الإنسان مع النَّاس وهكذا، ومثل هذا البحث يستحق دراسة ووقفة تحليلية جادّة، ولكن بما أنّ الظرف لا يسمح بذلك، فيمكن الاكتفاء بإشارات كخطوط عريضة لبعض النصوص الشريفة دون تعليق أو ترتيب أو تحديد لمسارات صماميّتها وما إذا كانت ذاتية أو اجتماعية؛ لأنها في الأعمّ شاملة وصمام عن الانحراف في جميع مناحي الحياة الذاتية والاجتماعية أسرية أو سياسية أو غير ذلك:

الصمام الأول: المعرفة: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**من جهل موضع قدمه زل**»[٦٤]، وعنه عليه السلام أنَّه قال: «**من استرشد بالعلم أرشده**»[٦٥].

وعنه عليه السلام أنَّه قال: «**العامل بجهل كالسائر على غير طريق فلا يجديه جدّه في السّير إلا بعداً**»[٦٦].

الصمام الثاني: صحة الدّيانة: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**من صحَّت ديانته قويت أمانته**»[٦٧].

الصمام الثالث: الخوف من الله تعالى: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**من خاف ربّه كفّ ظلمه**»[٦٨]. كفّ ظلمه لنفسه أو لغيره.

الصمام الرابع: التّذكر: قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾[٦٩].

هذه كلّها صمامات أمان عن الانحرافات في كل المجالات والشؤون، رزقني الله

وإياكم التحلي بها.

الصمام الخامس: صدق الورع: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**من صدق ورعه اجتنب المحرمات**»[٧٠].

الصمام السادس: الإكثار من ذكر الموت: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**من أكثر من ذكر الموت نجا من خداع الدنيا**»[٧١].

الصمام السابع: البكاء من خشية الله: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**البكاء من خشية الله ينير القلب ويعصم عن معاودة الذنب**»[٧٢].

الصمام الثامن: الزهد: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**من زهد في الدنيا حسن دينه**»[٧٣].

الصمام التاسع: امتلاك النفس: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**من لم يملك شهوته لم يملك عقله**»[٧٤].

الصمام العاشر: المراقبة: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**رحم الله امرأً راقب ربّه، وتوكف ذنبه، وكابر هواه، وكذب مناه**»[٧٥]. والتوكّف: التجنب. والمكابرة: المعاندة والمغالبة، وهو الصمام الآتي.

وعنه عليه السلام أنَّه قال: «**من راقب العواقب سلم**»[٧٦].

الصمام الحادي عشر: المجاهدة: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**من لم يجاهد نفسه لم ينل الفوز**»[٧٧].

الصمام الثاني عشر: المحاسبة: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**من حاسب نفسه سعد**»[٧٨].

الصمام الثالث عشر: الحكمة: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**الحكمة عصمة**»[٧٩].

الصمام الرابع عشر: التأني والثبت: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**المتأني مصيب وإن هلك**»[٨٠].

وعنه عليه السلام أنّه قال: «**التّثبت خير من العجلة إلاّ في فرص البرّ**»[٨١].

الصمام الخامس عشر: التحلّم: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**من حلم لم يفرط في الأمور وعاش حميدا في النّاس**»[٨٢].

وعنه عليه السلام أنّه قال: «**الحلم حجاب من الآفات**»[٨٣].

الصمام السادس عشر: الصبر: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**الصبر عن الشهوة عفّة، وعن الغضب نجدة، وعن المعصية تورع**»[٨٤].

الصمام السابع عشر: المشاورة: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**الشّركة في الرأي تؤدي إلى الصّواب**»[٨٥].

الصمام الثامن عشر: الاعتزال: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**من اعتزل سلم**»[٨٦].

وعنه عليه السلام أنّه قال: «**من انفرد عن النّاس صان دينه**»[٨٧].

الصمام التاسع عشر: الصمت: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**الصمت يكسيك ثوب الوقار ويكفيك مؤونة الاعتذار**»[٨٨].

وصماميّة كلّ أمر من الأمور المذكورة يرجع إلى مدى التّحلي به، فكلّما كان التّحلي به قوياً، كانت فاعليتُه وتأثيره أكبر في عصمة الإنسان.

السؤال٩: ما النصيحة التي تقدمونها للطلبة كثيري الغياب عن الدرس؟

بسم الله الرحمن الرّحيم.

أخوكم أحوج إلى النصح من غيره، وإنْ كان من تعليق فيمكن القولُ بأنّ

الغياب عن الدّرس نوع من أنواع الحرمان، وينبغي دراسة أسبابه، ويخطر في البال ثلاثة أسباب:

السبب الأول: انعدام التوفيق: من الواضحات أنَّ التوفيق رأسُ النجاحات، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**التوفيق رأس النجاح**»[٨٩]، وهذا النجاح لن يتحقّق إلاّ من خلال الإقبال الدافع للعمل، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**التوفيق إقبال**»[٩٠]، وهذا الإقبال لا يُنال إلاّ بالاستقطاب الرّباني، «**إلهي إن لم تبتدئني الرحمة منك بحسن التوفيق، فمن السالك بي إليك في واضح الطريق**»[٩١]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**التوفيق من جذبات الرّب**»[٩٢]، والجذبات: رحمات وعنايات ونعم، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**التّوفيق رحمة**»[٩٣]، وعنه عليه السلام أنَّه قال: «**التوفيق عناية**»[٩٤]، وعنه عليه السلام أنَّه قال: «**التوفيق أوّل النعم**»[٩٥].

وهذه الرحمات والعنايات والنعم أو قل التوفيق يناله العبد بالآتي:

أولاً: بعنايته لدينه، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**كما أنّ الجسم والظّل لا يفترقان، كذلك التّوفيق والدّين لا يفترقان**»[٩٦]، فكلّما ازداد دين الإنسان، ازدادت عنايات الباري ورحماته وإفضالاته.

ثانياً: باجتهاده وسؤاله لربّه، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**سلوا الله العفو والعافية وحسن التّوفيق**»[٩٧].

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «**ومفتاح العلم طلب تحصيل العلم بدلا من الجهل، والكمال بدلا من النقص، وينبغي أن يعلم أنّ سعيه مع عدم مساعدة التوفيق لا ينفع فيتوسل بجنابه تعالى ليوفقه**»[٩٨].

السبب الثاني: الكسل: فعن القداح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**عدو العمل الكسل**»[٩٩]، وهذا العدو يمكن دفعه يُدفع بالدّعاء، «**فأسألك يا ربّ أن تملأ عزمي نور التوفيق**»[١٠٠]، ولكنه الدّعاء المقرون بالمجاهدة والمصابرة والمرابطة.. بمعاندة النفس

ومجاهدة خمولها وتثاقلها لتعتاد النشاط، فعن الرضا عليه السلام أنّه قال: «**ومن سأل الله التوفيق ولم يجتهد فقد استهزأ بنفسه**»[١٠١].

السبب الثالث: القيام بما يحرم من الرّزق: إذ بما أنّ التحصيل العلمي نوعٌ من أنواع الرزق، فالحرمان منه حرمان من الرّزق، وهو ما يستدعي الالتفات إلى موجبات الحرمان من الرزق لتلافيها، ومن موجبات الحرمان عديدة، منها: نية الذنب، ففي رواية بكر بن محمد الأزدي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ المؤمن لينوي الذّنب فيحرم رزقه**»[١٠٢].

وأمّا حرمان الرزق بارتكاب الذنب فهو من باب أولى، وقد أشارت إليه العديد من الروايات.

وموجبات الرزق كثيرة أيضاً، أشير منها إلى الموجبات الآتية:

الموجب الأول: اجتناب موجبات الحرمان التي ذكرت.

الموجب الثاني: الدعاء للأخ المؤمن: وعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**دعاء المؤمن للمؤمن يدفع عنه البلاء، ويدرّ عليه الرّزق**»[١٠٣].

الموجب الثالث: دفع الصدقات: عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**استنزلوا الرّزق بالصّدقة**»[١٠٤].

الموجب الرابع: ذكر الله تعالى بين الطلوعين: فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**ذكر الله ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس أبلغ في طلب الرّزق من الضرب في الأرض**»[١٠٥].

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**أكثروا الاستغفار تجلبوا الرّزق**»[١٠٦].

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**عليكم بالسخاء وحسن الخلق فإنهما يزيدان الرزق ويوجبان المحبة**»[١٠٧].

الموجب الخامس: المداومة على الطهارة الباطنية والظاهرية، فتطهير المقاصد والنوايا في طلب العلم مسألة لها أهمية كبيرة في نورانية العلم وتأثيراته على الدارس نفسه وعلى المجتمع من حوله، يتطهَّر من نوايا الدراسة لأجل الرغبة في التصدّر ولفت النّظر والبروز الاجتماعي أو العلمي وما شابه ذلك، وفي بعض المجتمعات أصبحت الحاجة لتصدي طلب العلم كبيرة في مناصب الدولة كالقضاء وغيرها، فكيف يتجرّد طالب العلم عن كلّ مقصد دنيوي، ويجعل طلبه لله وحده، لفهم دينه، للعمل به ولنصرته وتبليغه، فعن أبي الوليد حسن بن زياد الصيقل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**من صدق لسانُه زكي عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن برُّه بأهل بيته مدّ له في عمره**»[١٠٨].

وعن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله -لما قيل له- أحبُّ أن يوسع عليّ في الرزق، قال: «**دُمْ على الطهارة يوسّع عليك في الرزق**»[١٠٩].

السؤال ١٠: طالبُ العلم مطالب بأنْ يُنمِّي الجانب الرّوحي في نفسه، وأنْ يسعى في بثّه بين النَّاس على اعتبار مسؤوليته كمُبلِّغ، وذلك لعدم اقتصار التبليغ على تعليم الأحكام وإبداء تعاليم الإسلام الحنيف، فكيف يسهم الواحد منّا في ترسيخ الجانب الرّوحي في أبناء المجتمع، سيَّما عند الرّجوع إلى البلد وممارسة الدور التبليغي فيها؟

بسم الله الرحمن الرحيم.

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**أوحى الله إلى عيسى بن مريم عليه السلام: عظ نفسك بحكمتي، فإن انتفعت فعظ النَّاس، وإلا فاستحي منّي**»[١١٠]، فالشيء الوحيد النافع الذي ينبغي لي التركيز عليه في مسيرتي العلمية والتبليغية هو التّحلي بما نتعلّمه وبما نُريد نشره وترسيخه، وهذا ما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ

قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[١١١]، فمن لم يكن مُنذراً كيف له أن يكون مُنذِراً؟! كما أنّ الله تعالىٰ قد قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾[١١٢]، ونعم ما قيل:

لا تنه عن خُلقٍ وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

إنّ العلم إنْ لم يتجاوز اللسان فهو في أوضع درجاته، وصاحبه كشجرة بلا ثمرة، لا نفع فيها، لأنّ ما يخرج من الفم لا تأثير حقيقي له، فعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**إنّ العالم إذا لم يعمل بعلمه، زلّت موعظته عن القلوب كما يزل المطر عن الصّفا**»[١١٣].

أمّا إذا انتشر نورُ العلم علىٰ الجوارح وتحلّىٰ به الطالب، فسوف يؤثِّر دون أنْ يتكلَّم، وهو الأمر الذي دعانا إليه المعصومون عليهم السلام، فعن ابن أبي يعفور قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإنّ ذلك داعية**»[١١٤].

السؤال ١١: بماذا تنصحوننا ونحن على أبواب شهر العبادة؟

بسم الله الرّحمن الرّحيم.

أخوكم أحوج منكم للنصيحة من غيره، وإن كان من قول، فسوف أذكّر نفسي بما يتعلّق بشهري رجب وشعبان لتأثيرهما علىٰ شهر رمضان؛ إذ ينبغي للنفس في مثل هذه الأشهر أن تقوم بالكثير من الأشياء، ومنها الأمور الآتية:

الأمر الأول: ضرورة التعرّف علىٰ قيمة أشهر رجب وشعبن ورمضان، وتأثيرها في سعادة الإنسان وكماله، ولذا يُستحسن النّظر في الأخبار الشريفة، فإنّ لهذا النّظر تأثير نفسي وروحي، ومن الأمثلة: ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**شعبانُ المُطهِّر، ورمضان المُكَفِّر، إنّ رجباً شهرُ اللهِ الأصمّ، وشعبان ترفع فيه الأعمال**»[١١٥].

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**أتدرون لم سمي شعبان؟ لأنّه يتشعّب منه خير كثير لرمضان، وإنّما سُمّي رمضان؛ لأنّه ترمض فيه الذنوب** -أي: تحرق-»[١١٦].

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وقد تذاكر أصحابُه عنده فضائل شعبان-: «**شهر شريف، وهو شهري، وحملة العرش تعظمُه، وتعرف حقَّه، وهو شهرٌ تزاد فيه أرزاق المؤمنين كشهر رمضان، وتزيّن فيه الجنان، وإنما سمي شعبان لأنّه تنشعب فيه أرزاقُ المؤمنين، وهو شهرٌ العملُ فيه مضاعف، الحسنة بسبعين، والسيئة محطوطة، والذنب مغفور، والحسنة مقبولة، والجبار جل جلاله يباهي فيه بعباده، وينظر إلى صوّامه وقوّامه، فيباهي بهم حملة العرش**»[١١٧].

وهذه النّصوص واضحة في تأثير ودور هذه الأشهر الكبير على الإنسان وتكميله وكماله ورفع درجاته.

الأمر الثاني: اتخاذ وقتٍ خاصٍّ في أول ليلة من رجب لتنظيم شأن هذه الأشهر، واعتبار هذا الوقت وقتاً لمراجعة الذات وتلافي تقصيراتها، واكتشاف أمراضها وأخطاءها، والتوبة إلى الله تعالى، واتخاذ العزم على أنْ تكون الأشهر الآتية أشهراً خالية من المعاصي، ومميزة في القرب من الله تعالى. والتحديد بأول ليلة من شهر رجب، فلأنّها من ليالي الإحياء الوارد تفريغها للعبادة والذكر، كما سيأتي الإشارة إليه إنْ شاء الله، ومحاسبة النفس والتفكُّر في أحوالها من أعظم العبادات، فعن أبي حمزةَ عن عليِّ بن الحسين عليه السلام قال: «**كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّمَا الدَّهْرُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، أَنْتَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ، مَضَى أَمْسِ بِمَا فِيه فَلَا يَرْجِعُ أَبَداً، فَإِنْ كُنْتَ عَمِلْتَ فِيه خَيْراً لَمْ تَحْزَنْ لِذَهَابِه، وفَرِحْتَ بِمَا اسْتَقْبَلْتَه مِنْه، وإِنْ كُنْتَ قَدْ فَرَّطْتَ فِيه، فَحَسْرَتُكَ شَدِيدَةٌ لِذَهَابِه وتَفْرِيطِكَ فِيه، وأَنْتَ فِي يَوْمِكَ الَّذِي أَصْبَحْتَ فِيه مِنْ غَدٍ فِي غِرَّةٍ، ولَا تَدْرِي لَعَلَّكَ لَا تَبْلُغُه، وإِنْ بَلَغْتَه لَعَلَّ حَظَّكَ فِيه فِي التَّفْرِيطِ مِثْلُ حَظِّكَ فِي الأَمْسِ الْمَاضِي عَنْكَ، فَيَوْمٌ مِنَ الثَّلَاثَةِ قَدْ مَضَى أَنْتَ فِيه مُفَرِّطٌ، ويَوْمٌ تَنْتَظِرُه لَسْتَ أَنْتَ مِنْه عَلَى**

يَقِينٍ مِنْ تَرْكِ التَّفْرِيطِ، وإِنَّمَا هُوَ يَوْمُكَ الَّذِي أَصْبَحْتَ فِيه، وقَدْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ عَقَلْتَ وفَكَّرْتَ فِيمَا فَرَّطْتَ فِي الأَمْسِ الْمَاضِي مِمَّا فَاتَكَ فِيه مِنْ حَسَنَاتٍ أَلَّا تَكُونَ اكْتَسَبْتَهَا، ومِنْ سَيِّئَاتٍ أَلَّا تَكُونَ أَقْصَرْتَ عَنْهَا، وأَنْتَ مَعَ هَذَا مَعَ اسْتِقْبَالِ غَدٍ عَلَى غَيْرِ ثِقَةٍ مِنْ أَنْ تَبْلُغَه، وعَلَى غَيْرِ يَقِينٍ مِنِ اكْتِسَابِ حَسَنَةٍ أَوْ مُرْتَدَعٍ عَنْ سَيِّئَةٍ مُخْبِطَةٍ، فَأَنْتَ مِنْ يَوْمِكَ الَّذِي تَسْتَقْبِلُ عَلَى مِثْلِ يَوْمِكَ الَّذِي اسْتَدْبَرْتَ، فَاعْمَلْ عَمَلَ رَجُلٍ لَيْسَ يَأْمُلُ مِنَ الأَيَّامِ إِلَّا يَوْمَه الَّذِي أَصْبَحَ فِيه ولَيْلَتَه، فَاعْمَلْ أَوْ دَعْ، واللَّه الْمُعِينُ عَلَى ذَلِكَ»[118].

عن أبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: «**إنَّك قد جُعلتَ طبيب نفسك، وبُيّن لك الدّاء، وعُرِّفتَ آيةَ الصّحّةِ، ودُلِلتَ على الدواء، فانظر كيف قيامك لنفسك**»[119].

وعن عنبسة العابد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أوصني، فقال: «**أعد جهازك، وقدّم زادك، وكن وصيّ نفسك، ولا تقل لغيرك يبعث إليك بما يصلحك**»[120].

الأمر الثالث: الاهتمام العبادي في هذه الأشهر صياماً وقياماً وذكراً ودعاء، سيَّما نوافل الفرائض، فلها الأولوية في هذا المجال لكونها متمِّمات ما ينقص من الفرائض، وما أحرىٰ بالنفس أنْ تتجاوز تقصيراتها في هذه الأشهر العظام، وكذا ينبغي التركيز علىٰ كثرة الاستغفار، فعن إسماعيل بن أبي زياد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: رجب شهر الاستغفار لأمتي، أكثروا فيه الاستغفار فإنه غفور رحيم، وشعبان شهري. استكثروا في رجب من قول: "أستغفر الله"، واسألوا الله الإقالة والتوبة فيما مضى، والعصمة فيما بقي من آجالكم. وأكثروا في شعبان الصلاة على نبيكم وأهله.**

ورمضان شهر الله تبارك وتعالى، استكثروا فيه من التهليل والتكبير والتحميد والتمجيد والتسبيح، وهو ربيع الفقراء.

وإنما جعل اللهُ الأضحى لتشبع المساكين من اللحم، فأظهروا من فضل ما أنعم الله به عليكم على عيالاتكم وجيرانكم، وأحسنوا جوار نعم الله عليكم، وواصلوا إخوانكم،

وأطعموا الفقراء والمساكين من إخوانكم، فإنّه من فطَّر صائماً فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيئاً.

وسمّي شهر رمضان: شهر العتق؛ لأنَّ لله فيه كلّ يوم وليلة ستمائة عتيق، وفي آخره مثل ما أعتق فيما مضى.

وسمّي شهر شعبان: شهر الشفاعة؛ لأنَّ رسولكم يشفع لكلِّ من يصلّي عليه فيه.

وسمّي شهر رجب: شهر الله الأصب؛ لأنَّ الرحمة على أمتي تصبُّ صباً فيه، ويقال: الأصم، لأنَّه نهى فيه عن قتال المشركين، وهو من الشهور الحرم»[١٢١].

وهذا النّص وإن وصف شهر رجب بشهر الاستغفار، إلاّ أنَّ النصوص الواردة في الاستغفار في شهر شعبان كثيرة، وهو أمر يقتضي التركيز عليه في هذه الأشهر الثلاثة، ومن هذه النصوص ما عن الحسن بن فضال، عن الرضا عليه السلام قال: «**من استغفر الله تبارك وتعالى في شعبان سبعين مرة غفر الله ذنوبه، ولو كانت مثل عدد النجوم**»[١٢٢].

وأشير إلى صيغتين للاستغفار:

الأولى: عن الريان بن الصلت قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: «**من قال في كلّ يوم من شعبان سبعين مرة: "أستغفر الله وأسأله التوبة"، كتب الله له براءة من النار، وجوازا على الصراط، وأحلَّه (وأدخله) دار القرار**»[١٢٣].

الثانية: عن محمد بن أبي حمزة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**من قال في كلِّ يوم من شعبان سبعين مرة: "أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الحي القيوم، وأتوب إليه"، كتب في الأفق المبين**»، قال: قلت: وما الأفق المبين؟ قال: «**قاع بين يدي العرش، فيها أنهار تطرد فيه من القدحان عدد النجوم**»[١٢٤].

وميزة الاستغفار في مثل شهر شعبان: أنَّ الاستغفار يُضاعف فيه أضعافاً كثيرة،

فعن إبراهيم بن ميمون في حديث عن شعبان قال: قلت له عليه السلام: "فما أفضل الدعاء في هذا الشهر؟ فقال: «**الاستغفار، إنَّ من استغفر في شعبان كلَّ يوم سبعين مرة، كان كمن استغفر في غيره من الشهور سبعين ألف مرة**»، قلت: فكيف أقول؟ قال: قل: «**أستغفر الله وأسأله التوبة**»[١٢٥].

وواضح منه أنّ الاستغفار الواحد في شعبان يُعادل ألف استغفار في غيره من الشهور.

الأمر الرابع: تركيز الاهتمام الروحي والعبادي في الليالي الفاضلة كأول ليلة من رجب، وليالي الجمع، وليلة النصف من شعبان، وليالي القدر الشريفة، وليلة الفطر، فعن الحارث بن عبد الله، عن علي عليه السلام قال: «**إن استطعت أن تحافظ على ليلة الفطر وليلة النحر، وأول ليلة من المحرم، وليلة عاشورا، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف من شعبان فافعل، وأكثر فيهن من الدعاء والصلاة وتلاوة القرآن**»[١٢٦].

وعن أبي الحسن موسىٰ بن إسماعيل بن موسىٰ بن جعفر، عن أبيه قال: «**كان علي ابن أبي طالب عليه السلام يقول: يعجبني أن يفرّغ الرجل نفسه في السنة أربع ليال: ليلة الفطر، وليلة الأضحى، وليلة النصف من شعبان، وأول ليلة من رجب**»[١٢٧].

وعن سعد بن سعد، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «**كان علي عليه السلام لا ينام ثلاث ليال: ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان، وليلة الفطر، وليلة النصف من شعبان، وفيها تقسّم الأرزاق والآجال وما يكون في السنة**»[١٢٨].

وعن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنَّ لله عزوجل خيارا من كلّ ما خلقه** -إلىٰ أن قال:- **وأمّا خياره من الليالي: فليالي الجمع، وليلة النصف من شعبان، وليلة القدر، وليلتا العيدين**»[١٢٩].

وعن ابن كردوس، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من أحيى ليلة العيد، وليلة النصف من شعبان لم يمت قلبه يوم تموت القلوب**»[١٣٠].

الأمر الخامس: صيام هذه الأشهر لمن كان مستطيعاً، وأقلُّ الأمور التي لا ينبغي تركها، هو صيام ثلاثة الأيام من أولِّه ووسطه وآخره، عن أبي حمزة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عما جرت به السنة في الصوم من رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: «**ثلاثة أيام في كلِّ شهر: خميس في العشر الأول، وأربعاء في العشر الأوسط، وخميس في العشر الأخير، يعدل صيامهن صيام الدهر لقول الله عز وجل: ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[131]، فمن لم يقدر عليها لضعف فصدقة درهم أفضل له من صيام يوم**»[132].

ويظهر من بعض الأخبار أنّ العرض في الخميس الأخير من كلّ شهر، كما في خبر عنبسة العابد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**آخر خميس في الشهر تُرفع فيه الأعمال**»[133].

وهذا يعني بأنّ من لم يهتم بصيام ثلاثة أيام لحيازة الشهر كلِّه وفقاً لقاعدة ﴿مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[134]، فلا أقل صيام خميس العرض حياءً، وأربعاء النّار وقاءً، لتأصيل وتعميق فكرة حضور جهنّم واطلاع المولىٰ عز وجل وشهداءه علىٰ الخلق في العقل والقلب، فعن ابن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام: «**أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله سئل عن صوم خميسين بينهما أربعاء، فقال: أمَّا الخميس فيوم تعرض فيه الأعمال، وأمّا الأربعاء فيوم خلقت فيه النار، وأمَا الصوم فجنة (من النار)**»[135].

وعن حريز قال: قيل لأبي عبد الله عليه السلام: ما جاء في الصوم في يوم الأربعاء؟ فقال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله عز وجل خلق النار يوم الأربعاء، فأوجب صومه ليتعوّذ بالله من النار**»[136].

ويستحسن لتعميق هذا الحضور تكرار الاستعاذة من النّار.. اللهم اغفر لي ما اطّلعتَ عليه منّي وخفي علىٰ خلقك، أستجير بالله من النّار.. أعوذ بالله من النّار.

فطوبى لمن توفّق لصيام هذه الأيام الثلاثة، فعن ابن صدقة قال: حدثني جعفر بن محمد، عن آبائه عليهم السلام أنَّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «**دخلت الجنَّة فرأيت أكثر أهلها البله،**

يعني بالبله، المتغافل عن الشر، العاقل في الخير، والذين يصومون ثلاثة أيام في كل شهر»[١٣٧].

الأمر السادس: التّصدق: عن الحسن بن زياد، عن الصادق عليه السلام قال: «**من تصدَّق بصدقة في شعبان رباها الله عزوجل له كما يربي أحدكم فصيله حتى توافي يوم القيامة وقد صارت له مثل جبل أحد**»[١٣٨].

ومن الصدقات المميزة، هو التصدق عوضاً عن صيام الثلاثة الأيام المستحب صيامها في كلّ شهر، فلا ينبغي لمن تعذّر عليه الصيام ترك التصدق عنها، لما روي عن إبراهيم المثنى قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أنَّه قال: إني قد اشتد عليَّ صوم ثلاثة أيام في كلّ شهر، فما يجزي مكان كلِّ يوم بدرهم؟ فقال: «**صدقة درهم أفضل من صيام يوم**»[١٣٩].

وسأل عيص بن القاسم أبا عبد الله عليه السلام عمن لم يصم الثلاثة كلّ شهر، وهو يشتد عليه الصيام، هل فيه فداء؟ فقال: «**مدّ من طعام كلّ يوم**»[١٤٠].

الأمر السابع: إنّ من لم يصنع انقلاباً في أحواله وأفعاله في أول ليلة من ليالي رجب الأصب، فلا عذر له في إهمال العناية بآخر جمعة من شهر شعبان، فينبغي أن يقف فيها وقفة جادة، فعن الهروي قال: دخلت على الرضا عليه السلام في آخر جمعة من شعبان، فقال لي: «**يا أبا الصلت، إنّ شعبان قد مضى أكثره، وهذا آخر جمعة منه (فيه)، فتدارك فيما بقي منه تقصيرك فيما مضى منه، وعليك بالإقبال على ما يعنيك، وترك ما لا يعنيك، وأكثر من الدعاء، والاستغفار، وتلاوة القرآن، وتب إلى الله من ذنوبك ليقبل شهر الله إليك وأنت مخلص لله عزوجل، ولا تدعنَّ أمانة في عنقك إلا أديتها، ولا في قلبك حقدا على مؤمن إلا نزعته، ولا ذنباً أنت مرتكبه إلا قلعت عنه، واتق الله، وتوكّل عليه في سرِّ أمرك وعلانيتك، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾**»[١٤١].

وأكثر من أن تقول فيما بقي من هذا الشهر: "**اللهم إن لم تكن غفرت لنا فيما مضى من شعبان، فاغفر لنا فيما بقي منه، فإنّ الله(تبارك وتعالى) يعتق في هذا الشهر رقاباً من النّار، لحرمة شهر رمضان**»[١٤٢].

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله الطاهرين.

الهوامش:

* ترجمة سماحة الشيخ عادل الشعلة:

بعد أن أتمّ دراسته الثانوية سنة ١٩٨٦م هاجر سماحته إلىٰ مدينة قم المقدسة بالجمهورية الإسلامية في إيران ملتحقاً بالحوزة الشريفة.

* أبرز أساتذته في السطوح العليا:

١. الشيخ باقر الإيرواني.

٢. الشيخ هادي آل راضي.

٣. الشيخ محمد صالح الربيعي.

* أساتذته في الخارج:

١. آية الله العظمىٰ الشيح حسين الوحيد الخراساني حفظه الله.

٢. آية الله العظمىٰ السيد كاظم الحائري حفظه الله.

٣. آية الله العظمىٰ الشيخ ناصر مكارم الشيرازي حفظه الله.

٤. آية الله الشيخ باقر الإيرواني حفظه الله.

٥. آية الله الشيخ إبراهيم الأنصاري رحمه الله.

* نشاطاته:

١. مسؤول الهيئة العلمية للطلبة البحرانيين بقم المقدسة.

٢. مدير المكتب العلمائي الذي كان يمثل أصحاب السماحة: الفقيه الشيخ عيسىٰ أحمد قاسم. وآية الله الشيخ حسين نجاتي. وسماحة العلامة السيد عبد الله الغريفي.

٣. عضو الهيئة المركزية للمجلس الإسلامي العلمائي في أول دورة انتخابية عند تأسيسه.

٤. عضو مؤسس في جمعية التوعية الإسلامية.

* ومن مؤلفاته:

١. مقدمة في علم تفسير القرآن.
٢. المنهج القرآني في تفسير القرآن الكريم.
٣. المنهج الروائي في تفسير القرآن الكريم.
٤. القرص الممنوع (شرح رسالة أمير المؤمنين (عليه السلام) لعثمان بن حنيف.
٥. الهدب (يعالج موضوع الحجاب).
٦. الملاك (يعالج موضوع الإخلاص).
٧. العلم النوري (شرح حديث عنوان البصري).
٨. المنهج التفسيري عند الفقيه الشيخ عيسىٰ أحمد قاسم.
٩. المجتمع الراقي، أسسه وسماته وعوامله في نظر الفقيه آية الله الشيخ عيسىٰ أحمد قاسم (دامت إفاضاته).

(١) سورة الإسراء: ٧٠.
(٢) سورة فاطر: ٢٨.
(٣) الكافي، الكليني، ج١، ص٣٦، ح٢.
(٤) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٧٨.
(٥) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ج٢، ص٥٥، ح٥.
(٦) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢٠١.
(٧) الكافي، الكليني، ج٢، ص٥٤، ح٢.
(٨) البرهان في تفسير القرآن، البحراني، ج١، ص٧٢٥، ح٢٠٢٩.
(٩) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢٩.
(١٠) الأمالي للطوسي: ص١٤٦، ح٢٤٠.
(١١) الكافي، الكليني، ج١، ص٣٩، ح٣.
(١٢) بحار الأنوار، المجلسي، ج١، ص٢٠٣، ح١٧.
(١٣) سورة الفرقان: ٢٨.
(١٤) سورة الزخرف: ٦٧.
(١٥) نهج البلاغة للرضي (تحقيق صالح)، ص٥٢٥، ح٢٧٨.

(١٦) الدعوات للراوندي، ص١٢٦، ح٣١١.

(١٧) الكافي، الكليني، ج٢، ص٦٠، ح٤.

(١٨) كما الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ص٣٥١، ح٤٩.

(١٩) الكافي، الكليني، ج٣، ص٤٥٤، ح١٦.

(٢٠) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج٤، ص٧٠، ح٤٥٣٨.

(٢١) نهج البلاغة للرضي (تحقيق صالح)، ص٤٦٠، ح٦٩.

(٢٢) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص١٣٣.

(٢٣) نهج البلاغة للرضي (تحقيق صالح)، ص٥١١، ح٢٤٩.

(٢٤) الكافي، الكليني، ج٢، ص٨٣.

(٢٥) الكافي، الكليني، ج٢، ص٣٥٢، ح٧.

(٢٦) الأمالي للصدوق، ص٤٣٨، ح٥٧٧.

(٢٧) ميزان الحكمة، الريشهري، ج٣، ح٢٦١٢.

(٢٨) تحف العقول، الحراني، ص٢٨٥.

(٢٩) سورة المطففين: ٢٦.

(٣٠) بحار الأنوار، المجلسي، ج٥٥، ص٣٢٠.

(٣١) كنز الفوائد، الكراجكي، ص٥٧.

(٣٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١، ص٣١٧.

(٣٣) الكافي، الكليني، ج٢، ص٣٠٧.

(٣٤) سورة النور: ٣٧.

(٣٥) عيون الحكمة والمواعظ، الواسطي، ص٤٢٩.

(٣٦) تحف العقول، الحراني، ص١٢.

(٣٧) التمحيص لابن همام، ص٧٠، ح١٧٠.

(٣٨) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٦٥.

(٣٩) ميزان الحكمة، الريشهري، ج٤، ح٢٨٦١.

(٤٠) عيون الحكمة والمواعظ، الواسطي، ص٩٢.

(٤١) عيون الحكمة والمواعظ، الواسطي، ص٢٨٩، وفي عهد الأشتر، قال عليه السلام: «فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من العزة»، نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، ج٣، ص٨٨.

(٤٢) تحف العقول، الحراني، ص٣٠٤.

(٤٣) ميزان الحكمة، الريشهري، ج٤، ح٢٨٦٢.

(٤٤) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٤٠.

(٤٥) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٨٩.

(٤٦) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص١٥٨.

(٤٧) تنبيه الخواطر لورام، ص٤٤١.

(٤٨) الكافي، الكليني، ج١، ص٥٠، ح١٤.

(٤٩) سورة النساء: ٧٩.

(٥٠) بحار الأنوار، المجلسي، ج٧٠، ص٢٩٤، ح٣.

(٥١) سورة الأعراف: ٢٠١.

(٥٢) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، ص٢٨٥.

(٥٣) ميزان الحكمة، الريشهري، ج٣، ح٢٠٩٢.

(٥٤) المحاسن للبرقي، ج١، ص٢٣٣، ح١٨٧.

(٥٥) ميزان الحكمة، الريشهري، ج٣، ح١٨١٥.

(٥٦) تحف العقول، الحراني، ص٢٨٥.

(٥٧) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٧٩.

(٥٨) ميزان الحكمة، الريشهري، ج١، ص٨٠١.

(٥٩) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢٣٨.

(٦٠) تحف العقول، الحراني، ص٢٨٦.

(٦١) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢٢.

(٦٢) منية المريد، الشهيد الثاني، ص١٤٠.

(٦٣) كامل الزيارات، ابن قولويه، ص٤٨، ح٧٣٥.

(٦٤) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٢٤.

(٦٥) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٢٤.

(٦٦) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٥٥.

(٦٧) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٣١.

(٦٨) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٤٦.

(٦٩) سورة الأعراف: ٢٠١.

(٧٠) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٤٥.

(٧١) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٤٩.

(٧٢) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢١.

(٧٣) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٤٩.

(٧٤) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٢٧.

(٧٥) تحف العقول، الحراني، ص٢٠٨.

(٧٦) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٢٤.

(٧٧) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٤٥.

(٧٨) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٢٤.

(٧٩) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٣٦.

(٨٠) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢٩.

(٨١) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٥٨.

(٨٢) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٢٤.

(٨٣) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢٤.

(٨٤) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٥٨.

(٨٥) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٥٨.

(٨٦) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٢٨.

(٨٧) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٢٨.

(٨٨) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢٢.

(٨٩) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤١.

(٩٠) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢٧.

(٩١) مقطع من دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام.

(٩٢) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢٥.

(٩٣) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٣٤.

(٩٤) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٣٤.

(٩٥) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٤٠.

(٩٦) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٣٩٧.

(٩٧) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٨٣.

(٩٨) بحار الأنوار، المجلسي، ج١، ص٩٣، ح٢٥.

(٩٩) الكافي، الكليني، ج٥، ص٨٥، ح١.

(١٠٠) مقطع مما يعقب به زيارة ياسين الواردة عن الحجة عجل الله فرجه الشريف، راجع المزار، محمد بن المشهدي، ص٥٧٣.

(١٠١) كنز الفوائد، أبو الفتح الكراجكي، ص١٥٣.

(١٠٢) المحاسن للبرقي، ج١، ص١١٥، ح١١٩.

(١٠٣) المؤمن لابن سعيد، ص٥٤، ح١٣٩.

(١٠٤) نهج البلاغة للرضي (تحقيق صالح)، ص٤٩٥، ح١٣٧.

(١٠٥) الإمامة والتبصرة لابن بابويه، ص٣٧.

(١٠٦) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٩٣.

(١٠٧) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٣٤٢.

(١٠٨) الكافي، الكليني، ج٢، ص١٠٥، ح١١.

(١٠٩) ميزان الحكمة، الريشهري، ج٢، ح١٠٧٣.

(١١٠) ميزان الحكمة، الريشهري، ج١، ح٦٠٠.

(١١١) سورة التوبة : ١٢٢.

(١١٢) سورة الصف : ٢- ٣.

(١١٣) الكافي، الكليني، ج١، ج٤٤، ح٣.

(١١٤) الكافي، الكليني، ج٢، ص٧٨، ح١٤.

(١١٥) مستدرك الوسائل، النوري، ج٧، ص٥٤٤، ح٨٨٤٩.

(١١٦) مستدرك الوسائل، النوري، ج٧، ص٤٨٤، ح٨٧١٠.

(١١٧) الأمالي للصدوق، ص٧٥، ح٤٣.

(١١٨) الكافي، الكليني، ج٢، ص٤٥٣، ح١.

(١١٩) الكافي، الكليني، ج٢، ص٤٥٤، ح٦.

(١٢٠) الكافي، الكليني، ج٧، ص٦٥، ح٢٩.

(١٢١) النوادر للأشعري، ص١٧، ح٢.

(١٢٢) الأمالي للصدوق، ص٦٨، ح٣٤.

(١٢٣) الأمالي للصدوق، ص٧٢٧، ح٩٩٤.

(١٢٤) الخصال للصدوق، ص٥٨٢، ح٥.

(١٢٥) فضائل الأشهر الثلاثة للصدوق، ص٥٦، ح٣٤.

(١٢٦) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج٨، ص١٠٩، ح١٠١٩٠.

(١٢٧) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج٨، ص١٠٩، ح١٠١٨٩.

(١٢٨) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج٨، ص١١٠، ح١٠١٩١.

(١٢٩) تفسير الإمام العسكري عليه السلام المنسوب للعسكري عليه السلام، ص٦٦٤.

(١٣٠) ثواب الأعمال للصدوق، ص٧٧.

(١٣١) سورة الأنعام: ١٦٠.

(١٣٢) الخصال للصدوق، ص١٦٠، ح٢٠٩.

(١٣٣) علل الشرائع للصدوق، ج٢، ص٣٨١، ح٣.

(١٣٤) سورة الأنعام: ١٦٠.

(١٣٥) الكافي، الكليني، ج٤، ص٩٤، ح١١.

(١٣٦) الكافي، الكليني، ج٤، ص٩٢، ح١٠.

(١٣٧) قرب الإسناد للحميري، ص٧٥، ح٢٤٣.

(١٣٨) الأمالي للصدوق، ص٧٢٧.

(١٣٩) من لا يحضره الفقيه للصدوق، ج٢، ص٨٤، ح١٧٩٤.

(١٤٠) من لا يحضره الفقيه للصدوق، ج٢، ص٨٣، ح١٧٩٣.

(١٤١) سورة الطلاق: ٣.

(١٤٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق، ج٢، ص٥٦، ح١٩٨.

اتباع الهوى وطول الأمل

الشيخ عزيز حسن الخضران

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهمَّ صلِّ على محمَّد وآل محمَّد.

تتميّز كلماتُ أهل البيت عليهم السلام بأنّها تمسك الأمور من جذورها لتعالج المشاكل الأساسية عند المؤمن، وتتميَّز أيضاً في عصمتها وعدم الحاجة فيها إلى التجربة، فإنَّ التجربة -بالإضافة إلى احتياجها إلى الوقت الطويل قد يفوّت العلاج عن كثير من الناس- لا يُقطع بصدق نتائجها وما يتوصَّل إليه، خصوصاً في مثل مقامنا؛ حيث الحديث عن النفس والأمور الروحية والأخلاقية المؤثِّرة على مصير الإنسان في الحياة.

وفيما نحن بصدد الحديث عنه وردت روايات عن أكثر من معصوم تصبّ في نفس المضمون، منها ما عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «**أيّها الناس إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى، وطول الأمل؛ فأمّا اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة**»[1].

والكلام بشكل مجمع حول هذين المرضين يتمُّ من خلال عدَّة مطالب:

المطلب الأول: خطورة هذين المرضين

إنَّ التعبير في هذا الحديث الشريف بقوله عليه السلام: «**أخوف ما أخاف عليكم**»، من الممكن أن يكون معناه أحد أمرين، أو كلاهما معاً:

الأوَّل: أنّ سبب التخويف الشديد من هذين المرضين، هو خطرهما الكبير، وكونهما منشأً لبقية الأمراض الأخرىٰ، وحينئذٍ يكونان الأساس للأمراض الروحية التي تهدم الفرد والمجتمع، ويكون من الصعب حينئذٍ إصلاح المجتمع من بقية الأمراض ما دام هذان المرضان موجودين.

الثاني: أنَّ السبب هو كونهما من أكثر الأمراض الروحية وقوعاً وتحققاً عند الناس، فلا يخلو منهما أحدٌ من الناس إلا من رحم ربك.

والسبب الأول مراد قطعاً؛ إذ لا يكفي في خطورة مرضٍ ما مجرَّد كونه كثير الوقوع، بل لا بدَّ من أن يكون في نفسه خطيراً، نعم من المحتمل جداً أنّ السبب هو كلا الأمرين، فإنّه قد يكون مرض ما خطيراً جداً ولكنَّه نادر الوقوع من الناس، فلا يلزم التخوّف منه أكثر من الأمراض الأخرىٰ الخطيرة.

وعلىٰ كلّ حال، فإنَّ الحديث يدلُّ علىٰ خطورة هذين المرضين، وأنّه لا بدَّ من الالتفات إليهما، والحذر منهما، ومحاولة علاجهما. وسيأتي في المطلب الرابع بعض الأمراض التي عبّرت فيها بعضُ الأحاديث بأنّها من «**أخوف ما أخاف عليكم**».

المطلب الثاني: اتباع الهوى وآثاره

المرض الأول: هو اتباع الهوىٰ، يقول المازندراني في شرحه: "**الهوى هو ميل النفس الأمارة بالسوء إلى مقتضى طباعها من اللذات الدنيوية على أنواعها حتى تخرج من الحدود الشرعية وتدخل فى مراتع القوة السبعية والبهيمية**"[٢].

واتباع الهوىٰ من المحرّمات، يقول الشيخ زين الدين رحمه الله في كلمة التقوىٰ: "**يحرمُ**

على الإنسان أنْ يتبع هوى نفسه ورغباتها، إذا كان هواها ورغباتها مخالفة لما يريد الله"[٣].

بل يعتبر القرآن الكريم أنَّ اتباع الهوىٰ هو شرك، حيث يقول تعالىٰ: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾[٤].

مخاطر وآثار اتباع الهوىٰ:

هذا التحذير الشديد والمكرَّر في الآيات والروايات من اتباع الهوىٰ إنّما هو للآثار الوخيمة التي تترتّب عليه في الفرد وفي المجتمع، وهناك أمورٌ تعتبر آثاراً لذلك أهمّها الصدّ عن الحق كما في الحديث المتقدّم، وهناك أمور تعتبر أسباباً لاتباع الهوىٰ، ولن نفصِّل هنا بين الأسباب والآثار، بل نذكرهما معاً في الأمور التالية:

الأمر الأول: الصدُّ عن الحق

وهو من أخطر الآثار لاتباع الهوىٰ وقد يكون الأساس لبقية الآثار ولهذا ذكره الأمير عليه السلام في الحديث المتقدِّم: «**فأمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحق**»؛ وذلك أنَّ مُتّبع الهوىٰ عندما يواجهه الحق يكون في حالة صراع إمَّا أن يقبل بالحق والذي يكون لازمه ترك ما تهواه النفس وتتعلّق به وتنجذب إليه، وإمَّا أن يرجّح كفَّة الهوىٰ لشدّة العلاقة بينه وبين الهوىٰ، وهذا لازمه ردّ الحق، بل قد يصل إلىٰ مرحلة محاربته، وهذا يرجع إلىٰ شدّة تعلّقه بالهوىٰ واتباعه له، ولذلك أصبح جهاد النفس هو الجهاد الأكبر.

نضرب مثالاً لذلك: عندما يكون هواي في تملّك المال، وتكون النفس مرتبطة ارتباطاً شديداً بذلك، فإنّه ينتج عن ذلك أنْ امتنع عن دفع الحقوق الشرعية، بل سأقف ضدَّ من يرشد الناس لبيان وجوب هذه الحقوق الشرعية، وربما أفتري علىٰ الله لإثبات خلاف ذلك.

مثال آخر: المرأة المحبَّة للتبرُّج وكشف مفاتنها للرجال، لن تمتنع فقط عن لبس الحجاب، بل ربما تقف في وجه الحكم الشرعي بوجوب الحجاب، وربما تستميت في الدفاع عن جواز التبرُّج؛ فتفتري على الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٥].

الأمر الثاني: الشرك بالله

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٦].

ولا نقصد بالشرك هنا الشرك المصطلح، بل ما يعمُّ مثل الرياء الذي اعتبر أنّه الشرك الأصغر، فهو الشرك العملي (الرياء)، وإلا فلا أحد منّا ينجو من اتباع الهوى ولو في بعض الأشياء، يقول الشيخ الطوسي: "**وإنّما سمى الهوى إلها من حيث إنَّ العاصى يتبع هواه ويرتكب ما يدعوه إليه، ولم يُرد أنَّه يعبد هواه أو يعتقد أنّه يحق له العبادة؛ لأنَّ ذلك لا يعتقده أحد**"[٧].

وهناك علاقة وثيقة بين هذا الأثر وهو عبادة النفس والرياء وبين الجهل، فالعاقل لا يمكن أنْ يعبد هواه، بل العقل يدعوه إلى عبادة الله تعالى وحده وإن كانت تلك العبادة ستحرمه مما يهواه؛ وذلك لأنَّ هذا الحرمان محدود بالدنيا القصيرة الفانية، وصبره على عبادة الله تعالى سيكون مقابلها الجنّة التي عرضها كعرض السماوات والأرض، فأيّ عاقل يقدّم الفاني على الدائم، والضيّق على الواسع!!؟

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا * أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[٨].

يقول الشيخ الطوسي قدس سره حول هذا المقطع: "**ثمَّ قال لنبيه: يا محمد! ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ**

﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾؛ لأنّه ينقاد له ويتبعه فى جميع ما يدعوه إليه. وقيل: المعنى من جعل إلهه ما يهوى، وذلک نهايةُ الجهل، لأنَّ ما يدعو إليه الهوى باطل، والإله حقٌّ يعظم بما لا شىء أعظم منه، فليس يجوز أن يكون الإله ما يدعو إليه الهوى، وإنّما الإله ما يدعوا إلى عبادته العقل"[٩].

وقال الشيخ الطبرسي قدس سره في المجمع: "ثم عجب سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله من نهاية جهلهم، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أى: من جعل إلهه ما يهواه، وهو غاية الجهل. وكان الرجل من المشركين يعبد الحجر والصنم، فإذا رأى أحسن منه، رمى به وأخذ يعبد الآخر"[١٠].

ولصاحب الميزان كلام في هذه الآية ربما يعتبر دمجاً بين ما تقدَّم من الأثر الأول وهو الصدّ عن الحق وبين كونه شركاً بالله، فيقول قدس سره: "وهؤلاء (مُتّبعى الهوى) يسلّمون أنَّ لهم إلهاً مطاعاً وقد أصابوا فى ذلک، لكنَّهم يرون أنَّ هذا المُطاع هو الهوى فيتّخذونه مطاعاً، بدلاً من أنْ يتخذوا الحقَّ مطاعاً، فقد وضعوا الهوى موضع الحق"[١١]، وهذا يعني أنّ عبادة الهوىٰ الذي هو شرك ينتج عنه الصدُّ عن الحق والابتعاد عنه، فيكون وصف الشرك لمتّبع الهوىٰ من باب أنَّ حقيقة اتّباع الهوىٰ هو كونه شركاً ورياء، وأمَّا الصدّ عن الحق فهو نتيجة هذا الشرك واتباع الهوىٰ، وهو الذي ذكره أمير المؤمنين عليه السلام كما تقدَّم.

الأمر الثالث: طغيان النفس

قال الخليل: "كلُّ شىء يجاوز القدر فقد طغى، مثل ما طغى الماء على قوم نوح، وكما طغت الصيحةُ على ثمود"[١٢]، وقال الراغبُ عن الطغيان أنَّه: "تجاوز الحدّ فى العصيان"[١٣]، فطغيان النفس حينئذٍ هو تجاوزها الحدَّ الذي رسمه الله تعالىٰ لها.

ويمكن استفادةُ هذا الأثر من المقابلة بين طغيان النفس وبين اتّباع الهوىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا

مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[١٤]؛ فإنَّ الآية المباركة تذكر فردين، الثاني منهما هو الذي ينهىٰ نفسَه عن الهوىٰ، فيكون مقابلُه من لا ينهىٰ النفس عن هواها بل يتبع الهوىٰ، وعبَّرت عنه الآيةُ بأنَّه طاغٍ[١٥]، ومن الممكن هنا أن يكون الطغيانُ هو السبب في اتباع الهوىٰ واختيار الدنيا كما يظهر من صاحب الميزان[١٦]، ومن الممكن أنْ يكون اتباع الهوىٰ وعدم نهي النفس عن هذا الاتباع هو السبب في نشوءِ حالية الطغيان، والتي قلنا بأنَّه هو تجاوز الحدِّ في المعصية.

الأمر الرابع: وقوع الفتن

وهذا ما يشير إليه الأمير عليه السلام كما ورد عن سليم بن قيس الهلالي أنّه قال: "خطب أمير المؤمنين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثمّ صلّىٰ علىٰ النبي صلى الله عليه وآله، ثمّ قال: «**ألا إنَّ أخوف ما أخاف عليكم خِلّتان: اتباع الهوى وطول الأمل، أمّا اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة، ألا إنَّ الدنيا قد ترحّلت مدبرة، وإنَّ الآخرة قد ترحّلت مقبلة، ولكل واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإنَّ اليوم عمل ولا حساب، وإنَّ غدا حساب ولا عمل، وإنّما بدء وقوع الفتن من أهواء تتبع وأحكام تبتدع، يخالف فيها حكم الله يتولى فيها رجال رجالاً**»"[١٧]، فاتباع الهوىٰ والابتداع في الدين، يعني الخروج عن النظام الذي شرَّعه اللهُ تعالىٰ للنَّاس لتستقيمَ أمورُهم، ولازم هذا التعدّي والخروج عن النّظام الإلهي هو وقوع النّاس في الفتن[١٨]، كما نراه جلياً حينما استولىٰ الشيطان علىٰ نفوسٍ سلبت الخلافة عن أهلها اتباعاً للهوىٰ وحباً للدنيا، وابتدعت بدعاً في الدين، فعمَّت الفتنُ في العالم الإسلامي وليومنا هذا، وسنعيد ذكر هذه الخطبة كاملة نهاية المقال لما فيها من ذكر للآثار الخطيرة المترتبة علىٰ اتباع الهوىٰ.

الأمر الخامس: عدم قبول العمل

وهو أثر من آثار اتباع الهوىٰ، فعن الإمام الكاظم عليه السلام، أنّه قال لهشام بن الحكم: «**يا هشام! قليل العمل من العاقل مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود**»[١٩].

وقد جعل مخالفة الهوىٰ شرطاً لدخول الجنّة كما يفهم مما روي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من سلم من أمتي من أربع خصال فله الجنة: من الدخول في الدنيا، واتباع الهوى، وشهوة البطن، وشهوة الفرج**»[٢٠].

وعن سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يحدّث عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال في كلام له: «**العلماء رجلان: رجل عالم آخذ بعلمه فهذا ناج وعالم تارك لعلمه فهذا هالك، وإنَّ أهل النار ليتأذّون من ريح العالم التارك لعلمه، وإن أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبداً إلى الله فاستجاب له وقبِل منه فأطاع الله فأدخله الله الجنة وأدخل الداعي النار بتركه علمه واتباعه الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق وطول الأمل ينسي الآخرة**»[٢١].

إضافة إلىٰ أنَّ متّبع الهوىٰ لا يحصل علىٰ مبتغاه حتى في الدنيا، فإنَّ الله تعالىٰ لا يهنِّيه في دنياه، بل ينكِّد عليه عيشته، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يقول الله عزّ وجلّ: وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواه على هواي إلا شتّت عليه أمره، ولبَّستُ عليه دنياه، وشغلت قلبه بها، ولم أؤته منها إلا ما قدّرت له، وعزتي وجلالي وعظمتي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواي على هواه إلا استحفظته ملائكتي، وكفَّلت السماوات والأرضين رزقه، وكنت له من وراء تجارة كلّ تاجر، وأتته الدنيا وهي راغمة**»[٢٢].

محاربة النفس جهاد:

حينما يقف المرءُ علىٰ هذه الآثار والعواقب لاتباع الهوىٰ فإنَّ عقله لا بدَّ أن

يدعوَه لشنٍّ حرب شعواء تجاه الهوىٰ؛ لينجو من هذه العواقب الوخيمة والمؤلمة.

والحرب يعني الجهاد، والجهاد يحتاج للعدّة والتأهّب والصبر، ونصوص المعصومين عليهم السلام تدعو إلىٰ ذلك بشدَّة، فعن الصادق عليه السلام أنّه كان يقول: «**لا تدع النفس وهواها فإنَّ هواها [في] رداها، وترك النفس وما تهوى أذاها، وكفُّ النفس عمَّا تهوى دواها**»[٢٣]، وعن أحدهم عليه السلام: «**جاهد هواك كما تجاهد عدوك**»[٢٤].

ثم إنَّ مخالفة الهوىٰ ليس بالأمر الهيّن، بل يحتاج إلىٰ جهاد أكثر من الجهاد في ساحة الحرب، ولذلك يطلب زين العابدين عليه السلام ذلك من الله تعالىٰ فيقول في الصحيفة السجادية: «**وطهّرنا من اتباع الهوى ومخالطة السفهاء، وعصيان العلماء والرغبة عن القراء، ومجالسة الدناة**»[٢٥].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم**»[٢٦]، وقد جُعلت الشجاعة الحقيقية والعجز الحقيقي يدور مدار متابعة الهوىٰ ومخالفته: فعن الصادق عليه السلام، قال: «**قال أمير المؤمنين عليه السلام: أشجع النّاس من غلب هواه**». قال زيد بن صوحان لأمير المؤمنين عليه السلام: أيّ سلطان أغلب وأقوىٰ؟ قال: «**الهوى**»"[٢٧].

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الكيّس (من الناس) من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنّى على الله عزّ وجلّ الأماني**»[٢٨].

فاتباع الهوىٰ وعدم القدرة علىٰ محاربة مشتهيات النفس يدلّ علىٰ العجز والضعف عند الإنسان، فكم من شجاع في سوح الجهاد يسقط ضعيفاً أمام شهوة عابرة، ولذة فانية.

وعن سيد المرسلين صلى الله عليه وآله: «**والثلاث المهلكات: شحٌّ مطاع، وهوى متبع، وإعجابُ المرء بنفسه**»"[٢٩].

المطلب الثالث: طول الأمل وآثاره

وهو من الصفات المهلكة للفرد وللمجتمع، ومنشأ هذا المرض الخطير لا يختلف

عن السابق، يقول في جامع السعادات: "**منشأ طول الأمل الجهل، وحبُّ الدنيا**"[٣٠].

وطول الأمل يعني أنْ يعطي الإنسان لنفسه أملاً ببقائه في هذه الحياة الفانية، فيحسب نفسه خالداً فيها، ويكون عمله وفقاً لهذا الاعتقاد بالبقاء، مع إرادته ورغبته وتعلّق قلبه بمشتهيات الدنيا من مال وجاه وولد وما شاكل ذلك[٣١].

والأثر المهلك لهذا المرض الخطير هو نسيان الآخرة، ومن نسيان الآخرة تتفرَّع الآثارُ الأخرىٰ، فينسىٰ الله تعالىٰ، ويتعلَّق قلبُه بالدنيا، ويترك الواجب، ويتساهل في الحرام، إلىٰ غير ذلك من الآثار.

يقول المولىٰ المازندراني في شرحه لقول الأمير عليه السلام المتقدم «**وطول الأمل ينسي الآخرة**»: "**لأنَّ طولَ توقُّعِ الأمور الدنيوية يوجبُ نسيان النفس وغفلتها عن الأحوال الأخروية، وهو مستعقب لانمحاء ما تصور فى الذهن منها، وذلک معنى النسيان، وبذلک يكون الهلاک الأبدى والشقاء الأخروى**"[٣٢].

ولا شكَّ في أنَّ من ينسىٰ الآخرة فسوف يكون عملُه كعمل غير المؤمن، فلا يردعه شيء، يقول علي عليه السلام: «**ما أطال عبدٌ الأملَ إلا أساءَ العمل**»[٣٣].

ولذلك فإنَّ الروايات الشريفة تحذّر من ذلك أشدَّ التحذير، فقد روي أنَّ أسامة بن زيد اشترىٰ وليدة بمائة دينار إلىٰ شهر، فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «**ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر؟ إنَّ أسامة لطويل الأمل، والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أنَّ شفرتي**[٣٤] **لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي وظننت أنّي خافضُه حتى أُقبض، ولا تلقَّمْتُ لقمة إلا ظننت أنّي لا أسيغها انحصر بها من الموت**» ثمّ قال صلى الله عليه وآله: «**يا بني آدم إنْ كنتم تعقلون فعدُّوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إنّما توعدون وما أنتم بمعجزين**»"[٣٥].

فترة الشباب هي المحور:

قد يتصوَّر البعضُ أنَّ الإنسان إذا كبر واقترب من الموت سوف يقصرُ أملُه، ولكن الروايات تؤكِّد خلاف ذلك، كما ورد في الحديث: «**يشيبُ ابنُ آدم ويشبُّ فيه**

خصلتان؛ الحرص، وطول الأمل»[٣٦]، فالمدار في القضاء علىٰ هذا المرض هو فترة الشباب، أمّا إذا تغلغل هذا المرض في النفس فترة الشباب ولم يحارب فإنَّ هذه النفسية التي يعيشها من الاعتقاد بالبقاء تبقىٰ شابة طرية، ويزداد اعتقاده أكثر في المزيد من البقاء، وهذا ما نراه من بعض الظلمة والفسقة -الذين يترقّب الجميعُ موتَهم لما يحملونه من أمراض وضعف في البدن- ولكنّهم يعملون أعمال من يرجو أنْ يبقىٰ مائة عام أخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾[٣٧].

ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من كان يأمل أنْ يعيش غداً، فإنّه يأمل أن يعيش أبداً**»[٣٨]، فيجب محاربة طول الأمل وعلاجه مبكراً.

علاج طول الأمل:

العلاج هو التفكُّر والتمعُّن في أحوال الدنيا وتقلّباتها، ورؤية الراحلين منها من الصغار والكبار والمرضىٰ والأصحّاء، يقول علي عليه السلام: «**لو رأى العبدُ أجلَه وسرعتَه إليه لأبغض الأملَ وطلب الدنيا**»[٣٩].

وعنه أيضاً روحي فداه: «**ولو أنَّ أحداً يجدُ إلى البقاء سلّما، أو إلى دفع الموت سبيلاً، لكان ذلك سليمان بن داود عليه السلام الذي سخَّر له ملكُ الجنِّ والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة، فلمّا استوفى طعمته، واستكمل مدته، رمتُه قسيُّ الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية، والمساكن معطلة، وورثها قوم آخرون، وإنَّ لكم في القرون السالفة لعبرة، أين العمالقة وأبناء العمالقة. أين الفراعنة وأبناء الفراعنة. أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين وأطفأوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين، وأين الذين ساروا بالجيوش وهزموا الألوف، وعسكروا العساكر ومدنوا المدائن**»[٤٠].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «**ما أنزل الموتَ**

حقَّ منزلته من عدَّ غداً من أجله»[٤١].

والفرق الشاسع بين طويل الأمل وبين غيره أنَّ طويل الأمل لا يتذكِّر الآخرة، بينما من يضع الموت والآخرة نصب عينيه، فإنَّه يعد نفسه في الأموات كما في الحديث.

والفرق الآخر أنَّ طويل الأمل لشدة تعلّقه بالدنيا يشمئزُّ من ذكر الموت وما بعد الموت، بينما المؤمن الحقيقي ينتظر ذلك اليوم؛ لأنَّ قلبه ليس فيه إلا حبّ الله تعالى، والدنيا في نظره شيء ممقوت يريد التخلّص منه، فنرى مثلا أمير المؤمنين عليه السلام لما ابتلي بأهل الدنيا كان يقول -وهو يخطب على منبر الكوفة وقد فأخذ بلحيته- «**متى ينبعث أشقاها حتى يخضب هذه من هذه**»[٤٢].

المطلب الرابع: موارد ذكر فيها لفظ «أخوف ما أخاف»

قلنا في المطلب الأول أنَّ تخوف الأمير عليه السلام من مرضي اتباع الهوى وطول الأمل إمّا بسبب كونهما من أخطر الأمراض، أو بسبب كونهما من أكثر الأمراض وقوعا، ويحتمل الأمران معاً، ولكن قد وردت عدّةُ نصوص ذكر فيها لفظ «**أخوف ما أخاف**» من أمراض أخرى، وكثير من هذه النصوص لم ترد في مصادرنا، وبعض هذه الأمراض يمكن إرجاعها إلى اتباع الهوى طول الأمل.

وهذه الأمراض كالتالي: المكاسب المحرَّمة، والشهوة، والربا، والرياء، والمنافق عليم اللسان، والأئمة المضلون، وتأخير الصلاة عن وقتها، وتعجيلها عن وقتها، والكتاب واللبن.

فعن **الشهوة والربا:** جاء في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي هذه المكاسب الحرام والشهوة الخفية والربا**»[٤٣].

وورد حول الرياء: في مسند ابن حنبل قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنَّ أخوف ما**

أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال رسول الله ﷺ: «**هو الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء**»، ورواه الشهيد الثاني في منية المريد(٤٤).

وعن شداد بن أوس أنَّه بكىٰ فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**أخوف ما أخاف على أمتي الشرك والشهوة الخفية**»، قلت: يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: «**نعم، أمَا إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا، ولكن يراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائمًا فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه**»(٤٥).

وفي المنافق: روىٰ ابن حنبل عن عمر عن النبي ﷺ: «**إنَّ أخوف ما أخاف عليكم بعدي كلّ منافق عليم اللسان**»، ونقله الشهيد في منية المريد(٤٦).

وورد شبيه له في كتبنا فقد روىٰ الصدوق في الخصال عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «**قطع ظهري رجلان من الدنيا: رجل عليم اللسان فاسق، ورجل جاهل القلب ناسك، هذا يصد بلسانه عن فسقه، وهذا بنسكه عن جهله، فاتقوا الفاسق من العلماء والجاهل من المتعبدين، أولئك فتنة كل مفتون، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا علي هلاك أمتي على يدي [كل] منافق عليم اللسان**»(٤٧).

وعن الأئمة المضلين: روىٰ أحمد في مسنده عن أبي الدرداء قال: "عهد إلينا رسول الله ﷺ: «**إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلون**»"(٤٨).

وروىٰ البيهقي أنّ النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله عزوجل زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وأعطاني الكنزين الأحمر والأبيض، فإنَّ ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها، وإني سألت ربي عزوجل أنْ لا يهلكهم بسنَّة عامَّة، وأنْ لا يسلّط عليهم عدواً من غيرهم فيهلكهم، وأنْ لا يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا محمد، إني إذا**

أعطيت عطاء فلا مردّ له، إنّي أعطيتك لأمتك أن لا يهلكوا بسنة عامة، وأن لا أسلّط عليهم عدوا من غيرهم فيستبيحهم ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وبعضهم يسبي بعضاً وبعضهم يفتن بعضاً، وإنّه سيرجع قبائل من أمتي إلى الشرك وعبادة الأوثان، وإنَّ من أخوف ما أخاف الأئمّة المضلين، وأنّه إذا وضع السيف فيهم لم يرفع إلى يوم القيامة، وإنّه سيخرج في أمتي كذابون دجالون قريباً من ثلاثين، وإني خاتم الأنبياء لا نبي بعدي ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة حتى يأتي أمر الله» رواه مسلم في الصحيح"[٤٩].

وعن أبي الأعور السلمي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي شحّ مطاع، وهوى متبع، وإمام ضال**». رواه الطبراني والبزار وفيه من لم أعرفه"[٥٠].

وفي **تأخير الصلاة عن وقتها وتعجليها**: عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله: «**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي تأخيرهم الصلاة عن وقتها، وتعجيلهم الصلاة عن وقتها**»"[٥١].

وعن **الكتاب واللبن**: وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي الكتاب واللبن فأما اللبن فينتجع أقوام لحبه فيتركون الجمعة والجماعات، وأما الكتاب فيفتح لأقوام منه فيجادلون به الذين آمنوا**». رواه الطبراني وأحمد بغير لفظه وفيه ابن لهيعة وفيه كلام"[٥٢].

وكما نرىٰ فإنَّ أكثر هذه الأمور ترجع إلىٰ اتباع الهوىٰ وطول الأمل، فمثلا الأئمة المضلون إنما كانوا مضلين ومانعين الناس عن الحق بسبب اتباعهم أهواءهم وتعلّقهم بالدنيا والسلطة، وكذلك الشهوة والمكاسب المحرمة.

المطلب الخامس: آثار اتباع الهوى وطول الأمل في كلام الأمير عليه السلام

أذكر هذه الخطبة المهمَّة لأمير المؤمنين عليه السلام -رغم طولها، وقد تقدم صدرها- وهو يتحدّث فيها عن مصاديق كثيرة للفتنة، وموارد لما أُدخل في الدين ابتداعاً،

وكلّ ذلك سببه اتباع الهوىٰ وطول الأمل، وفي الحقيقة إنّ كلامه عليه السلام يعتبر منذراً لنا أيضاً لمعرفة خطورة هذين المرضين الهدامين للفرد وللمجتمع، بل للدين وللشريعة.

روىٰ الكليني في الكافي علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسىٰ، عن إبراهيم بن عثمان، عن سليم بن قيس الهلالي قال: خطب أمير المؤمنين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثمّ صلّىٰ علىٰ النبي صلى الله عليه وآله، ثمّ قال: «**ألا إن أخوف ما أخاف عليكم خلتان: اتباع الهوى وطول الأمل، أمّا اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة، ألا إنَّ الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإنَّ الآخرة قد ترحلّت مقبلة، ولكلٍّ واحدة بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليوم عمل ولا حساب، وإنَّ غدا حساب ولا عمل، وإنّما بدء وقوع الفتن من أهواء تتبع وأحكام تبتدع، يخالف فيها حكم الله يتولى فيها رجال رجالا، ألا إنَّ الحقَّ لو خلص لم يكن اختلاف، ولو أنَّ الباطل خلص لم يخف على ذي جى؛ لكنَّه يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث، فيمزجان، فيجللان معا، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: كيف أنتم إذا لبستم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، يجري النّاس عليها ويتخذونها سنة، فإذا غيّر منها شيء قيل: قد غيّرت السنة، وقد أتى الناس منكراً، ثمَّ تشتدُّ البلية، وتسبى الذرية، وتدقهم الفتنة كما تدقّ النار الحطب، وكما تدقّ الرحا بثفالها، ويتفقهون لغير الله، ويتعلَّمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بأعمال الآخرة**»، ثمَّ أقبل بوجهه وحوله ناس من أهل بيته وخاصته وشيعته فقال: «**قد عملت الولاة قبلي أعمالاً خالفوا فيها رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدّين لخلافه، ناقضين لعهده مغيّرين لسنته، ولو حملت النَّاس على تركها، وحولتها إلى مواضعها، وإلى ما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لتفرَّق عني جندي، حتى أبقى وحدي، أو قليل من شيعتي الذين عرفوا فضلي وفرض إمامتي من كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، أرأيتم لو أمرت بمقام إبراهيم عليه السلام فرددته إلى الموضع الذي**

وضعه فيه رسول الله ﷺ .

ورددت فدك إلى ورثة فاطمة.

ورددت صاع رسول ﷺ كما كان.

وأمضيت قطائع أقطعها رسول الله ﷺ لأقوام لم تمض لهم ولم تنفذ.

ورددت دار جعفر إلى ورثته وهدمتها من المسجد.

ورددت قضايا من الجور قضي بها.

ونزعتُ نساءً تحت رجال بغير حق فرددتهن إلى أزواجهن، واستقبلت بهنَّ الحكم في الفروج والأرحام. وسبيت ذراري بني تغلب.

ورددت ما قسم من أرض خيبر.

ومحوت دواوين العطايا، وأعطيتُ كما كان رسول الله ﷺ يعطي بالسوية، ولم أجعلها دُولةً بين الأغنياء.

وألقيت المساحة.

وسويت بين المناكح.

وأنفذت خمس الرسول كما أنزل الله عزّوجلّ وفرضه.

ورددت مسجد رسول الله ﷺ إلى ما كان عليه، وسددت ما فتح فيه من الأبواب، وفتحت ما سدّ منه.

وحرمت المسح على الخفين.

وحددت على النبيذ.

وأمرت بإحلال المتعتين.

وأمرت بالتكبير على الجنائز خمس تكبيرات.

وألزمت الناس الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم.

وأخرجت من أدخل مع رسول الله ﷺ في مسجده ممن كان رسول الله ﷺ أخرجه، وأدخلت من أخرج بعد رسول الله ﷺ ممن كان رسول الله ﷺ أدخله.

وحملت الناس على حكم القرآن.

وعلى الطلاق على السنة.

وأخذت الصدقات على أصنافها وحدودها.

ورددت الوضوء والغسل والصلاة إلى مواقيتها وشرائعها ومواضعها.

ورددت أهل نجران إلى مواضعهم.

ورددت سبايا فارس وسائر الأمم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

إذاً لتفرقوا عني.

والله لقد أمرتُ الناس أنْ لا يجتمعوا في شهر رمضان إلا في فريضة، وأعلمتهم أنَّ اجتماعهم في النوافل بدعة، فتنادى بعض أهلُ عسكري ممن يقاتل معي: يا أهل الإسلام غُيّرت سنة عمر، ينهانا عن الصلاة في شهر رمضان تطوعاً، ولقد خفت أن يثوروا في ناحية جانب عسكري.

ما لقيت من هذه الأمة من الفرقة وطاعة أئمة الضلالة والدعاة إلى النار؟!

وأعطيتُ من ذلك سهم ذي القربى الذي قال الله عز وجل: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[٥٣]، فنحن والله عنى بذي القربى الذي قرننا الله بنفسه وبرسوله ﷺ فقال تعالى: ﴿فَلِلهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ «فينا خاصة» كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ «في ظلم آل محمد» إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٥٤]، لِمَن ظَلَمهم رحمةً منه لنا، وغنى أغنانا الله به، ووصّى به نبيه ﷺ ولم يجعل لنا في سهم الصدقة نصيباً، أكرم اللهُ رسولَه ﷺ وأكرمنا أهلَ البيت أن يطعمنا من أوساخ الناس، فكذّبوا الله، وكذّبوا رسوله، وجحدوا كتاب الله الناطق بحقنا، ومنعونا فرضاً فرضه الله لنا، ما لقي أهل بيت نبي من أمته ما لقينا بعد نبينا ﷺ، والله المستعان على من ظلمنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[٥٥].

وكل مورد من هذه الموارد التي عدّدها الأمير عليه السلام تحتاج إلى بحث وشرح، وليس البحث حول ذلك، فليطلب من محله.

نسأل الله تعالى أنْ يرزقنا الصدق في القول والعلم، وأنْ يبصِّرنا عيوبنا، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً، إنّه جواد كريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

الهوامش:

(١) نهج البلاغة، ج١، ص٩٢.

(٢) شرح الكافي، المولى المازندراني، ج٢، ص١٤١.

(٣) كلمة التقوى، الشيخ زين الدين، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مسألة ٦٥.

(٤) الجاثية: ٢٣.

(٥) القصص: ٥٠.

(٦) الجاثية: ٢٣.

(٧) التبيان، الشيخ الطوسي، ج٩ ص٢٥٩.

(٨) سورة الفرقان: ٤١- ٤٤.

(٩) التبيان، الشيخ الطوسي، ج٧، ص٤٩٣.

(١٠) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج٧، ص٢٩٩.

(١١) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، ج١٥، ص٢٢٣.

(١٢) كتاب العين، الفراهيدي، ج٤، مادة طغو-طغي، ص٤٣٥.

(١٣) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص٥٢٠.

(١٤) سورة النازعات: ٧٣- ٤١.

(١٥) راجع في تفسير الآية: تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي، ج٢٠ ص١٩٢.

(١٦) راجع المصدر السابق.

(١٧) الكافي، ج٨، ص٥٨.

(١٨) يقول المولى المازندراني في شرحه لهذا الحديث: "وذلك لأنَّ المقصود من بعثة الرسل ووضع

الشرايع إنما هو نظام الخلق، فكان كلٌّ هوىٰ متبع وحكم مبتدع خارج عن حكم الله وحكم الله وحكم رسوله سبباً لوقوع الفتنة، وتبدد نظام الوجود في هذا العالم، وذلك كأهواء المخالفين والبغاة والخوارج والغلاة وغيرهم"، شرح أصول الكافي، ج١١، ص٣٩٦.

(١٩) المستدرك، ج١٢، ص١١٢.

(٢٠) نفس المصدر، ص١١١.

(٢١) الكافي، ج١، ص٤٤.

(٢٢) الكافي، ج٢، ص٣٣٥.

(٢٣) نفس المصدر، ص٣٣٦.

(٢٤) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج٤ ص٤١٠.

(٢٥) الصحيفة السجادية (أبطحي)، من مناجات باسم (الانجيلية الوسطىٰ) ص٤٧٠.

(٢٦) يقول المازندراني.: "«فليس شيء أعدىٰ للرجال من اتباع أهوائهم»؛ لأن ضرر العدو علىٰ فرض تحققه راجع إلىٰ الدنيا الفانية، وضرر الهوىٰ مع تيقنه راجع إلىٰ الآخرة الباقية، والفرق بينهما كالفرق بين الدنيا والآخرة، وقد رغب اللهﷻ في ترك الهوىٰ، ورتب عليه دخول الجنة فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾، وحثَّ أمير المؤمنينعليه السلام بقوله: «الهوىٰ شريك العمىٰ»؛ يريد أنَّ الهوىٰ مثل عمىٰ القلب يلقىٰ صاحبه في جبّ الغوىٰ؛ فهو شريك له في الإهلاك، وفي تركه مراتب كثيرة لا يقدر عليه إلا العالم الماهر العارف بمكائد النفس، أو التابع له، إذ النفس مكارة قد تلبس الباطل بلباس الحق فيظن الجاهل أنه حق". شرح الكافي، ج٩، ص٣٨٨.

(٢٧) المستدرك، ج١٢، ص١١١.

(٢٨) نفس المصدر، ص١١٢.

(٢٩) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٨٤.

(٣٠) جامع السعادات، المحقق النراقي، ج٣، ص٢٧.

(٣١) يقول الشيخ النراقي في تعريف طول الأمل: "وهو أن يقدر ويعتقد بقاءه إلىٰ مدة متمادية، مع رغبته في جميع توابع البقاء: من المال والأهل والدار وغير ذلك، وهو من رذائل قوتي العاقلة والشهوة إذ الاعتقاد المذكور راجع إلىٰ الجهل المتعلق بالعاقلة، وحبه لجميع توابع البقاء وميله إليه من شعب حب الدنيا، وجهله راجع إلىٰ تعويله: إمَّا علىٰ شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب" جامع السعادات، ج٣ ص٢٥.

(٣٢) شرح الكافي، المازندراني، ج٢، ص١٤١.

(٣٣) البحار، المجلسي، ج٧٠، ص١٦٦.

(٣٤) الشُفر بالضم شفر: العين، وهو ما نبت عليه الشعر، وأصل نبت الشعر في الجفن، وليس من الشعر في شيء، وهو مذكر، لسان العرب، مادة: شفر، ج٤، ص٤١٨.

(٣٥) روضة الواعظين، النيسابوري، ص٤٣٧.

(٣٦) البحار، ج٧٠، ص٢٢.

(٣٧) سورة البقرة: ٩٦.

(٣٨) البحار، ج٧٠، ص١٦٧.

(٣٩) البحار، ج٧٠، ص١٦٦.

(٤٠) نهج البلاغة، ج٢، ص١٠٧.

(٤١) الكافي، ج٣، ص٢٥٩.

(٤٢) نهج السعادة، ج٢، ص٦٩٤.

(٤٣) الكافي، ج٥ ص١٢٤.

(٤٤) منية المريد، الشهيد الثاني، ص٣١٧، وعنه في مستدرك الوسائل، المحدث النوري، ج١، ص١٠٧، ومثله في عدة الداعي، ابن فهد الحلي، ص٢١٤.

(٤٥) مجمع الزوائد، الهيثمي، ج٣ ص٢٠١.

(٤٦) مسند أحمد، ج١ ص٢٢، منية المريد، ص١٣٧.

(٤٧) الخصال، ص٦٩.

(٤٨) مسند أحمد، ج٦، ص٤٤١.

(٤٩) السنن الكبرىٰ، البيهقي، ج٩، ص١٨١.

(٥٠) مجمع الزوائد، الهيثمي، ج٥، ص٢٣٩.

(٥١) السنن الكبرىٰ، ج٢، ص٢١٥.

(٥٢) مجمع الزوائد، ج٢، ص٤٤.

(٥٣) سورة الأنفال: ٤١.

(٥٤) سورة الحشر: ٧.

(٥٥) الكافي، ج٨، ص٥٨-٦٣.

حقيقة العبادة

الشيخ محمد عاشور عبد الرسول

مقدمة

قال الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] العبادة من الركائز المهمّة في الإسلام فقد أولى الحديث عنها أهمية كبرى، وهي من المفاهيم التي وقع البحث فيها بين الأعلام من أبعاد عديدة، فقد تعرّض علماء الفقه إليها من جهات مختلفة، وأوسع علماء الأخلاق تناولَه من جنبات متعددة، وأشبعت الآيات القرآنية والروايات الشريفة الحديث عنه.

وعبادة الله تعالى ناموس كوني عام يخضع له كل شيء حيث قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[2].

ونحاول في هذه الأسطر أن نلامس مفهوم العبادة من بعض جهاتها بالإجابة عن بعض هذه الاستفسارات: ما هي حقيقة العبادة؟ وهل للعبادة مراتب وغايات متفاوتة على وفقها تختلف مقامات العابدين أم أنّها على وتيرةٍ واحدة؟ ثمّ ما هي الآفات التي تهلك نتاج العبادة وتفسده؟

وفي ختام البحث نذكر نماذج عبادية حريٌّ بنا أن نقتدي بها. فالبحث فعلاً في أمور ثلاثة وخاتمة.

الأمر الأول: في حقيقة العبادة

العبادة لغة: بمعنى الطاعة، وأصل العُبُودِيَّةِ الخضوعُ والذلُّ[٣]، وعَبَدْتُ: اللَّهَ (أَعْبُدُهُ) (عِبَادَةً) وهِيَ الانقِيَادُ والخُضُوعُ[٤]. وقد جاء في معجم مقاييس اللغة: "أمّا **عَبَدَ يَعبُد عبادةً فلا يقال إلّا لمن يعبدُ اللّهَ تعالى**"[٥].

أمّا اصطلاحاً فالعبادة تطلق علىٰ معانٍ:

الأول: ما يتوقف صحته علىٰ إتيانه بقصد القربة. وهذا هو العبادة بالمعنى الأخص.

الثاني: ما يؤتىٰ به بقصد القربة ولو لم تكن صحته منوطة بإتيانه كذلك. وهذا هو العبادة بالمعنى الأعم.

الثالث: الوظائف التعبدية المقررة للمكلفين مما لا يتوقف علىٰ إنشاء أصلاً. وهذا أعمّ من المعنى الثاني ويشمل مثل القضاء والشهادات والمواريث ونحوها[٦].

وما يهمّنا الحديث عنه هو المعنى الأول للعبادة الذي أُخذ فيه قصد القربة (العبادة بالمعنى الأخص)، فتبطل العبادة إذا لم يقصد بها القربة لله تعالىٰ، واشتراط القربة في هذا النحو من العبادة مما لا خلاف فيه كما صرّح بذلك صاحب الجواهر[٧]. وقد ذكر العلماء مراتب متعددة للقربة، وغايات مختلفة للعبادة. فهل هناك نحو خاص من القربة هو المشترط قصده في العبادة، أم أنّ العبادة تتحقق بأيّ نحو من أنحاء القربة؟ ومعرفة الجواب عن هذا التساؤل تتوقف علىٰ معرفة أنحاء غايات العبادة، وهذا ما يجعلنا ننتقل إلىٰ الأمر الثاني في هذا المقال.

الأمر الثاني: في مراتب العبادة

لمّا كانت العبادة -فعلاً- للإنسان العاقل المختار كان لا بدّ من أن يكون لها غاية يرجوها من خلال الإتيان بها، فمن هنا ذكر العلماء مراتب للقربة، وغايات للعبادة نأتي على ذكرها تباعاً، وقبل ذلك نذكر تنبيهاً مفاده: أنّ العبادة لا تكون عبادة إلا إذا تحققت الإضافة إلى المولى بنحو الإضافة التذلّلية، وهذا لا يتحقق إلا بأحد أمرين:

١- أن يؤتى بالفعل بقصد امتثال أمر المولى.

٢- أن يؤتى بالفعل بقصد ملاك الأمر، وهو المحبوبية فلأنّ الله محب لإتياني الصلاة فأنا أصلي.

بعد اتضّاح ذلك نأتي إلى غايات ومراتب العبادة:

المرتبة الأولى: -وهي أدناها- أن يأتي العبد بالعبادة خوفاً من العقاب الدنيوي، أو رغبة في الثواب الدنيوي، كالمال، والعافية، وطلب الولد، عدم الابتلاء.إلخ. وهذه المرتبة تشتمل على مراتب متفاوتة أيضاً، فبعضها تكون العبادة فيها خير للآخرين، كصلاة الاستسقاء، والدعاء للمؤمنين، وبعضها الخير فيها شخصي فقط.

المرتبة الثانية: أن يأتي بالعبادة لأجل الثواب الأخروي، ودفع العقاب الأخروي. والظاهر من مشهور العلماء أنّ إتيان العبادة بهذه المرتبة الثانية مبطلٌ للعبادة فضلاً عن قصد المرتبة الأولى؛ وذلك لأنّه يكون من قبيل المعاوضات التي تتنافى مع حق المولى عزّوجلّ، بل ادّعي عليه الإجماع كما عن بعضهم[٨].

إلا أنّ جماعة من متأخري المتأخرين كصاحب الحدائق وغيره حكموا بالصحة؛ لأنّ قصد الثواب والعقاب يُتصوَّر على نحوين:

النحو الأول: أن يكون في طول قصد الامتثال أو المحبوبية، فإنّما يقصد طلب

الثواب والهروب من العقاب؛ لأجل تحصيل رحمته وحبّه ﷻ، كي يرضىٰ عنه ويكون أهلاً لرحمته وبعيداً عن نقمته فيكون القصد حينئذٍ من قبيل الداعي إلىٰ الداعي.

النحو الثاني: أن يكون طلب هذه الأمور في عَرض قصد الأمر أو قصد ملاكه، فتكون أشبه بالمعاوضة كما هو الحال في فعل الأجير الذي يقصد الفعل المستأجر عليه لأجل الأجرة لا غير من دون النّظر إلىٰ المولىٰ.

أمّا النحو الأول فلا ينبغي الشك في صحة قصد العمل به، وهو ما يدلّ عليه الارتكاز المتشرعي، بل دلّت عليه النصوص القرآنية والروائية الحاثّة علىٰ الطاعة، والزاجرة عن المعصية، وإليك بيان ذلك:

أولاً: تضمّن بعض النصوص الترغيب علىٰ العمل طلباً لما عند اللّه تعالىٰ، وحثُّ بعضها علىٰ العمل لما يخاف من أليم العقاب، ممّا يكشف عن مشروعية العمل وعباديته عند إتيانه بنية طلب الثواب أو الخوف من العقاب:

فأمّا الآيات القرآنية: فقوله تعالىٰ: ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾[9]، وقوله تعالىٰ: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾[10]،فالآيتان واضحتان في الدلالة علىٰ أنّ بعض المؤمنين يأتون بالعبادة طلباً للثواب، وخوفاً من العقاب، وهما في مقام المدح لهم.

وأمّا الروايات: وهي متكثرة بل متواترة في بيان صحة عمل مَن أتىٰ بالعبادة بهذه القصود إما مطابقة أو التزاماً، وهي علىٰ أصناف:

الصنف الأول:روايات مَن بلغ، كما عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «**من سمع شيئاً من الثواب على شيء فصنعه كان له وإن لم يكن على ما بلغه**»[11]. وما ورد عن محمد بن مروان قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «**من بلغه ثواب من الله على عمل فعمل**

ذلك العمل التماس ذلك الثواب أوتيه وإن لم يكن الحديث كما بلغه»[١٢].

الصنف الثاني: الروايات الواردة في بيان عبادة لمن أراد تحصيل الشفاء أو الغنى أو الولد...الخ. كما ورد عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه قال: شكا الأبرش الكلبي إلى أبي جعفر عليه السلام أنّه لا يولد له. فقال: له علّمني شيئاً. قال: «**استغفر الله في كل يوم أو في كل ليلة مائة مرة فإنّ الله يقول: استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً** -إلى قوله- **ويمددكم بأموال وبنين»**[١٣].

ومنه ما رُوي عن محمد بن علي الحلبي قال: «**شكا رجل إلى أبي عبدالله عليه السلام الفاقة والحرفة في التجارة بعد يسار قد كان فيه ما يتوجّه في حاجة إلا ضاقت عليه المعيشة، فأمره أبو عبدالله عليه السلام أن يأتي مقام رسول الله صلى الله عليه وآله بين القبر والمنبر فيصلّي ركعتين ويقول مائة مرّة: اللهم إنّي أسألك بقوّتك وقدرتك وبعزّتك وما أحاط به علمك أن تيسّر لي من التجارة أوسعها رزقاً وأعمّها فضلاً وخيرها عاقبة. قال الرجل ففعلتُ ما أمرني به فما توجّهت بعد ذلك في وجهة إلا رزقني الله»**[١٤].

الصنف الثالث: الروايات التي تصنّف عبادة الناس

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنَّ العُبّاد ثلاثة، قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأُجَراء، وقوم عبدوا الله عزّ وجلّ حباً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة»**[١٥].

ومنها ما ورد عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: «**إنَّ الناس يعبدون اللّه عزّ وجلّ على ثلاثة أَوْجُهٍ فطَبقة يعبدونه رغبة فِي ثوابه فتلك عبادة الحُرَصاء وهو الطَّمع، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار فتلك عبادة العَبيد وهي رهبة، ولكني أعبده حُبّاً له عزّ وجلّ فتلك عبادة الكرام وهو الأَمن لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ فمن أحب اللّه عزّ وجلّ أَحبَّه اللّه، ومن أَحبّه اللّه عزّ وجلّ كان من الآمنين»**[١٦].

ثانياً: إنّ تكليف عامّة الناس بإتيان العبادة بأعلىٰ مراتبها من الإخلاص التام، لهو من التكليف بالمحال بل هو عينه كما يقول العلامة المجلسي﵀: **"وأما قصد حصول الثواب والخلاص من العقاب، فلا ينافى الإخلاص لأنّهما بأمره تعالى، وتكليف أكثر الخلق بإخلاص النية منهما قريب من التكليف بالمحال بل هو عينه، نعم ذلك درجة المقربين من الأنبياء والأوصياء والصديقين صلوات الله عليهم أجمعين، ومن ادّعى ذلك من غيرهم فلعلّه لم يفهم معنى النّية، وجعلها محض حضور البال، وهو ليس من النية فى شيء والنية هو الغرض الواقعى الباعث على الفعل.**

وهذا مثل أن يقال فى طريقك أسد ولا تخف منه، وأعددنا لك مائة ألف تومان للعمل الفلانى ولا يكن باعثك على العمل ذلك، وهذا إنّما يصدق فى دعواه إذا علم من نفسه أنّه لو أيقن أن الله يدخله بطاعته النار وبمعصيته الجنة يختار الطاعة ويترك المعصية تقربا إلى الله تعالى. وأين عامة الخلق من هذه الدرجة القصوى والمنزلة العليا؟!"[17].

أما النحو الثاني، فمبطليّته للعبادة واضحة؛ لعدم مناسبته للعبودية. وهو بعيد جدًا بل هو محال؛ لأنّه إنّما يُفرض في الآثار التكوينية كترتّب الإحراق علىٰ النّار، أمّا الآثار الدنيوية والأخروية المترتبة بعنوان الثواب والجزاء منه تعالىٰ، فلا يُتصوّر فيها أن تكون في عَرض أمر الله تعالىٰ؛ إذ الثواب إنّما يترتب علىٰ العبادة الداخلة في حساب الله تعالىٰ والواصلة إليه، وهذا فرع قصد الأمر والامتثال، وموافقة ملاك المحبوبية[18]. ويمكن أن يُحمل قول المشهور علىٰ هذا النحو من القصد.

المرتبة الثالثة: يأتي بالعبادة؛ لأجل التقرب إلىٰ الله تعالىٰ، بمعنى طلب الحضور بين يدي اللهﷻ بحيث كأنّه يراه ويشاهده بالرؤية القلبية. وهو المعبّر عنه بلقاء الله تعالىٰ، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى**﴾[19].

المرتبة الرابعة: أن يقصد بالعبادة تحصيل رضا اللهﷻ والفرار من سخطه.

وحتى هذه المرتبة نجد أنّ الغاية من العبادة ترجع إلى نفس العبد الفاعل، فهو ينظر في الأخير إلى نفسه بجلب النفع إليها ودفع الضرر عنها. أمّا ما سيأتي من مراتب فإنّ العبد يبدأ بالتجرّد عن ذاته، وتكون الغاية من العمل لأجل المعبود ﷻ.

المرتبة الخامسة: أن يقصد بالعبادة شكر نِعَم الله التي لا تحصى. وعبادة المنعم تعتبر شكراً عملياً أفضل وأرقى من الشكر القولي، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الشأن أنّه قال: «**إنّ قوماً عبدوا اللّه رَغبة فتلك عبادة التُّجار، وإنَّ قوماً عبدوا اللّه رهبة فتلك عبادة العبيد، وإنَّ قوماً عبدوا اللّه شكراً فتلك عبادة الأحرار**»[٢٠] إلا أنّ هذه المرتبة وإن كانت لأجل المعبود إلا أنّها تشتمل على نحو إضافة للعبد فلأنّك يا رب أنعمت عليّ فأنا أعبدك شكراً.

المرتبة السادسة: أن يعبد الله تعالى؛ لأنّه أهل للعبادة، ولذلك أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:«**ما عبدتُكَ خوفاً مِن نارك ولا شوْقاً إلى جَنَّتكَ بل وجَدتُكَ أهلًا لِلعبادة فعبدتُكَ**»[٢١] وقد ذهب مجموعة من الفقهاء كصاحب العروة إلى أنّ هذه المرتبة هي أعلى المراتب[٢٢]، ولا يمكن لأحد أن يدعي هذه المرتبة إلا المعصومين عليهم السلام؛ لخلوّها عن كل غاية غير المعبود الذاتي.

وقد أضاف بعض العلماء كالشيخ محمد أمين زين الدين[٢٣] مرتبة سابعة فقال:

المرتبة السابعة: أن يقصد بالعبادة حبّ الله تعالى كما دلّت عليه الروايات المعتبرة، فقد روي عن أبي عبدالله عليه السلام: «**وقومٌ عبَدوا اللّهعزوجل حُبّاً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة**»[٢٤].

وقد أشار الإمام الخميني قدس سره في تعليقته على العروة الوثقى إلى وجود مراتب أعلى يشير إلى بعضها ما ورد في صلاة المعراج[٢٥]، إلا أنّ السيد السيستاني حفظه الله تعليقاً على هذه المراتب يقول: "**لم يثبت أنّ هذه المرتبة هى الأعلى ولا تلك هى الأدنى، وإنّما اللازم هو إضافة العمل إلى الله تعالى إضافة تذللية**"[٢٦]. ويقول الشهيد

الأول في كتابه الذكرىٰ: "**ولو قصد المكلف فى تقربه الطاعة للّٰه أو ابتغاء وجه اللّٰه كان كافياً، ويكفى عن الجميع قصد اللّٰه سبحانه الذى هو غاية كل مقصد**"[٢٧].

ثمّ إنّ الوصول إلىٰ الغايات والمراتب العليا من العبادة يحتاج إلىٰ التنزّه والترفّع عن آفات العبادة، فينبغي علينا معرفتها حتى نتمكن من تجاوزها وعدم الوقوع فيها، وبالتالي نبقىٰ محافظين علىٰ ما نصل إليه من مراتب عبادية عالية المستوىٰ. فما هي آفات العبادة؟

الأمر الثالث: آفات العبادة

الآفة الأولىٰ: الرياء: و"**هو عبارة عن إظهار وإبراز شيء من الأعمال الصالحة أو الصفات الحميدة أو العقائد الحقة الصحيحة للناس؛ لأجل الحصول على منزلة فى قلوبهم، والاشتهار بينهم بالصلاح والاستقامة والأمانة والتدين، بدون نية إلهية صحيحة**"[٢٨] فتراه يصلّي ويحج..إلخ؛ لأجل المنصب والرئاسة والوجاهة، وكل عبادة يؤديها فهي لغير وجه الله تعالىٰ، وإن كان يلقلق بلسانه أنّ صلاته قربة لله تعالىٰ.

علامات المرائي:

وحيث إنّ هذه الآفة شديدة الخفاء في النفس، فقد يبتلىٰ الإنسان بالرياء وهو لا يدري عن نفسه؛ جاءتنا علامات للشخص المرائي، فعن أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «**ثلاث علاماتٍ لِلمرائي: يَنشط إذا رأى النّاس، ويَكسَل إذا كان وحده، ويحب أنْ يُحمَد في جميع أموره**»[٢٩].

وإنّ للشيطان حبائل ومكائد عدّة يستدرج من خلالها العبد؛ ليوقعه في فخ الرياء، فيحبط بذلك عمله. من هنا ورد التحذير والنهي الشديد عن الرياء في روايات أهل البيت عليهم السلام، فعن أبي عبداللّٰه عليه السلام أنّه قال لِعَبّاد بن كَثِيرٍ البصري في المسجد: «**ويلكَ يا عَبّاد إيّاكَ والرِّياء فإنّه مَن عمل لغيْر اللّٰه وكَلَه اللّٰه إلى مَن عمل**

له»[٣٠].

عواقب وآثار الرياء:

وفي الآثار الوخيمة المترتبة على العبد المرائي، روي عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**سُئل فيمَ النَّجاة غداً؟ قال: إنَّما النَّجاة في أنْ لا تُخادِعوا اللَّه فَيَخدَعَكم فإنَّه مَن يُخادع اللَّه يخدعْهُ ويَنزِع منه الإيمان ونفسَه يَخدَع. قيل له: فكيف يُخادِع اللَّه؟ قال: يعمل بما أمر اللَّه عزّ وجلّ ثُمَّ يريد به غيره فاتَّقوا اللَّه في الرياء، فإنَّه الشرك باللَّه. إنَّ المُرائي يُدْعَى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر حبط عملُكَ وبطل أجركَ فلا خلاص لكَ اليوم فالتمس أجركَ ممَّن كنتَ تعمل له**»[٣١].

علاج هذا المرض الفتّاك:

والخلاصُ من هذه الآفة الكبيرة يلخّصه لنا الشهيد الثاني رحمه الله بقوله: "وإنّما خلاصك من ذلك كلّه أن تَلزم قلبك معرفة آفات الرياء وضرره، لتلزم كراهته وتستمرّ مع ذلك على العمل، وتلزم قلبك الحياء من اللّه تعالى إذ دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمد اللّه تعالى حمد المخلوقين، وهو مطّلع على قلبك ولو اطّلع الخلق على قلبك وأنّك تريد حمدهم لمقتوك، بل إن قدرت على أن تزيد فى العمل حياء عن ربّك وعقوبة لنفسك فافعل"[٣٢] أجارنا الله وإياكم من هذه الآفة المقيتة.

الآفة الثانية: العجب، وهو لغة يدل على **كِبْر واستكبارٍ للشَّيْء، وهو أن يتكبَّر الإنسان فى نفسه فتقول: هو مُعجَبٌ بنَفْسِه**[٣٣]. ويراد به عند علماء الأخلاق: "تعظيم العمل الأعم من الباطنى والظاهرى والأعم من الصالح والقبيح، واستكثاره والسرور والابتهاج به، والتغنج والدلال بواسطته، واعتبار الإنسان نفسه غير مقصّر"[٣٤].

درجات العجب:

وللعجب درجات ومراتب كما ورد عن علي بن سويد عن أبي الحسن موسىٰ عليه السلام قال:«**سألتُه عن العُجب الذي يُفْسِد العمل، فقال :العُجب درجات: منها أنْ يُزَيَّن للعبد سوء عمله، فيراه حسناً، فيُعْجِبه، ويَحْسَب أنَّه يُحْسِنُ صُنْعاً؛ ومنها أنْ يؤمِن العبد بربّه، فيَمُنَّ على اللّٰه عزّوجلّ، ولِلّٰه عليه فيه المنُّ**»[٣٥] وتعليقاً علىٰ هذه الرواية الشريفة يقول الإمام الخميني قدس سره: "واعلم أنّ للعجب، كما وردت الإشارة إليه فى الحديث الشريف، درجات: الدرجة الأولى: العجب بالإيمان والمعارف الحقة، ويقابله العجب بالكفر والشرك والعقائد الباطلة. الدرجة الثانية: العجب بالملكات الفاضلة والصفات الحميدة ويقابله العجب بسيئات الأخلاق وباطل الملكات. الدرجة الثالثة :العجب بالأعمال الصالحة والأفعال الحسنة ويقابلها العجب بالأعمال القبيحة والأفعال السيئة"[٣٦].

والعجب مصيدة الشيطان الرجيم، والعجب لا يفرّ منه إلا من أخلصه الله لنفسه، وإنّ الشيطان ليترصّد إلىٰ الناس ليوقعهم في هذه الآفة القبيحة. فعن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**بينما موسىٰ عليه السلام جالسٌ إذْ أقْبَل إبليس وعليه بُرْنُسٌ[٣٧] ذو ألوانٍ، فلمّا دنا من موسىٰ عليه السلام خَلَعَ البُرْنُس، وقام إلى موسىٰ، فسَلَّمَ عليه، فقال له موسىٰ: مَن أنتَ؟ فقال: أنا إبليس، قال: أنتَ؟! فلا قرَّب اللّٰهُ دارَك، قال: إنّي إنَّما جئتُ لأُسَلِّم عليكَ؛ لمكانكَ من اللّٰه. فقال له موسىٰ عليه السلام: فما هٰذا البُرْنُس؟ قال: به أختَطِف قلوب بني آدم، فقال موسىٰ: فأخبرني بالذّنْب الذي إذا أذنبَهُ ابن آدم، استَحْوَذْتَ عليه. قال: إذا أعْجَبَتْهُ نَفسُه، واستكثر عمله، وصغُر في عينه ذنبُه**»[٣٨].

العجب مضافاً إلىٰ كونه من الذنوب القلبية الخطيرة، فإنّه يؤدي إلىٰ بعض المفاسد والأمراض النفسية الأخرىٰ كمرض الحسد، والتكبّر، واستصغار الذنوب والعياذ بالله فقد ورد عن داوُد الرَّقِّيِّ قال: سمعتُ أبا عبد اللّٰه عليه السلام يقول:«**اتَّقُوا اللّٰه ولا يحسد بعضُكم بعضاً؛ إنَّ عيسى ابن مريم عليه السلام كان من**

شرائعه السَّيْحُ في البلاد فخرج في بعض سَيْحِه ومعه رَجُلٌ من أصحابه قصيرٌ، وكان كثير اللُّزوم لعيسى عليه السلام فلمّا انتهى عيسى عليه السلام إلى البحر قال: (بِسْمِ اللَّهِ) بصحَّة يقينٍ منه فمشى على ظهر الماء. فقال الرَّجلُ القصير حين نظر إلى عيسى عليه السلام: جازَه بسم اللَّه بصحة يقين منه فمشى على الماء ولحِقَ بعيسى عليه السلام فدخله العُجبُ بنفْسه فقال هذا عيسى عليه السلام روح اللَّه يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء فما فضله عليَّ؟! قال: فرَمِس في الماء، فاسْتَغاث بعيسى عليه السلام فتناوله من الماء فأَخْرَجَه، ثُمَّ قال له: ما قلتَ يا قصير؟ قال :قلتُ هذا روحُ اللَّه يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء فدخلني من ذلك عُجْبٌ. فقال له عيسى عليه السلام: لقد وَضَعْتَ نفسكَ في غير الموضع الذي وضعكَ اللَّهُ فيه فمقتَكَ اللَّهُ على ما قلتَ، فتُبْ إلى اللَّه عزوجل ممّا قلتَ. قال: فتابَ الرَّجُلُ وعاد إلى مرْتَبَتِه التي وَضعه اللَّه فيها، فاتَّقوا اللَّه ولا يَحْسُدَنَّ بعضُكم بعضاً»[٣٩].

ومن رحمة ولطف الله تعالى بعباده أنّه يحرمهم من أمور؛ لأجل أن ينبّههم ويوقظهم من سباتهم الذي قد يوقعهم في أمراض خبيثة كالعجب. فقد ورد عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله -في حديث طويل محل الشاهد منه-: «**وإنّ من عبادي المؤمنين لمَن يجتهد في عبادتي، فيقوم من رقاده ولذيذ وساده فيَتهجَّد لي الليالي فيُتعِب نفسه في عبادتي، فأضربه بالنّعاس الليلة والليلتين نظرًا منّي إليه وإبقاءً (أي شفقة) عليه، فينام حتى يُصبح فيقوم وهو ماقتٌ لنفسه زارئٌ عليها، ولو أُخلِّي بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله العجب من ذلك فَيُصَيِّره العجب إلى الفتنة بأعماله فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكُه لِعُجبه بأعماله ورضاه عن نفسه حتى يظن أنه قد فاق العابدين وجاز في عبادته حد التقصير، فيتباعد منّي عند ذلك، وهو يظن أنّه يتقرب إليَّ... فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تَسَمَّيتُ**»[٤٠].

تنبيه: قد يجد العبد من نفسه نوع راحة وأنس وابتهاج نفساني حينما يأتي بعمل صالح، فما ذلك إلا بُرد الطاعة لله تعالى قد تجلّى أثرها في نفسه، فحينئذٍ الحذار الحذار من الوقوع في مصيدة الشيطان وحبائله، بل عليك أن تشكر الله

وتحمده على ما وفقك إليه من طاعة، فهذا التوفيق هو منه ﷻ لا منك، فقد قال تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[41]. وحتى لا تكون ممّن قال عنهم تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ولِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾[42].

علاج النفس من هذه الآفة المرضية:

أولاً: وهو الأساس بأن يتعرّف العبد على حقيقة نفسه، فإذا توصّل إلى أنّه عبد مملوك حقير مسكين مستكين لا حول له ولا قوة، وأنّ ما مِن شيء حسن صدر منه إلا بتوفيق من الله سبحانه، فأنّى له أن يعجب بعمله؟!

ثانياً: على العبد أن ينظر دائماً ويتأمّل في حياة الأعاظم ممّن هم أرقى منه عبادة، وورعاً؛ حتى يرى نفسه صغيراً أمامهم عاجز عن أن يقدّم الشيء القليل ممّا قدّموا.

وبذلك ندخل في خاتمة هذا البحث في ذكر نماذج عبادية، يحق لنا الاقتداء بها والتأمّل في عبادتها؛ لنستصغر أعمالنا وأنفسنا.

خاتمة في ذكر نموذج عبادي

من يقوى على عبادة علي عليه السلام؟!

رُوي عن سعيد بن كُلْثوم قال: كنتُ عند الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فَذَكَرَ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأطراه ومدحه بما هو أهله ثُمَّ قال: «**واللَّه ما أَكل عليُّ بن أبي طالب عليه السلام من الدُّنيا حراماً قَطُّ، حتَّى مضى لِسبيله، وما عُرِض له أمران قطُّ هما لِلَّه رضًى، إلا أَخذ بأشدِّهما عليه في دينه، وما نزلتْ برسول اللَّه صلى الله عليه وآله نازِلةٌ قَطُّ إلا دَعاهُ فَقدَّمَه ثقةً به، وما أطاق عمل رسول اللَّه صلى الله عليه وآله مِن هذه الأُمَّة غَيره،**

وإن كان لَيَعْمل عَمل رجل كان وجهه بين الجَنَّة والنار يَرجُو ثواب هذه ويخاف عقاب هذه. ولَقد أَعْتَق مِن مالِه ألف مملوكٍ في طلب وجه اللَّه والنجاة مِن النار ممَّا كَدَّ بيَدَيه ورَشَح منه جَبينُه، وإنْ كان لَيَقُوتُ أهله بالزَّيت والخَلِّ والْعَجْوة وما كان لِباسُه إلا الكَرَابِيسَ إِذَا فَضَلَ شيءٌ عَن يَده مِن كُمِّهِ دعا بِالْجُلَمِ[٤٣] فَقَصَّهُ وما أشبهه مِن وُلده ولا أَهل بَيْته أَحدٌ أقرب شبهاً به في لباسه وفقهه مِن علي بن الحسين عليه السلام ولقد دخل أبو جعفرٍ ابْنُه عليه السلام عليه، فإذا هو قد بَلَغَ مِن العبادة ما لم يَبْلُغْه أحدٌ فرآه قد اصفَرَّ لَونه مِن السَّهَر ورَمِصَتْ عَيْناه مِن البكاء ودَبِرَتْ جبهته وانْخرم أَنْفه مِن السُّجود ووَرِمَتْ ساقاه وقَدماه من القيام في الصَّلاة، فقال أبو جعفر عليه السلام: فلم أَملك حين رأيتُه بتلك الحال البكاء فبكيتُ رحمَةً له وإذا هو يفكِّر فالتفتَ إليَّ بعد هُنَيهةٍ مِن دخولي فقال: يا بُنَيَّ أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن أبي طالب عليه السلام فأعطَيْتُه فقرأ فيها شيئاً يسيراً ثُمَّ تركها مِن يَده تضجُّراً وقال مَن يَقْوَى على عبادة عليّ عليه السلام»[٤٤] فبعد عبادة علي عليه السلام مَن يجرؤ علىٰ أن يعجب بعبادته ويستعظمها؟!

فنسأل الله عزوجل أن يرزقنا الإخلاص في عبادته، وينزّهنا عن الشرك والرياء والعجب، إنّه علىٰ كل شيء قدير والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) سورة الحج: ١٨.

(٣) الجوهري، الصحاح، ج٢، ص٥٠٣.

(٤) فيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ج٢، ص٣٨٩.

(٥) أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٢٠٥.

(٦) النائيني، المكاسب، ج١، ص٨١.

(٧) النجفي، جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ج٢، ص٨٦.

(٨) البحراني، الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، ج٢، ص٧٧.

(٩) سورة السجدة: ١٦.

(١٠) سورة الأنبياء: ٩٠.

(١١) الكليني، الكافي (ط - الإسلامية)، ج٢، ص٨٧.

(١٢) المصدر السابق.

(١٣) الكليني، الكافي (ط - الإسلامية)، ج٦، ص٨.

(١٤) الكليني، الكافي (ط - الإسلامية)، ج٣، ص٤٧٣.

(١٥) الكليني، الكافي، ج٢، ص٨٤.

(١٦) الصدوق، علل الشرائع، ج١، ص١٢.

(١٧) المجلسي، بحار الأنوار، ج٨١، ص٣٤٦.

(١٨) السيد محمد سعيد الحكيم، مصباح المنهاج، ج٢، ص٥٢٤. (بتصرف)

(١٩) سورة الليل: ١٩.

(٢٠) السيد الرضي، نهج البلاغة، ص٤٤٩.

(٢١) ابن أبي جمهور الإحسائي، عوالي اللئالي، ج٢، ص١١.

(٢٢) السيد اليزدي، العروة الوثقىٰ، ج١، ص٦١٤.

(٢٣) الشيخ محمد أمين زين الدين، كلمة التقوىٰ، ج١، ص٣٨١.

(٢٤) الكليني، الكافي، ج٢، ص٨٤.

(٢٥) السيد اليزدي، العروة الوثقىٰ(المحشىٰ)، ج١، ص٤٠٦، ط.جامعة المدرسين.

(٢٦) السيد اليزدي، العروة الوثقىٰ مع تعليقة السيد السيستاني، ج١، ص١٨٠، هامش٦١٧، دار المؤرخ العربي، الطبعة الثالثة (بتصرف).

(٢٧) الشهيد الأول، ذكرىٰ الشيعة في أحكام الشريعة، ج٢، ص١٠٤.

(٢٨) السيد الإمام الخميني، الأربعون حديثاً، ص٤٦.

(٢٩) الكليني، الكافي، ج٢، ص٢٩٥، ط. دار الكتب الإسلامية.

(٣٠) الكليني، الكافي، ج٢، ص٢٩٣، ط. دار الكتب الإسلامية.

(٣١) الصدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص٢٥٥.

(٣٢) الشهيد الثاني، رسائل الشهيد الثاني، ص١٤٩، الطبعة القديمة.

(٣٣) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٢٤٣.

(٣٤) السيد روح الله الخميني، الأربعون حديثاً، ص٨٩، دار زين العابدين، الطبعة الرابعة.

(٣٥) الكليني، الكافي، ج٣، ص٧٦٢.

(٣٦) السيد روح الله الخميني، الأربعون حديثاً، ص٩٠، دار زين العابدين.

(٣٧) البُرْنس: كلّ ثوب رأسُه منه ملتزق به، درّاعة كان أو مِمْطراً أو جبّةً. وقيل: قلنسوة طويلة وكان النسّاك يلبسونها في صدر الإسلام. ترتيب كتاب العين، ج١، ص٨٠. لسان العرب، ج٦، ص٢٦ (برنس).

(٣٨) الشيخ الكليني، الكافي، ج٣، ص٧٦٤.

(٣٩) الكليني، الكافي (ط - الإسلامية)، ج٢، ص٣٠٦.

(٤٠) الكليني، الكافي (ط - الإسلامية)، ج٢، ص٦٠.

(٤١) سورة يونس: ٥٧.

(٤٢) سورة الكهف: ١٠٣.

(٤٣) الجلم: «الذي يجزّ به الشعر والصوف، كالمقص» مجمع البحرين- جلم- ٦: ٣٠.

(٤٤) الشيخ المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج٢، ص١٤٢.

العفة في الآيات والروايات

الشيخ حسين عبدالله الأعرج

المقدّمة

نواجه في المجتمع اليوم تحدّيات كبيرة وثقيلة، ومنها الهجوم على عفّة المسلم ومحاولة جرّها نحو المحرّمات بغية تدنيسها وتلويثها، وهذا له صور واضحة في الموادّ الإعلاميّة والثقافيّة والاجتماعيّة لدى أعداء الإسلام والدّين، فَهُم يشنّون حرباً ناعمة على عقول وأخلاق المؤمنين والمؤمنات، فتراهم يبثّون التحلّل الأخلاقي ويقنّنون الفحشاء والرذيلة، ويضعون الحماية لأصحاب الإفساد في الأرض[1].

ولذا شددتُ العزم والهمّة على انتخاب عنوان (العفّة) لهذا البحث المتواضع، وأردت من ذلك عرض الرؤى القرآنيّة والروائيّة المرتبطة بالعفّة والعفاف، حتى أضيف الأصالة إلى مبدأ العفّة؛ لأنّ كتاب الله عزّ وجلّ هو الهادي لكلّ شيء، وكلام المعصوم عليه السلام هو يرافق القرآن في الحجيّة والنورانيّة.

وحتى أضع الخريطة كاملة آليت على نفسي أن أوضّح معنى العفّة أولاً، ومن ثم أستخرج الوسائل الموصلة والمُورثة للعفّة، وبعدها أعرض الآثار الحاصلة نتيجة التعفّف، وهذا له الدور في توعية الشباب والشابات عن العفّة بصورة جليّة ترغيباً

لهم في السعي لاكتسابها والحفاظ عليها وصيانتها من عبث الأعداء بها.

السؤال الأساسي للبحث:

ما هي رؤية القرآن والسنة للعفَّة؟

الأسئلة الفرعية:

- ما هو مفهوم العفّة في اللغة والاصطلاح؟
- ما العوامل المساعدة علىٰ نيل العفة؟
- ما هي الآثار الناتجة من تحصيل العفّة؟

تمهيد

قبل الخوض في تفاصيل هذا البحث المرتبط بآيات القرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام، نذكر المعنى المقصود من العفَّة، وهذا تمَّ بحثه في القواميس والمعاجم اللغويَّة والاصطلاحيَّة، وهذا التمهيد له دور وأهميَّة في رسم المبادئ التصوريّة عن البحث لدىٰ القارئ الكريم.

العفَّة في اللغة:

يذكر صاحب كتاب العين بأنّ العِفَّة هي "**الكفّ عمَّا لا يحلّ**"[٢]، والعفَّة مأخوذة من مادّة (ع ف ف). كقولهم عفَّ عن الشّيء يعفّ عفّة.

وأمّا في معجم مقاييس اللغة فقد ذكر صاحبه: "**(العين) و(الفاء) أصلان صحيحان: أحدُهما الكفُّ عن القبيح، والآخر دالٌّ على قلّة شيء. فالأوّل: العِفَّـة [بكسر العين]: الكفُّ عمّا لا ينبغى، والأصل الثانى: العُفَّـة [بضم العين]: بقيّة اللّبن فى الضَّرع**"[٣].

العفَّة في الاصطلاح:

أورد الراغب الأصفهاني أنّ العِفَّة: "**هى حصول حالة للنّفس تـمتنع بها عن غلبة الشّهوة، والْمُتَعَفِّفُ: المتعاطى لذلک بضرب من الممارسة والقهر، والاستِعْفَافُ: طلب العفَّة**"(٤).

بينما نجد أنّ العلامة حسن المصطفوي قام بتحقيق معنى العفَّة وقال: "**هى حفظ النَّفس عن تمايلاته وشهواته النَّفسانيّة، فَالْعَفُّ يتعلَّق بما يكون فى النَّفس**"(٥).

عوامل العفَّة على ضوء الآيات والروايات

العفّة مثل أيّ خلُق وفضيلة فإنّ لها طرقاً تعين علىٰ اكتسابها والتحلّي بها، وتوجد وسائل إذا أخذ بها السالك أوجَد في نفسه العفَّة، وهذا البحث يتكئ علىٰ ضوء الآيات والروايات فكان من المناسب تدبّر القرآن والأحاديث لاستخراج واستنباط العوامل التي تؤدّي إلى العفَّة.

الأول: الاستعاذة بالله عزّوجلّ من الشيطان

الاستعاذة عبارة عن طلب اللجوء إلىٰ الله عزّوجلّ لنيل العون والحماية من وساوس الشيطان وأعماله القبيحة، ونجد في الآية التالية أنّ السيدة مريم عليها السلام عندما احتجبت عن القوم لكي تضع المولود رأت بشراً فخافت من أنْ يؤذيها لوحدها وهي طاهرة عفيفة، فاستعاذت بالرحمن ولجأت إليه.

قال تعالىٰ: ﴿**فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا**﴾(٦).

الثاني: الاستعانة بالله عزّوجلّ

ذكر صاحب تفسير الأمثل(٧) أنّ نساء مصر قمن بترغيب النبي يوسف عليه السلام

من امرأة العزيز، وذلك ليُفتنّ النبي عليه السلام ويقع في حبّها ومعصية الربّ عزوجل، ولكن يوسف عليه السلام استعان بربّه ليحفظ عفّته وقال: إذا لم تصرف عنّي كيد النساء أقع في ما لا يرضيك، فاستجاب له ربّه وصرف عنه كيدهنّ.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ... * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[8].

الثالث: الإيمان بالله عزوجل

بعد دعوة زليخا النبي يوسف عليه السلام للمعصية استعاذ بالله عزوجل وقال إنّ ربّي أحسن تربيتي وإكرامي ومنزلتي، وهذا الاستذكار عبارة عن إيمان في قلب يوسف عليه السلام بحيث ما إن عُرضت عليه المعصية تجلّىٰ إيمانه واعتقاده بالله عزوجل وتذكّر تربية ربّه له، فالإيمان بالربوبيَّة أعانه وأبقىٰ عفَّته.

قال تعالىٰ: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[9].

الرابع: التقوىٰ

التقوىٰ تعني حفظ الشَّيء عن الخلاف والعصيان في الخارج وفي مقام العمل[10]، وبين العفّة والتقوىٰ علاقة وثيقة، ونلاحظ أنّ السيدة مريم عليها السلام لما استعاذت بالله عزوجل كان ذلك نتيجة خوفها أن يكون ذلك الرجل الذي ظهر لها سيئاً ويريد أن يؤذيها، فمن لا يتقي ربّه يعصي وأما المتقي يتعفَّف.

قال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[11].

وهذا المعنى نجده في قول الإمام علي عليه السلام: «**إنّ الأتقياء كلُّ سخيّ متعفف محسن**»[12]، ومفاده أنّ الأتقياء يتفرّع علىٰ تقواهم العفّة وغيرها.

الخامس: الستر والحجاب

عند وجود حاجة أو مسألة بين رجل وامرأة أجنبيّة عنه، فإنّ إسدال الحاجب وإنزال الساتر له أن يُبقي الطَّهارة والعفاف ويسدّ منفذ الشيطان، وهذا يجعل القلوب في حالة أطهر مما لو تقابل الرجلُ مع المرأة وجهاً لوجه، فإنّ البصر سهم فمن الممكن أن يغتال الناظر ويخدش من عفّته.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[١٣].

السادس: رحمة الله عزّ وجلّ

نلاحظ في الآية التالية اعتراف النبي يوسف عليه السلام بالرحمة الإلهية التي أنقذته وصانت عفَّته، حيث يقول عليه السلام إنّ النَّفس تأمر بالسوء وتدعو الإنسان إلى المعصية، ولكن مَن ينصره الله عزّ وجلّ علىٰ النفس يجعل عفّته هي السلطان علىٰ أهواء النفس الشهوانيّة.

قال تعالىٰ: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ... وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١٤].

السابع: رؤية برهان الله عزّ وجلّ

(لولا) حرف شرط يدلّ علىٰ امتناع شيء لوجود غيره، وفي قصة النبي يوسف عليه السلام يُذكر في الآية أنّه فكّر في الحرام لولا أن رأىٰ البرهان، يعني امتنع عصيانُ يوسف عليه السلام لوجود البرهان، والبرهان هو نور من الإيمان وخشية الله[١٥]، فرؤية البرهان كان العامل الأصلي لعفَّة النبي يوسف عليه السلام.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ

السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[١٦].

الثامن: الغيرة المحمودة

الغيرة تعلُّق شديد بشخص الحبيب مع الخوف من ميله لآخر، ونرىٰ في كلام أمير الفصحاء الإمام علي عليه السلام المقياس لعفّة الإنسان، وذلك بقياسها بالغيرة ومقدار حجمها، فمن يغار غيرة حميدة علىٰ أهله يتعامل مع الأجنبيّة بكلّ عفّة ولا يسمح لشهوته بالعبث خارج إطار ما رسمه الشَّرع.

الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «**قذر الرجل على قذر همّته... وعفّته على قذر غيرته**»[١٧]، وقال أيضاً عليه السلام: «**ما زنا غيور قطّ**»[١٨]

التاسع: تأمين الحاجات الجنسيَّة بالزواج

الزواج من سنن الرسول صلى الله عليه وآله وفيه يقضي الإنسان غريزته وفق ما قرَّره الشَّارع له، وقد حثّ دين الإسلام علىٰ رعاية الحقوق الزوجيَّة كثيراً، بل شدَّد وغلَّظ علىٰ ذلك مريداً إغلاق أي متنفَّس لشهوة الحرام، وهذه الرواية لها دلالة بتلبية رغبة الزوج الجنسيَّة والسعي لإشباعها ليُحصن الزوج عفَّتُه.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول الله! ما حق الزوج على المرأة... وتعرِض نفسها عليه غدوةً وعشيّةً**»[١٩].

العاشر: تجمُّل وتزيُّن الزوجة والزوج

التزيّن والتجمّل وظيفة متبادلة بين الزوجَين لصنع الانجذاب ومتعة البصر والارتياح النفسي بينهما، ومن المستحبّات هو التنظّف والتَّهيئة للآخر فيما بين الزوجَين، وثمرة ذلك واقعيّة جداً؛ لأنّ الكون بهيئة جميلة يثبّت العفَّة ويرفعها في النَّفس، وذلك لا ينحصر بعمر الشباب بل حتى المشيب.

- عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**لا ينبغي للمرأة أن تعطّل نفسها ولو في عنقها قلادة ولا ينبغي أن تدع يدها من الخضاب ولو تمسحهما مسحاً بالحنّاء وإن كانت مسنّة**»[٢٠]
- قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**عفُّوا تَعِفَّ نساؤكم، إنّ بني فلان زنوا فزنت نساؤهم**»[٢١]
- عن الحسن بن جهم قال: «**رأيت أبا الحسن عليه السلام اختضبَ فقلت: جُعِلت فداك اختضبتَ؟ فقال: نعم، إنّ التهيئة مما يزيد في عفّة النساء**»[٢٢]

الحادي عشر: الحياء

الحياء هو انقباض النَّفس عن القبائح[٢٣]، والفحشاء والمنكرات المتعلّقة بالشَّهوة قبائح عظيمة، والمستحِي يستقبح الرذائل والدنايا.

وكلام المعصومين يذكر صراحةً أنَّ الحياء عامل في تكوين العفَّة والعفاف، وانقباض النفس (الحياء) يُصنَع بمجاهدة أهواء النفس حتى يُرىٰ القبيح مذلّة ليُنفر عنه.

عن الإمام علي عليه السلام: «**الحياء يصدّ عن فعل القبيح**»[٢٤]، و«**على قدر الحياء العفّة**»[٢٥]، و«**سبب العفّة الحياء**»[٢٦].

الثاني عشر: الصبر عن الشّهوة

نقصد من هذا أنَّ الإنسان عندما يتحمّل ويحبس نفسه عن مصادفة المكروه، فهو بذلك يرقىٰ ويسمو لمرتبة العفّة، والشَّهوة عبارة عن اشتياق النفس وشدة ميلها للملذّات، وهي لها أوقات تستعر وتشتدّ فيها، ومن يريد أن يبقىٰ علىٰ الطَّاعة يصبّر نفسه ويتكلّفها عن الوقوع في المعصية بالعفاف.

عن الإمام علي عليه السلام: «**الصّبر عن الشهوة عفّة**»[٢٧].

الثالث عشر: الاقتناع بالكفاف

الكفاف هو ما يكون بقدر الحاجة إليه من غير فضل وزيادة، وفي حياتنا الدنيا الكثير من الملهيات والمشتهيات المتنوعة، والإنسان الساعي للكفاف والرضا والاقتناع بما يكفيه يعني أنّه يسير نحو التعفُّف والتحرّز من السقوط في أمر محظور أو مشبوه، ومَن يطلق لنفسه العنان في تقبّل كل ما يُلهي ويُشهّي فإنَّه يدع نفسَه معرضةً للمخاطر والمخالفات الشرعيَّة.

قال الإمام علي عليه السلام: «**مَنِ اقْتَنَعَ بِالْكَفَافِ أَدَّاهُ إِلَى الْعَفَافِ**»[٢٨]، وقال أيضاً «**الرِّضَا بِالْكَفَافِ يُؤَدِّي إِلَى الْعَفَافِ**»[٢٩].

آثار العفَّة على ضوء الآيات والروايات

عند الإمساك بالعفة والقيام بلوازمها فإنّ ذلك ينعكس على الإنسان من الناحية المادية والمعنوية، وفي القرآن والسنّة آثار متعددة موجودة في الآيات والروايات ومنها:

الأول: الاعتدال الجنسيّ

العفّة والطَّهارة باعثة على الاعتدال في المسائل الجنسيّة، والمحافِظ على فَرْجه من التلوّث والانحراف لا يتجاوز الضّوابط الشّرعية، فالمتعدّي هو الظالم والمتجاوز إلى ما لا يحلّ، والآية هنا تصفه بـ(العادُون)[٣٠]، فالعفّة وتوظيف الشهوة في الحلال تجعل الرغبة الجنسيّة معتدلة وصحيّة.

قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**﴾[٣١].

الثاني: الاستفادة من فضل الله عزّ وجلّ

أَمَرَ الله عزّ وجلّ غير القادر على الزواج -لغلاء التكاليف مثلاً- بالاستعفاف إلى أن

يستغني ويستطيع، والنكتة اللطيفة في الآية أنّ بعد الأمر بالاستعفاف يُنتظر الاستغناء من الله عَزَّوَجَلَّ لا من غيره، فهذا يُعتبر كالجائزة الممنوحة لمن يتعفّف ويمتنع عن الذنوب حال ما يكون أعزب.

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾[٣٢].

الثالث: النزاهة والبعد عن السوء

العفة تبعث على الصيانة والنزاهة من الاتهام بالخبث ومن الكلام الخبيث، والخبث يسوق إلى الدناءة وعدم العفّة، ونرى في الآية القادمة إيجادها المناسبة بين الخبيث والخبيثة من جهة، وبين الطيّب والطيّبة من جهة أخرى، وأضافت وقالت إنّ الطيّبين والطيّبات (الذين يتحلّون بالعفّة) ساحتهم مبرّأة وخالية مما يقوله الخُبَثاء من فحش الكلام وقبيحه، فمن ثمار العفّة الاتصاف بالنزاهة.

قال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٣٣].

الرابع: جواز الزواج بالكتابيّة

حَكَم الفقهاء بجواز الزواج من الكتابيّة[٣٤]، ومن الأدلة المستند إليها هو الآية التالية، وعند التدقيق في الآية نجد أنّها وضعت قيداً للكتابيَّة وهو كونها مُحصنة أي عَفيفة[٣٥]، وعليه نستنتج أهميّة العفّة حتى في الارتباط بغير المُسلمة، فقَيد العفّة كان عنواناً داخلاً في مسألة جواز الزواج من الكتابيَّة.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[٣٦].

الخامس: حصول الخير في الدنيا والآخرة[٣٧]

العجائز والنساء الكبيرات اللاتي لا يتوقّعن أن يتزوّجن بعد وهم في سنّ

الشيخوخة قد سمح لهن الشارع وفسح لهن المجال قليلاً في مسألة الحجاب، فلهنّ أن يتخلّين عن اللباس الفوقاني شيئاً ما من غير تبرّج، ولكن مع هذا الاستثناء لهم فإنّ الاستعفاف أفضل لهنّ؛ لأنّ فيه الخير والصلاح.

قال تعالىٰ: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٣٨]

وأيضاً نرىٰ نفس المضمون في الرواية: عن الإمام علي عليه السلام: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْراً أَلْهَمَهُ الْقَنَاعَةَ فَاكْتَفَى بِالْكَفَافِ وَاكْتَسَى بِالْعَفَافِ**»[٣٩]

السادس: الفلاح والنجاح

الفلاح هو البقاء علىٰ الخير والنجاة من الشرور وإدراك الصلاح، وفي القرآن عدَّد الله عزّ وجلّ مجموعة من الصفات التي يتميّز بها المؤمنون، ومنها (حفظ الفرج)، فالمؤمن الذي يفلح وينجح هو من يصون فرْجَه عن الفساد والتلوّث بالحرام، فثمرة حفظ الفَرْج هو الفلاح والبقاء والاستمرار عليه.

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ... وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[٤٠].

السابع: الحماية والصون من التحرُّش والأذىٰ

من الواضح أنّ المرأة التي تتستّر بالجلباب وتمتنع من كشف جسدها فإنّها بذلك تجعل عفّتها محفوظة، والأمور الغريزية لديها مصونة وفي أمان من التحرّش، ونجد في الآية خطاباً للنبي صلى الله عليه وآله بأن يأمر بناته ونساءه برعاية ارتداء الجلباب خوفاً من معرفتهن من قبل الآخرين وأذيّتهم لهنّ، وطبعاً الخطاب يتجاوز إلىٰ كل النساء المسلمات بأن يحفظوا الحجاب الشَّرعي الكامل.

قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.[٤١]

الثامن: استحقاق المغفرة والرزق الكريم والأجر العظيم

من يقوم بطاعة ربّه عزّوجلّ ينال الإكرام من الله عزّوجلّ، والمتعفّفون والمتعفّفات خُصّص لهم المغفرة والصفح الإلهي، وأيضاً يكونوا في عناية خاصّة من قبل الله عزّوجلّ من ناحية الرزق، فيحصلوا على كريم الرزق والأجر استحقاقاً لهم لمجاهدتهم لأنفسهم ومحافظتهم على عفافهم.

- قال تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ... لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.[٤٢]

- قال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.[٤٣]

التاسع: تضعيف الشَّهوة وحفظ عفّة الزوجة

من الوسائل التي تعمل على تضعيف الشهوة وتنظيمها على الخط الصحيح هو العفّة، بحيث من يشعل شهوته ويثيرها على الأهواء وبالشكل العشوائي يشعر بالارتباك، ويرى أنّ غريزته مسيطرة عليه من كل جانب، بل ويجد أثر دناءته مع نساء الناس في أهله والمقرّبين منه.

عن الإمام علي عليه السلام: «**العفّة تُضعِف الشهوة**»[٤٤]، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «**عِفُّوا عن نساء النّاس تَعِفَّ نساؤكم**»[٤٥].

العاشر: صيانة النفس وتنزيهها عن الدنايا

من يتحرّك في الحياة ويعيش وهمّه الأول شهواته ونزواته ورغباته نجده مأسوراً للأضرار المعنوية والمادية، ومن يضبط نفسه عن طريق العفاف والحشمة يجد من نفسه الالتزام والانتظام في أموره الحياتيّة، بل ويدفع بنفسه عن الأضرار ويحفظها في مكان أمين من الشرور والمخاطر.

الإمام علي عليه السلام: «**العفاف يصون النّفس وينزّهها عن الدّنايا**»[٤٦]، «**ثمرة العفّة الصيانة**»[٤٧].

الحادي عشر: رجحان العقل والعقلانيّة

ومن الأمور التي تتركها العفّةُ على المتّصف بها هو التعقّل ورشد التفكير، وفي حقيقة الأمر نجد الواقعية لهذا الكلام، فإن المنغمس في شهوات الحرام يصغر عقله ويتحجّم، ويحس بتفاهة تفكيره وأفكاره، ولعله هذا أثر تكويني، ومن يرجّح كفة العفّة يكمُل عقله ويسمو نحو الرشاد والصلاح.

عن الإمام علي عليه السلام: «**يُستدلّ على عقل الرجل بالتحلّي بالعفّة**»[٤٨].

الثاني عشر: محالفة العزّة

العزّة عبارة عن قدرة وقوة داخلية في نفس الإنسان يمتنع بها عن قبول الإذلال والمذلّة، والعزة حقّ من حقوق المؤمن كما صرّح القرآن[٤٩] بذلك، ومن الأسباب التي تورث وتنتج العزّة هو العفّة؛ لأنّ الطاعة لا يكون معها إلا قوّة، والمعصية لا يكون معها إلا ذلّة، وكم من معصية أورثت ذلّة.

قال الإمام علي عليه السلام: «**من أُتحف العفّة والقناعة حالفه العِزّ**»[٥٠].

ومن خلال قراءة الروايات وجدنا آثاراً أكثر مما ذكر في هذا البحث، ولكن بسبب قصر هذا البحث نحيل القارئ لمراجعة المصدر[٥١] للاطلاع عليها والاستفادة والاستزادة من نور كلام أهل البيت عليهم السلام، ولكن لا بأس بذكر العناوين فقط للآثار الأخرى للعفة وهي:

(القناعة)، (زكاة الأعمال)، (الغنى وعدم الفاقة)، (الورع)، (زينة وحلية الإنسان)، (نيل محبّة الله عزّ وجلّ)، (ستر العيوب)، (خفّة المؤونة)، (تقوية وتدعيم الإيمان).

الخاتمة

في نهاية البحث اتّضحت لنا الأهميّة الموضوعة للعفة في الآيات والروايات، ولاحظنا التأكيد والحث المتكرّر علىٰ اكتساب العفّة وعدم تركها أبداً؛ لأنّ فيها النجاة في الدنيا والآخرة.

وعلىٰ هذا وبعد العرض الكامل للعوامل والآثار تجلّىٰ لنا كيفية ارتباط العفة بالنفس الإنسانية للفرد والمجتمع، وكيفية علاقتها بالروح والمعنويات، وأيضاً ثمارها علىٰ الجسد وصحيفة الأعمال، وبهذا يتبيّن تشعّب العفة والعفاف في جميع نواحي الحياة، وذلك باعتبار أنّ العفة مرتبطة بشهوة، والشهوة غريزة مدسوسة في الفطرة، والفطرة باقية علىٰ الدوام.

وعلىٰ هذا الأساس يتحتّم علىٰ الخبير والإنسان الواعي أن يديم المراقبة والمحاسبة لنفسه، ويتفحّص الخلل من سلوكه وأفعاله حتى يسدّه بما يناسبه ولا يترك مساحة معرضة لغزو الشيطان وهجومه علىٰ العفة والعفاف.

ومن التوصيات أن يأخذ القرآن والحديث مكانهما اللائق بهما في حياة البشرية من أجل إرساء الروافد المعنوية الراقية من كلام الله عزّوجلّ وكلام المعصومين عليهم السلام بشكل أوسع.

وأيضاً نرىٰ من اللازم التأكيد علىٰ علو الإنسانية ورفعة شأنها وهذا من شأنه أن تحصل البصيرة والوعي الكافي لدىٰ الناس حتى يحصّنوا أنفسهم من الشرور والإغراءات الشيطانية.

وأملنا أن نكون في عناية الله عزّوجلّ في الليل والنهار بحق محمد وآل محمد.

والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(١) عن الإمام علي عليه السلام: «صَارَ الْفُسُوقُ فِي الدُّنْيَا نَسَباً وَالْعَفَافُ عَجَباً». التميمىٰ الآمدىٰ، عبد

الواحد بن محمد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، ص:٥٠٣، ح ١٠٦٠٠.

(٢) الفراهيدى، الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ)، كتاب العين، ج١، ص٩٢.

(٣) ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٣.

(٤) الراغب الأصفهانى، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، ص٥٧٣.

(٥) المصطفوى، حسن، التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، ج٨، ص٢١٩.

(٦) سورة مريم: ١٧- ١٨.

(٧) مكارم الشيرازى، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص٢٠٠.

(٨) سورة يوسف: ٢٩ و ٣٠ و ٣٣ .

(٩) سورة يوسف: ٢٣.

(١٠) المصطفوى، حسن، التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، ج١٣، ص٢٠٢ .

(١١) سورة مريم: ١٨.

(١٢) التميمى الآمدى، عبد الواحد بن محمد، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، ص٢٧٣، ح ٥٩٨٨.

(١٣) سورة الأحزاب: ٥٣.

(١٤) سورة يوسف: ٥١ و ٥٣.

(١٥) انظر: مكارم الشيرازى، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٧، ص١٨٢.

(١٦) سورة يوسف: ٢٤.

(١٧) ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٨،ص١٧٥.

(١٨) التميمى الآمدى، عبد الواحد بن محمد، تصنيف غرر الحكم و درر الكلم، ص٢٥٩، ح ٥٥٣٤.

(١٩) الكلينى، محمد بن يعقوب، الكافي (ط - الإسلامية)، ج٥، ص٥٠٨.

(٢٠) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي (ط - الإسلامية)، ج٥، ص٥٠٩.

(٢١) الطبرسي، حسن بن فضل، مكارم الأخلاق، ص٢٣٨.

(٢٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي (ط - الإسلامية)،ج٥، ص٥٦٧.

(٢٣) انظر: الراغب الأصفهانى، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٧٠.

(٢٤) التميمي الآمدى، عبد الواحد بن محمد، تصنيف غرر الحكم و درر الكلم، ص٢٥٧، ح

٥٤٥٤ .

(٢٥) الليثىٔ الواسطىٔ، علي بن محمد، عيون الحكم و المواعظ (الليثي)، ص٣٢٧، ح٥٦١٣.

(٢٦) المصدر نفسه، ص٢٨٢، ح ٥٠٨١.

(٢٧) المصدر نفسه، ص٥٨، ح١٤٧٣.

(٢٨) التميمىٔ الآمدىٔ، عبد الواحد بن محمد، تصنيف غرر الحكم و درر الكلم، ص٣٩٣، ح ٩٠٧١.

(٢٩) الليثىٔ الواسطىٔ، علىٔ بن محمد، عيون الحكم و المواعظ (الليثي)، ص٢٧، ح ٣٤٣.

(٣٠) انظر: الطبرسىٔ، فضل بن حسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٧، ص١٥٨ .

(٣١) سورة المعارج: ٢٩- ٣١.

(٣٢) سورة النور : ٣٣.

(٣٣) سورة النور: ٢٦.

(٣٤) انظر: المكارم شيرازىٔ، ناصر، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، ص٦٠٧.

(٣٥) «وسئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزوجل والمحصنات من النساء، قال هنّ ذوات الأزواج. قلت: والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، قال: هنّ العفائف». ابن بابويه، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٤٣٧، ح٤٥١٢.

(٣٦) سورة المائدة: ٥.

(٣٧) «أَرْبَعٌ مَنْ أُعْطِيَهُنَّ فَقَدْ أُعْطِيَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ صِدْقُ حَدِيثٍ وَأَدَاءُ أَمَانَةٍ وَعِفَّةُ بَطْنٍ وَحُسْنُ خُلُقٍ». التميمي الآمدىٔ، عبد الواحد بن محمد، تصنيف غرر الحكم و درر الكلم، ص٢١٧، ح٤٢٨٢.

(٣٨) سورة النور: ٦٠ .

(٣٩) التميمي الآمدىٔ، عبد الواحد بن محمد، تصنيف غرر الحكم و درر الكلم، ص٣٩٣، ح٨٩٨٨.

(٤٠) سورة المؤمنون: ١ و٥.

(٤١) سورة الأحزاب: ٥٩.

(٤٢) سورة النور: ٢٦.

(٤٣) سورة الأحزاب: ٣٥.

(٤٤) التميمىٔ آمدىٔ، عبد الواحد بن محمد، تصنيف غرر الحكم و درر الكلم، ص٢٥٦،

ح٥٤٢١.

(٤٥) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي (ط - الإسلامية)، ج٥، ص٥٥٤ .

(٤٦) التميمىٰ الآمدىٰ، عبد الواحد بن محمد، تصنيف غرر الحكم و درر الكلم، ص٢٥٦، ح٥٤٢٠.

(٤٧) المصدر نفسه، ص٢٥٦، ح ٥٤٢٣.

(٤٨) المصدر نفسه، ص٢٥٦، ح ٥٤١٩.

(٤٩) قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ سورة المنافقون: ٨.

(٥٠) التميمىٰ الآمدىٰ، عبد الواحد بن محمد، تصنيف غرر الحكم و درر الكلم، ص٣٩٢، ح٩٠٢٥.

(٥١) المصدر نفسه، ص٢٥٥.

الطفل والتربية الروحية

الشيخ عباس على الصائغ

مقدمة

لا يخفى ما للأسرة من أهمية كبيرة في بناء أيّ مجتمع إنساني، لأنّ الأسرة تعتبر هي اللّبنة الأولى في بناء المجتمع، وهي التي تغذّي المجتمع بكلّ مؤسّساته ومراكزه، فلا شك في أنّ الأسرة ترفد المجتمع بما تحمله من أفكار وثقافة، وتفرض عليه ما تفرضه من عطاءات ونتائج تربيتها، وما عليه واقع العلاقات في داخلها من حسن وقبح، وخير وشر، وصلاح وفساد[1].

ومن الواضح أنّ تربية الأسرة تربية صالحة لها انعكاساتها على المجتمع بشكل كبير، فبصلاح الأسرة يصلح المجتمع، وبفسادها يفسد المجتمع. من هنا أولى الإسلام أهمية كبيرة بالأسرة وتربيتها، وبيّن حقوق كلّ فردٍ من أفرادها، وصاغَ دستوراً تربويّاً يُقَوِّمُ العلاقات داخل الأسرة الواحدة، فبيَّن حقوق الزّوجة على زوجها، وحقوق الزّوج على زوجته، وحقوق الوالدين على الأولاد، وحقوق الأولاد على الوالدين، وأعطى للأسرة منهجاً أخلاقيّاً لتسير عليه.

من هنا أحببت أن أتطرّق في هذا البحث إلى التربية الروحية بالنسبة للأسرة،

وبالخصوص تربية الأطفال؛ لما لهذا البحث من أهمية كبيرة، وأريد أن أبيّن كم أنّ للإسلام نظرة واسعة ودقيقة في هذا المجال، فإنّه وإن كان العلماء منذ القدم قد قاموا بإبراز ما جاء به الإسلام من قيم عالية تنمّي سلوك الفرد شخصياً واجتماعياً، فوُضعت الروايات والأحاديث الأخلاقية تحت مجهر العلماء الربانيين وكوّنوا أبحاثاً ودراسات عميقة تقوم بدورها بتربية الإنسان علمياً وعملياً في الجانب التربوي الروحي، إلا أنّ الملاحظ علىٰ هذه الدراسات والأبحاث أنها ركّزت علىٰ جانب تربية وتزكية النفس بالنسبة لنفس الشخص؛ وذلك لأهمية هذا الأمر كما هو واضح. ولكن ممّا يلفت الانتباه أنّ مكتباتنا الإسلامية لا يوجد فيها إلا القليل من الأبحاث التي تتطرّق إلىٰ تربية الأسرة والأطفال روحياً، ككتاب (تربية الأولاد في الإسلام)[٢]، و(موسوعة أحكام الأطفال وأدلتها)، وككتاب (أخلاق ناصري) للمحقق نصير الدين الطوسي، وهو لا يتعمّق كثيراً في هذا الجانب، فهو غير كافٍ في هذا المجال، فعالم الأسرة والأطفال عالم واسع وفيه تحديّات ومسؤوليات كبيرة ملقاة علىٰ ربّ الأسرة، فلا بدّ من تطوير هذه الأبحاث، وتعميق الدراسة فيها، والغور في بحار علوم أهل البيت عليهم السلام لاستخراج كل ما هو نافع في هذا المجال.

نحن لا نجد في العالم الإسلامي دراسات استقرائية لبعض النماذج من الأسر المسلمة في كيفية التعامل مع الأسرة والأطفال، وطرق التربية، وحلّ المشاكل، ولذا تجد أغلب القرّاء في هذا الجانب يعمدون لقراءة ما هو مطروح من دراسات أسريّة في دول الغرب، والتي هي بعيدة كل البعد عن ثقافة مجتمعاتنا وأسرنا، وهذا وإن كان الاطّلاع عليها نافعاً ومفيداً إلا أنه لا يلامس واقع أسرنا ومجتمعاتنا.

ولا شك بأنّ كل زوج وكل أبٍ يتراوده هاجس تربية الأولاد، لأنّ إنشاء الأسرة الصالحة يعتبر تحدّياً كبيراً بالنسبة له، فدائماً ما يجول في خاطره هذا السؤال: **كيف أربي أطفالي تربية صحيحة صالحة؟**

ومن هنا نحاول التطرّق إلى أهم الأمور المتعلقة بهذا الجانب.

معنى التربية

مفهوم التربية مفهوم واسع ذو مدلولات كثيرة يشمل تربية الفرد، وتربية الأسرة، وتربية المجتمع، وتربية الإنسانيّة كلّها، وتحت كلّ صنف من هذه الأصناف تتفرّع أنواع، وتندرج أقسام، وكذا كانت للتربية طرق وأساليب مختلفة، وكلّها تهدف إلى إقامة المجتمع الفاضل وإيجاد الأمّة المثلى، وما تربية الأولاد إلاّ فرع من تربية الفرد الذي يسعى الإسلام إلى إعداده وتكوينه ليصبح عضواً نافعاً في المجتمع، وإنساناً صالحاً في حياته الدنيويّة والأُخرويّة[٣].

التربية لغةً: مشتقة من (ربا) بمعنى (زاد) و(نمى) و(ربّيتُ فلاناً أُربّيه تربيةً... بمعنى واحد)[٤].

وهكذا تشتق التربية من الربّ الذي يطلق على المالك والسيّد والمدبّر، فيكون المعنى القيام بأمر الطفل على وجهٍ حسن[٥]. وجاء بهذا المعنى في الكتاب العزيز في قوله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾[٦]، ومعناه: "**ادع لهما بالمغفرة والرحمة فى حياتهما جزاءً لتربيتهما إيـاك فى صباك**"[٧].

وتعريف التربية عند علماء التربية يمكن استخلاصه من عدّة تعريفات بما حاصله: هي عملية يُقصد بها تنمية وتطوير قدرات ومهارات الأفراد من أجل مواجهة متطلبات الحياة بأوجهها المختلفة، أو هي عملية بناء شخصية الأفراد بناءً شاملاً كي يستطيعوا التعامل مع كل ما يحيط بهم، أو التأقلم والتكيّف مع البيئة التي يعيشون بها، وتكون التربية للفرد والمجتمع[٨].

التربية في اصطلاح الفقهاء: يبدو أنّه لا يوجد فرق واختلاف في المعنى الاصطلاحي عمّا هو في اللغة، والشاهد على ذلك هو تعبير الفقهاء عن المرأة التي

تقوم بشؤون الطفل من إرضاعه ونظافته وغير ذلك بـ(المربية).

قال في التذكرة: "**المربية للصبى إذا لم يكن لها إلا ثوب واحد أجزأها غسله فى اليوم مرةً واحدة -إلى أن قال:- الظاهر مشاركة المربى للصبى للمربية؛ إذ لا مدخل للأنوثة هنا**"[٩].

ومن ذلك تعريفهم للحضانة بأنّها تربيةٌ للطفل، مع أنّ الحضانة في الحقيقة مرحلة من مراحل تربية الطفل، والمعنى اللغوي يشملها.

قال في الرياض: "**هى -أي الحضانة- ولاية على الطفل والمجنون؛ لفائدة تربيته وما يتعلّق بها من مصلحته: من حفظه، وجعله فى سريره ورفعه، وكحله، ودهنه، وتنظيفه ...**"[١٠].

حكم الشرع في تربية الأطفال وتعليمهم

من الواضح أنّ الطفل يكتسب التعاليم في بداياته من الأبوين، ولذا ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «**كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، فأبَوَاهُ يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه**»[١١]، ولا شك في أنّ هناك أموراً اهتمّ بها الإسلام بحيث لا يرضى بتفويتها كربط الابن بالإيمان بالله عزّ وجلّ وبالرسول صلى الله عليه وآله وبالعقائد الحقّة، وتربيته على الفضائل، واجتناب الرذائل والمحرّمات. فما هو حكم الشارع في هذه الأمور؟

آراء الفقهاء في وجوب التربية:

مما يجدر بالذكر أنّ الفقهاء لم يتعرّضوا إلى مسائل التربية والتعليم بشكل مستوعب وفي باب واحد، ويمكن استفادة الوجوب من بعض كلماتهم في أبواب مختلفة.

قال الشيخ الطوسي في الخلاف: "**على الأبوين أن يؤدّبا الولد إذا بلغ سبع سنين أو ثمانياً، وعلى وليّه أن يعلّمه الصوم والصلاة**"[١٢].

قال العلامة الحلّي في نهاية الإحكام: "**فيجب على الآباء والأمهات تعليمهم** -أي الأطفال- **الطهارة والصلاة والشرائع بعد السبع**"[١٣].

قال السيد الخوئي في صراط النجاة: "**ينبغى على الأب تعليم أولاده الأحكام الشرعية والوظائف الدينية من الواجبات والمحرّمات**"، وعلّق عليه الشيخ التبريزي: "**بل لا يبعد الوجوب إذا تركوا الواجبات وفعلوا المحرّمات بسبب ترك التعليم. نعم، لا فرق فى التعليم بين المباشرة والتسبيب**"[١٤].

إذاً هذه جملة من كلمات فقهائنا العظام حول حكم التربية والتعليم، ومن الواضح أنّ وجوب تعليم الأولاد ما يمنعهم عمّا أوعد الله تعالىٰ عليه النار كالشرك واجتناب المعاصي لا يتحقق غرضه إلا من خلال التربية الإيمانية والأخلاقية والعقلية، قال تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾[١٥].

وأما آراء الفقهاء في الموارد التي يستحب تربية الطفل وتعليمه فيها، فكثيرة في كلماتهم، كتمرينه لأداء الصلاة والصوم والأذان، وحضور الجمعة والجماعة، وتسبيح الزهراء عليها السلام، وإحجاجه، وتعليمه القرآن، وغير ذلك[١٦].

صفات المربي الناجح

كلّ عامل في مؤسسةٍ من المؤسسات لكي يكون مؤثّراً وناجحاً لا بدّ من أن يتوفّر علىٰ شروط وصفات معيّنة تؤهّله للعمل بصورة صحيحة وناجحة، كذلك العامل في مؤسسة الأسرة -الذي هو المربّي- لا بدّ من أن يتوفّر علىٰ شروط وصفات تؤهّله لأن يكون ناجحاً في عمله وفي تربيته لأولاده، فلا بدّ من الاطّلاع علىٰ هذه الشروط ومحاولة الحصول والتوفّر عليها، ونحن هنا نذكر أهمّها:

الصفة الأولى: الإخلاص والتقوى

لا بدّ للإنسان أن يكون في كلّ أعماله مخلصاً لله ﷻ؛ حتى يحظى بالعناية الإلهية والتسديد الربّاني، وبالتالي إذا أخلص نيّته في تربية أولاده، ونوى أن يؤهّل جنوداً لله ﷻ وأهل بيته عليهم السلام، فإنّ الله تعالى لن يخيّب مسعاه حين يلتزم بالضوابط الإسلامية في التربية، قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾[١٧].

وكذلك التقوى هي ممّا يجب أن يتوفّر عليه المربّي الناجح، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[١٨]، وعن الأمير عليه السلام: «**التّقى رئيس الأخلاق**»[١٩]، فالتقوى كما تشير الآية هي شرط في قبول الأعمال، ثم إنّه من حقّ التقوى أن تكون رئيس الأخلاق؛ لأهميتها في طريق السلوك إلى الله ﷻ.

والتقوى في اللُّغة جاءت بمعنى الحماية والحفظ والمِنْعَة والحذر، وهي كما عرّفها الشيخ الطوسي: "**التقوى خصلة من الطاعة يُحترز بها من استحقاق العقوبة**"[٢٠]، وكما عرّفها الشهيد الثاني: "**التقوى امتثال أوامر الله تعالى وترك نواهيه**"[٢١].

الصفة الثانية: العلم

لا شك في أنّ من أساسيات نجاح كلّ عمل أن يكون هنالك إلمام وعلم بتفاصيل ذلك العمل، فكذا المربّي لكي يكون ناجحاً عليه أن يكون على علم بأساسيات التربية الإسلامية الصحيحة، وأن يكون ملمّاً بأحكام التربية الشرعية، وآدابها وقواعدها، وإلا عاد جاهلاً في أساسيات ومبادئ التربية، وهذا ما سيؤدّي إلى انعكاسه على الولد نفسه، فإذا كان أساس التربية ليس متيناً فإنّ النتيجة لن تكون مرضيةً دائماً.

قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[٢٢]، فلا نستوحش

من الإكثار من القراءة والمطالعة في هذا الجانب[٢٣]، وكذلك ينبغي الاستفادة من البرامج الإلكترونية واستماع المحاضرات التربوية المفيدة، فمن كان هدفه عالياً عليه أن يجاهد في سبيل تحقيق هذا الهدف.

الصفة الثالثة: الحلم

من الصفات المهمة التي يجب أن يتوفّر عليها المربّي الناجح هي صفة الحلم وكظم الغيظ والاتّزان في ردّات الفعل؛ فهي صفة مهمة وضرورية يتم من خلالها السيطرة على الطفل؛ إذ الطفل عندما يجد هذه الصفة في مربّيه فإنّه ينجذب إليه ويستجيب لأقواله، وهذا أمر في غاية الأهمية، لأنّه لن يتحقق غرض المربّي إذا كان الطفل لا يستجيب ولا يتفاعل معه.

قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢٤].

الصفة الرابعة: حسّ المسؤولية

لا بدّ من أن يستشعر المربّي بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، وتأخذ من شعوره ووجدانه الحجم الكافي، فإنّ من مسؤوليات المربّي إعداد الجيل الصالح إيمانياً وسلوكياً، وتكوينه جسمياً وعقلياً، وإعداده فكرياً واجتماعياً. فهذا الإحساس إذا حصل فإنّه يدفعه إلى الجدّية في التعامل مع التربية الصحيحة، وعدم الغفلة عن الولد في كل فترات نشأته، وتسديد الولد وإرشاده وحمايته وغير ذلك.

ما هو المطلوب أن يكتسبه الطفل من خلال التربية؟

بعد اتّضاح أهم صفات المربّي الناجح، لا بدّ من أن يضع الإنسان له خطةً عملية يصل من خلالها إلى هدفه السامي، ولا يكتفي بالعشوائية في مسيرته التربوية، لأنّ العمل العشوائي لا يكون منتجاً غالباً وإن كان الهدف واضحاً ومحدّداً،

إذ وضوح الهدف والرؤية لا تعني الوصول إليه، بل لا بدّ من سلوك المسار الصحيح للوصول إليه. وعليه ينبغي أن يكون هذا السؤال حاضراً مع المربّي في عملية التخطيط وهو: (**ما هو المطلوب أن يكتسبه الطفل من خلال التربية؟**)؛ حتى يتمكّن المربّي من السعي إلى إيجادها في الطفل.

ونذكر هنا باختصار أهمّ الأمور التي ينبغي للولد التوفّر عليها من خلال التربية:

الأمر الأول: العقائد الحقّة

إنّ من أوائل الأمور التي أمر الإسلام بها حين ولادة الطفل هو الأذان في الأذن اليمنى للمولود، والإقامة في الأذن اليسرى، وبذلك يكون أول ما يتلقّنه الطفل حين ولادته هو الشهادة بوحدانية الله تعالى، وبنبوة النبي صلى الله عليه وآله، وبإمامة أمير المؤمنين عليه السلام.

ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**من ولد له مولود فليؤذّن في أذنه اليمنى بأذان الصلاة، وليقم في اليسرى، فإنها عصمة من الشيطان الرجيم**»[٢٥].

فلا بدّ من أن يسعى الإنسان إلى تعليم الطفل العقائد الحقّة الصحيحة من أصول الدين، حتى يكون الولد بعدئذٍ مطمئن القلب، محتمياً بما لديه من معلومات عن كل ما يمكن أن يزلزل عقيدته ويؤدّي إلى انحرافه.

الأمر الثاني: الأخلاق الفاضلة

ونعني بالأخلاق الفاضلة هي تلك المنظومة السلوكية الموصلة إلى السعادة، والتي بها يتكامل الإنسان، والتي تكون ناشئة من العقيدة السليمة؛ إذ الإنسان عندما يكون اعتقاده صحيحاً ومتيناً فإنّ هذا الاعتقاد لا محالة ينعكس على سلوكه.

فمثلاً عندما يعتقد الإنسان أنّ الله تعالى هو الرازق والمدبّر، فإنّ هذا الاعتقاد

ينعكس على سلوكه العملي؛ فتراه ينفق أمواله في البرّ، ولا يخشى الفقر والحاجة، وأما لو بخل بأمواله فهذا يكشف عن وهنٍ في اعتقاده.

ولذا لا بدّ للمربّي بعد أن يغرس العقائد الحقة في قلب الولد، أن يحاول تعزيز هذه العقائد عملياً وسلوكياً من خلال التأكيد على الأخلاق الفاضلة وربطها دائماً بالعقائد والصفات الإلهية؛ حتى تكون هذه الأخلاق ملكة راسخة عند الولد، كالحلم والصبر، والصدق والأمانة، والكرم والإنفاق في الخير، وبرّ الوالدين واحترام الآخرين، وصلة الأرحام ومساعدة الناس، وغير ذلك.

ولا يخفى عليكم أنّ من شروط التحلّي بالأخلاق الفاضلة هو (التخلّي عن الرذائل والأخلاق الذميمة)؛ حتى يكون القلب صافياً مستعداً لتلقّي الفيوضات الإلهية. ولا شك ولا ريب في أنّه لا يوجد أصفى وأنقى من قلب الطفل، فهو سليم الفطرة، له أهلية تلقّي الأخلاق الفاضلة والتحلّي بها بشكل أكبر، فاسعَ جاهداً أن تغرس فيه هذه الأمور منذ نعومة أظفاره، وقبل أن يتلوّث بكدورات الرذائل والذنوب، فإنّه في هذه الفترة في أَوْج الاستعداد لتلقّي هذه الأمور.

الأمر الثالث: الفكر السليم

تواجه الإنسان في مسيرة حياته العديد من الأفكار ومن شتى الناس، منها السليم ومنها السقيم، وهذا ممّا قد يسلب الإنسان صحة وسلامة تفكيره، إلا إذا تسلّح بسلاح العلم، فبالعلم يستطيع الإنسان أن يواجه تلك الأفكار الدخيلة على الإسلام، بل ويستطيع أن يفكّر ويطرح نظريات فكريّة ناشئة من صميم الإسلام.

فكلّ مربٍّ عندما يكون هدفه إعداد جيلٍ واعٍ ومثقف، ينبغي أن يساعد الطفل في طرح الأفكار السليمة، وإبعاده عن الأفكار السقيمة، فلا بدّ عليه من أن لا يُغفل جانب التعليم وإعطاء الطفل فرصة التفكير الصحيح، وإرشاده إلى الكتب والمجلات الصالحة في بناء الفكر السليم.

الأمر الرابع: الشخصية المتّزنة

من الواضح أنّ الإنسان في جلّ حياته يتعامل مع الناس والمجتمع، والمربّي لكي يُخرِّج إنساناً يُحسن التعامل مع الناس فعليه أن يعزّز روح الثقة في نفس الطفل من خلال الممارسات السلوكية والعملية، فيعطيه فرصة التحدّث، ويحاول أن يستشيره في بعض الأمور، وأن يثني علىٰ اختياراته، وإلىٰ غير ذلك، وبالتالي تكون شخصية الطفل متّزنة أمام الناس، شخصية غير متطرفة، وغير منعزلة.

الأمر الخامس: المسؤولية والحسّ الاجتماعي

ينبغي علىٰ المربّي أن يضفي روح المسؤولية والحسّ الاجتماعي علىٰ الطفل، فلا ينبغي أن يكون الطفل فاقداً للمسؤولية بحيث يكون مستخفّاً بالأمور ومستهيناً في تأدية واجباته ومسؤولياته.

ولا بدّ من أنّ يتوقّد عنده الحسّ الاجتماعي، فيسعىٰ في صلاح المجتمع، ولا يرضىٰ بضعفه، بحيث يتحمّل مسؤولية بناء المجتمع والوطن بعدئذٍ، وهذا يحصل من خلال حثّه علىٰ صلاة الجماعة، وانخراطه في برامج التعليم الديني، وغير ذلك.

الأمر السادس: الجسم السليم

لعلّ الكثير من المربّين يُغفل جانب الصحة البدنية بالنسبة للطفل، مع أنّها من الأمور المهمة والأساسية التي تنمّي ذهن الطفل ونفسيته، وتجعله أكثر تقبّلاً للأمور التربوية والروحية.

ولا أعني بذلك أخذ الطفل في يومٍ أو يومين خلال الشهر إلىٰ المنتجع أو الحديقة للتسلية وكفىٰ، فإنّ ذلك جيّد في حدّ نفسه، ولكنه غير كافٍ في تقوية البنية البدنية لدىٰ الطفل التي بها تقوىٰ ذهنيته وقابليته الفكرية، بل أعني عمل برنامج صحي ورياضي وفق منهج صحيح وتحت إشراف المختصين بهذا الشأن، وبهذا نكون قد

تجاوزنا مشاكل عديدة قد تطرأ على الطفل، كالاضطراب النفسي والنوم غير المنتظم، والكسل والخمول، وانتقلنا إلى مرحلة السكون النفسي والتوقّد الذهني، والنشاط والحيوية.

هذه هي أهم الأمور التي ينبغي للمربّي أن يسعى لإيجادها لدى الطفل من خلال عمليته التربوية، وأن يضعها تحت نظره، ويفكّر ويبحث عن طرق توصيلها للطفل.

من هنا يأتي السؤال التالي: **(كيف أوصل هذه الأمور إلى الطفل وأربّيه عليها؟)**.

أساليب التربية

نستطيع أن نذكر جملة من الأساليب المؤثّرة والتي يمكن من خلالها أن تُسهّل على المربّي عملية التربية، ومن خلالها يستطيع تغذية الطفل روحيّاً ومعنويّاً، وليس من الجيّد للمربّي أن يجهل أو يتجاهل هذه الأساليب؛ لأنّه قد يسلك أساليب غير صحيحة في التربية لا تؤدّي إلى المطلوب، فعن أبي عبدالله عليه السلام: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر ممّا يصلح**»[٢٦].

وقبل الكلام عن أساليب التربية لا بدّ من التنبيه على أمر مهم وهو: أنّ الأساليب الآتية ينبغي أن يُراعى فيها سنّ الطفل واحتياجاته، فليست كل الأساليب صالحة في كل مرحلة من مراحل الطفولة، فقد قسّم أئمتنا عليهم السلام هذه المراحل إلى أقسام، نذكر منها:

عن أبي عبدالله عليه السلام: «**الغلام يلعب سبع سنين، ويتعلّم الكتاب سبع سنين، ويتعلّم الحلال والحرام سبع سنين**»[٢٧].

عن النبي صلى الله عليه وآله: «**الولد سيّد سبع سنين، وعبد سبع سنين، ووزير سبع سنين، فإن رضيت خلائقه لإحدى وعشرين سنة، وإلا ضرب على جنبيه فقد أعذرت إلى**

الله»[٢٨].

نعود الآن لذكر أساليب التربية المؤثّرة:

الأسلوب الأول: التربية بإحياء شخصية الطفل

من أهم العوامل التي تساهم في تربية الطفل سلوكيّاً وروحيّاً هو إحياء وبناء شخصية الطفل، وهي مسؤولية كبيرة ملقاة على عاتق الأبوين والمربّين، فمن ترعرع في أسرة تعامله بالاحتقار وعدم الاهتمام وعدم الاحترام فإنّه لا يستطيع في المستقبل أن يبدي اتّزان شخصيته، ولا يستطيع الاعتماد على نفسه.

من هنا لا بدّ من بيان عوامل إحياء شخصية الطفل بشكل مختصر:

أ- تسمية الطفل باسم حسن:

عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله ما حق ابني هذا؟ قال: تحسّن اسمه، وأدبه، وضعه موضعاً حسناً**»[٢٩].

إنّ للاسم أثر عجيب في بناء شخصية الإنسان، ولذا نجد من يكون اسمه جميلاً أو ينتمي إلى عائلة ذات اسم جميل يفتخر بذلك ويرتاح لذكره، بخلاف ما لو كان اسمه قبيحاً أو غريباً فنجد أنه يخجل من ذكره.

ب- احترام الطفل وحبّه:

عن النبي صلى الله عليه وآله: «**أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم**»[٣٠].

يعتبر احترام الطفل وتكريمه من أهم العوامل المؤثّرة في بناء شخصية الطفل، حيث إنّ الطفل إذا وجد مربّيه يُفيض عليه الاحترام والحب فإنّه سيبادله ذلك الاحترام والحب بدرجة أكبر، وبالتالي سيكون مأسوراً لذلك الحب، بحيث تسهل على المربّي إنفاذ كلماته ونصائحه إليه.

عن أبي عبدالله عليه السلام: «**قال موسى بن عمران عليه السلام: يا ربّ أيّ الأعمال أفضل عندك؟ فقال: حبّ الأطفال؛ فإنّي فطرتهم على توحيدي، فإن أمتّهم أدخلتهم جنّتي**»[٣١].

ت- الملاطفة والترحّم بالطفل:

عن النبي صلى الله عليه وآله: «**وقّروا كباركم وارحموا صغاركم**»[٣٢].

لا بدّ للمربّين أن يتفهّموا طبيعة خلقة الطفل، فهو كائن صغير ضعيف، يحتاج إلى العطف والحنان، فإذا لم يجد من يسدّ هذه الحاجة في أسرته فإنّه سوف يلجأ إلى أطراف أخرى محاولاً سدَّ هذه الحاجة، ولا يُعلم من هي تلك الأطراف، فقد يجرّه القدر إلى أطراف صالحة، وقد يجرّه إلى عكس ذلك، فلماذا لا نقطع جذور الشرّ من أوّلها، ونحاول أن نغيّر من سلوكياتنا تجاه الأطفال، ونفيض عليهم ما يحتاجونه من الحبّ والحنان؟!

كيف أفيض على أولادي الحب والحنان؟

١- تقبيل الأطفال بكثرة، فقد ورد في مكارم الأخلاق: «**كان النبي صلى الله عليه وآله يقبّل الحسن والحسين وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إنّ لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال: من لا يرحم لا يُرحم**»[٣٣].

٢- إدخال السرور على الأطفال، فقد ورد عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور، فإنّ من فرّح ابنته فكأنّما أعتق رقبة من ولد إسماعيل، ومن أقرّ بعين ابن فكأنما بكى من خشية الله، ومن بكى من خشية الله أدخله جنّات النعيم**»[٣٤].

٣- التوسعة على العيال، فعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**أرضاكم عند الله**

أسبغكم -أوسعكم- على عياله»[٣٥].

ولكن ينبغي الالتفات إلى عدم الإفراط في محبّة الأطفال، بمعنى إفاضة الدلال الزائد عليهم؛ لأنّه سيؤدّي إلى عكس النتيجة المرجوّة، وسيكون عاملاً على التمرّد والإلحاح في طلب أمور قد لا تكون في صالحهم، ويورّث في الطفل صفة العجب واستبداد الرأي، ولذا حذّر الأئمة عليهم السلام عن الإفراط في محبّة الأولاد.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «**شرّ الآباء من دعاه البرّ إلى الإفراط، وشرّ الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق**»[٣٦].

ث- حث الطفل على السؤال، فلا بدّ من أن يفسح المربّون المجال للطفل بالسؤال والكلام، وأن لا يُجيبوا إلا بعد انتهاء سؤالهم، ثم ليحاولوا أن تكون أجوبتهم تامة ومتقنة[٣٧]، فهذا الأسلوب يُنمّي أفكار الطفل ويجعله أكثر ثقة بنفسه.

ج-فنّ الاستماع، فينبغي للمربّي أن يصغي لحديث الطفل ويُبدي له الاهتمام، وبهذا يستطيع الطفل أن يتكلم ويتحدّث بكل ما لديه، وهذا ممّا يجعله يكتس مهارة فنّ الاستماع إلى الآخرين أيضاً، وبه تنمو شخصيته.

الأسلوب الثاني: التربية بالقدوة والأسوة الحسنة

من الضّروريّ أن يتّخذ الإنسان لنفسه قدوةً صالحةً تسير به نحو الكمال، فمتى ما وَجَدَ من نفسه قد مالَت عن الجادّة والطّريق الصّحيحين رجع إلى قدوته لتصحّح له أمره، وتنير له الطّريق من جديد، فهي بمثابة صمّام أمان عن كلّ ما يعتري الإنسان من فتنٍ وأهواءٍ وغيرها، ولذلك جعل الله عزّ وجلّ رجاء رحمته ورجاء الفوز والسّعادة في اليوم الآخر معلّقٌ على اتّخاذ القدوة الصّالحة في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً**﴾[٣٨]؛ لأنّ القدوة الصالحة تضمَن للإنسان عدم انحرافه، ولأنّها هي التي تقوده إلى الطّريق والهدف الصّحيحين والكمال الحقيقيّ.

ولذا ينبغي للمربّي أن يكون قدوة صالحة للطفل، بل وينبغي أن يربط الطفل بشخصية كبيرة مؤثّرة بحيث تكون هي أيضاً بمثابة القدوة والمثل الأعلىٰ للطفل، حتى يتأثر به وينجذب إليه، ويتخلّق بخلقه وسلوكياته.

الأسلوب الثالث: التربية عن طريق التكرار والعادة:

إنّ الأطفال لهم قابلية التعلّم بشكل أكبر من الكبار، ولذا فإنّ الشيء الذي لم يكونوا معتادين عليه فإنّه من خلال التكرار يصبح أمراً معتاداً، فالصدق عند تكراره يصير أمراً معتاداً كما أنّ الكذب كذلك، فالتربية من خلال العادة تعتبر من أركز دعائم التربية؛ إذ هذه العادة ستظل مصاحبة للطفل في أغلب فترات حياته. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**للعادة على كل إنسان سلطان**»[٣٩].

الأسلوب الرابع: التربية عن طريق الموعظة

الموعظة عبارة عن الوصية بالتقوىٰ، والحثّ علىٰ الطاعات، والتحذير من المعاصي والاغترار بالدنيا وزخارفها، والوعظ: النصح والتذكير بالعواقب[٤٠].

لو تتّبع الإنسان القرآن الكريم لوجد أنّه مليء بأساليب الوعظ في الدعوة إلىٰ الدِّين الإلهي، قال تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ**﴾[٤١]؛ فالموعظة الحسنة لها الأثر الكبير في نفس المتلقّي، ولكن شريطة أن تكون بالكيفية المناسبة، بأن يعظه سرّاً، ويبتعد عن الخشونة والغلظة بأن تكون الموعظة مع اللّين واللطف، وعدم التصريح بالفعل، وأن تكون الموعظة واضحة سهلة الفهم، لا ثقيلة يصعب فهمها.

ولنا في هذا الطريق والمنهج أن نتّخذ لقمان الحكيم قدوة، فمواعظه لابنه ما زالت تُبحَث وتُدرس؛ لما لها من قوّة التأثير، ولما فيها من الحكم الثمينة، قال تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[٤٢].

تلاحظ أنّه ابتدأ في وعظه بأعظم المسائل الاعتقادية وهي التوحيد؛ لأنّ أساس التربية والتزكية الروحية مرتكز على التوحيد وإخلاص العقيدة.

الأسلوب الخامس: التربية عن طريق التشويق

يعتبر أسلوب التشويق من العوامل المؤثّرة والدافعة نحو النشاط والجدّ، فينبغي على المربّين أن يتّخذوا هذا الأسلوب في أثناء تربيتهم للأبناء، وحثّهم على الطاعة وعدم المعصية عن طريق ذكر أمور فيها تشويق كالجنّة وما فيها من خيرات، بل حتى ترغيبهم بأمور مادية؛ فإنّ الطفل يستأنس بهذه الأمور وإن كانت بسيطة، ثم عليه أن يمدح عمل الطفل بعد إنجازه، وأن لا يخلف وعده له.

والمتأمّل في آيات القرآن الكريم يجد الكثير من الآيات التي فيها تشويق وترغيب، كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٤٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾[٤٤].

ولكن ينبغي أيضاً الالتفات إلى أنّ الإفراط في التشويق له انعكاساته السلبية، لأنّ كثرته قد توجب التملّق والملل.

الأسلوب السادس: التربية عن طريق القصة

تعتبر القصة من العوامل الجذّابة للطفل، فالطفل ينشدّ للقصة أكثر من غيرها؛ لما فيها من إثارات وتشويق وخيال، فلا مناص للمربّي من أن ينتهج أسلوب القصة محاولاً تصوير أحداث النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بأسلوب شيّق وجذّاب، وكذا يسرد له قصص العلماء والصالحين؛ فإنّ لهذا الأمر أثر كبير في نفوس الأطفال. وما أكثر

القصص الموجودة في القرآن التي تجعل القارئ وكأنّه يعيش في تلك الأزمان.

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ الأطفال الصغار -عادةً- لا يميّزون بين الواقع والخيال، ممّا يجعلهم يصدّقون كلّ ما يُقال لهم من قصص، وهذا ممّا يفرض علينا أن لا نتعاطى مع القصص -خصوصاً الدينية منها- بالكثير من الخيال.

ثم إنّه لا ينبغي استعمال الأسلوب القصصي الذي فيه وعظٌ ثقيلُ المعنى، بحيث يصعب على الطفل تلقّيه واستيعابه، بل لا بدّ من استخدام الأسلوب السهل الشيّق.

الأسلوب السابع: التربية بالملاحظة

والمقصود بالتربية بالملاحظة هو ملازمة الطفل ومراقبته في الإعداد العقائدي والأخلاقي والنفسي والاجتماعي والعلمي والصحي، والاستمرار في السؤال عنه، وعدم إهماله، فإن وَجد منه خيراً شجّعه وأكرمه، وإن وَجد منه شرّاً أو تقصيراً نهاه عنه.

فالولد إذا أحسّ بالرقابة فإنّه تلقائياً تجده يسلك السلوك الصحيح ويبتعد عن السلوكيات الخاطئة، وقد حضّ الإسلام على ملازمة الأهل والأولاد ووقايتهم، فقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾[٤٥]، فكيف يقي المربّي أطفاله إذا لم يراقبهم ويلاحظهم ويرشدهم؟!

الأسلوب الثامن: التربية بالعقوبة

هذا الأسلوب هو ممّا تُغفله أغلب الكتب التربوية، بل تعدّه بعض المناهج والدراسات من الأساليب المتخلّفة، فهل هذا الأسلوب صحيح في نظر الإسلام أو لا؟

نقول: لا تخلو دولة من الدول من وجود عقوبات على من يخالف الأنظمة والقوانين، فالعقوبة هي العلاج الحاسم لمعالجة الشعوب وتصحيح أخطائها، وإلا

فلولا العقوبات لكثر الهرج والمرج، فإذاً العقوبات أمر عقلائي وراجح لحفظ الشعوب والمجتمعات، وليس لأحد إنكار أهمية هذا الأمر العقلائي.

وبالنسبة إلى تربية الأطفال فالأمر كذلك، فقد جعل الإسلام من هذا الأسلوب آخر طريق لعلاج انحراف الأطفال، فلا بدّ للمربّي أن يسلك كل السبل في محاولة إصلاح وتقويم اعوجاج الطفل وتهذيبه، فإن لم ينفع كل ذلك فعليه أن يسلك طريق العقوبة كحلّ، فلا بأس لأن يلجأ المربّي إلى طريق التأديب حفظاً للطفل نفسه، فهذا أمر راجح وعقلائي، ولكن مع ملاحظة التدرّج في التأديب وملاحظ سنّ الطفل وطبيعته، فبعض الأطفال تكفي معهم النظرة العابسة، وبعضهم يحتاج إلى التوبيخ، وبعضهم يحتاج إلى الحرمان من أمرٍ ما، وبعضهم يحتاج إلى الضرب المؤدِّب، وهكذا.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**دع ابنك يلعب سبع سنين، ويؤدّب سبع سنين، والزمه نفسك سبع سنين، فإن أفلح وإلا فلا خير فيه**»(٤٦).

ولكن ينبغي الالتفات إلى حكم الشرع في مسألة التأديب والضرب، حيث ذكر الفقهاء عدّة ضوابط في مشروعية التأديب بهذا النحو لا ينبغي تغافلها، نذكرها استلهاماً من استفتاءات الفقهاء:

أولاً: أن يتوقّف التأديب على الضرب، وأن يكون بداعي التأديب والتقويم لا بداعي التشفي والانتقام.

ثانياً: أن يكون المباشر في التأديب بالضرب هو الولي، فليس للأم ولا المعلّم أن يؤدّب الصبي إلا بإذن ولي الأمر.

ثالثاً: أن لا تزيد الضربات عن ثلاث (وهو أحوط الأقوال).

رابعاً: أن لا تُخلِّف احمراراً أو اخضراراً أو اسوداداً.

خامساً: أن يكون سنّ الصبي دون سنّ البلوغ، وإلا لزم أخذ الإذن من الحاكم الشرعي[٤٧].

أمور عامة ينبغي الابتعاد عنها أثناء التربية

١- تلقين الطفل معلومات خاطئة:

ينبغي على المربّين السعي في التعلّم على جميع الأصعدة، العقائدية والأخلاقية والفقهية؛ حتى لا يُلقّنوا أولادهم معلومات خاطئة ينشؤون معها ويكبرون عليها.

٢- التشدّد في إلزام الأولاد جميع الوظائف الدينية:

قد يسبّب حرص الوالدين على امتثال أولادهم الواجبات الدينية والتدقيق عليها ابتعاد الأولاد عن الأجواء الدينية، فالطفل قد يشعر بالضيق حيال هذه التصرفات المتشدّدة، فلا بدّ -بدلاً من ذلك- من تنمية روح الأنس بالله تعالى بالأسلوب اللّين اللطيف والكلام العذب؛ حتى يأتي بالواجبات عن رغبة، فإنّ هذا الأسلوب أكبر وقعاً في نفوسهم.

عن يونس بن رباط عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**رحم الله من أعان ولده على برّه. قال: قلتُ: كيف يُعينه على برّه؟ قال: يقبل ميسوره، ويتجاوز عن معسوره، ولا يُرهِقه، ولا يَخرَق به...**»[٤٨].

٣- التعقيدات الزائدة:

بعض المربّين يلجؤون إلى طرح أمور لا حاجة ملزمة لها في حياة الطفل؛ بحجّة تعليم الطفل بأنّ الدين أمر مقدّس، غير واعين بأنّ هذه الأمور قد تشكّل تعقيدات للطفل لعلها تجعله يبتعد عن الأمور الدينية في المستقبل.

٤- إهمال احتياجات الطفل الفطرية:

يُلاحظ أنّ بعض المربّين يعيشون حالة الإفراط في التركيز على الجانب المعنوي

للطفل، متناسين أو متغافلين احتياجات الطفل وميولاته إلىٰ الحركة واللعب التي تقتضيها مرحلة الطفولة، فالأفضل هو خلق التوازن بينهما، فلا إفراط ولا تفريط، فينبغي أن نلبّي للطفل حاجاته الطفولية مع تطعيمها بالروح المعنوية.

مشاكل تربوية وكيفية علاجها

الآن نأتي إلىٰ بيان أهم المشاكل والعقبات التي قد تواجه المربّي أثناء تربيته للأولاد، ونحاول أن نسلّط الضوء علىٰ أهمّ الأسباب في ذلك؛ حتى نستطيع تفاديها، ومن ثمّ نذكر بعض العلاجات لهذه المشاكل؛ حتى أنّه علىٰ فرض حصولها نكون علىٰ إلمام بكيفية التعامل معها.

أولاً: المشاكل العقائدية

قد تواجه المربّي أثناء تربيته للأولاد مشاكل عقائدية ناتجة عن المحيط التي يعيش فيه الولد، مع انتشار الكتب والقنوات الإعلامية الإلحادية بشتى أنواع وسائل التواصل الاجتماعي، فالابن الذي يدفعه والده إلىٰ المدارس الأجنبية غير الإسلامية والتبشيرية فإنّه بلا شك سوف يتأثّر بأفكارهم وثقافاتهم، والابن الذي تركه والده يشاهد ما يشاء في شاشات التلفاز، ويقرأ ما يشاء من كتب الضلال فإنّه بلا شك يتأثّر بأفكار ضلال، والأب الذي يترك ابنه يصادق من يشاء ويرخي له العنان ليرتبط مع أصحاب الأفكار الضالة كالعلمانيين والحداثويين وغيرهم فإنّه بلا شك سوف يتأثّر بهم، وقد تنطلي عليه بعض الشبهات العقائدية.

من هنا لا بدّ للمربّي أن يقوم بعدة تحصينات في هذا الجانب:

١- أن يُرشد الولد إلىٰ الإيمان بالله.

٢- الاستمرار في تثقيف الولد منذ الصغر حتى الكبر بالأمور الاعتقادية بما تناسبه مرحلة الولد العمرية.

٣- توفير الكتب العقائدية المناسبة لمرحلة الطفل، والتشجيع على قراءتها بشتى الطرق، وكذلك توفير المحاضرات المصوّرة، والأفلام المفيدة في هذا الجانب.

٤- ربط الولد بالعبادة وروح الخشوع والقرآن وحبّ أهل البيت عليهم السلام.

٥- ربط الولد ببيوت الله تعالى.

ثانياً: المشاكل الأخلاقية

ممّا لا شك فيه أنّ الفضائل السلوكية والخلقية إنّما تنتج عن العقائد الراسخة الحقّة والتنشئة الدينية الصحيحة؛ فالطفل بعد أن تربّى على الإيمان بالله سبحانه وتعالى والخشية منه، تصبح عنده ملكة فطرية تجنّبه عن الصفات القبيحة.

ولكن قد يتأثر الطفل بعوامل أخرى توقعه في بعض الانحرافات السلوكية، فتظهر بعض المشاكل التي لم تكن في الحسبان والتي قد تكون خارجة عن السيطرة، كالكذب، والسباب والشتم، والسرقة، والميوعة وغيرها.

فلنأتِ إلى ذكر بعض هذه المشاكل محاولين إيجاد طرق لعلاجها:

المشكلة الأولى: الكذب

لقد حذّر الإسلام من الكذب ومساوئه كثيراً، فالكذب يعتبر من المحرّمات في الإسلام، ولا تخفى عليكم ما يترتّب على الكذب من رذائل، فقد ورد عنهم عليهم السلام: «**إنّ الله عزّ وجلّ جعل للشرّ أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شرّ من الشراب**»[٤٩]، بل أمر الإسلام بالابتعاد عن الكذب جدّه وهزله، فقد ورد عنهم عليهم السلام: «**لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب هزله وجدّه**»[٥٠]، فالكذب من أقبح الظواهر في نظر الإسلام.

ولذا كان من اللازم على المربّين حماية الأولاد من آفة الكذب؛ إذ ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾[٥١]، من هنا نحاول أن نصوّر بعض الأمور التي يمكن

أن تكون أسباباً في بروز هذه الظاهرة لدىٰ الأولاد:

١- السبب الأول: عدم التزام المربّي بالصدق في جميع أحواله

لعلّ الولد يرىٰ أنّ مربّيه قد يتهاون ويكذب في بعض الحالات، كما إذا جاءت مكالمة هاتفية تسأل عن وجود الأب في المنزل أو لا، فيقول الأب لابنه: قُل لهم بأنّي لست موجوداً. وغير ذلك من الحالات، وبالتالي فالولد سيتهاون في هذه المسألة أيضاً.

٢- السبب الثاني: إساءة استخدام أسلوب العقوبة

إنّ عدم معرفة كيفية استخدام العقوبة كوسيلة في التربية والتأديب يؤدّي إلىٰ بروز ظواهر غير صحيحة في سلوكيات الأولاد، فينبغي قبل استخدام هذا الأسلوب من دراسة جميع الحيثيات المترتبة عليه، ومعرفة الوقت والمكان المناسبين له؛ إذ لعلّ هذا الأمر يؤدّي بالولد إلىٰ أن يكذب هرباً من العقوبة.

٣- السبب الثالث: مرافقة الكذّاب

وقد يكون هذا الأمر سيّالاً في جميع المشاكل الأخلاقية، لأنّ رفيق السوء مؤثّر لا محالة علىٰ سلوكيات الولد، قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام لبعض بنيه: «**يا بنيّ انظر خمسة فلا تصاحبهم ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق، فقال: يا أبتِ مَن هم عرّفنيهم؟ قال عليه السلام: إياك ومصاحبة الكذّاب، فإنّه بمنزلة السراب، يقرّب لك البعيد، ويبعّد لك القريب...**»[٥٢].

بعض العلاجات:

١- علىٰ المربّين أنفسهم أن يجتنبوا الكذب أمام الأولاد ولو بقصد الإلهاء أو الممازحة.

٢- بيان فضائل الصدق ورذائل الكذب عن طريق القصص والروايات، وذكر

النبي صلى الله عليه وآله كمثال أبرز للصدق والأمانة.

٣- تشجيع الأولاد على الصدق بشتى الوسائل المتاحة.

٤- نهي الأولاد عن مصاحبة رفقاء السوء، ومتابعة ذلك باستمرار.

المشكلة الثانية: السرقة

تعتبر ظاهرة السرقة أيضاً من الظواهر الخطيرة في المجتمعات، والولد إذا لم ينشأ على الخشية من الله سبحانه وتعالى والإحساس بمراقبته تعالى له، ولم يتعوّد على الأمانة وعدم ظلم الآخرين، فإنّه يكون عرضةً للانزلاق في هذه الظاهرة السيّئة.

ونحن هنا أيضاً نذكر بعض الأسباب لهذه الظاهرة وكيفية علاجها:

١- السبب الأول: عدم تربية الطفل تربية صالحة

إذا لم تُزرع في قلب الطفل روح الخشية من الله سبحانه وتعالى، وعدم شعوره بأنّ الله تعالى يراقب الإنسان في كل مكان وزمان، قد يؤدّي إلى تهاونه في مسألة السرقة.

٢- السبب الثاني: تهاون بعض المربّين في مسألة الغش

قد يجد الطفل أباه أو أمّه يغشّون الناس في معاملاتهم ويحتالون عليهم طمعاً في جني بعض الأموال، كمن يحاول إخفاء بعض العيوب في المبيع ليزيد ربحه، أو يحاول التهرّب من تسديد حقوق الناس، وغير ذلك من الأمور التي قد يبرّرونها لأنفسهم بأنّها ليست من السرقة، فهذا يعطي شعوراً في نفس الطفل بأنّ هذا الأمر ممّا يُتهاون به، وبالتالي يتهاون في مسألة السرقة وما هو أكبر من السرقة أيضاً.

٣- السبب الثالث: عدم إشباع حاجات الطفل المادية

هذا السبب تارة يكون قهريّاً كما في حالات الفقر، وتارة يكون عن تقصير، ولكن نقول بإيجاز: لا بدّ من سدّ احتياجات الأولاد المادية بما يناسب الحال، فالطفل -عادةً- ينظر إلى ما لدى رفقائه من ماديّات، ويشتاق للحصول عليها، فإذا لم يجد

طريقاً للحصول عليها، ولم يكن متحصّناً بتقوىٰ الله والخشية منه، فإنّه سيحاول الحصول عليها بطرق غير مشروعة.

٤- السبب الرابع: عدم زجر الطفل عند سرقته لشيء ما قد يؤدّي إلىٰ تكرّر هذه الحالة

يحكىٰ أنّ إحدىٰ المحاكم الشرعية حكمت علىٰ سارق بعقوبة قطع اليد، فلما جاء وقت التنفيذ قال لهم بأعلىٰ صوته: قبل أن تقطعوا يدي اقطعوا لسان أمي؛ فقد سرقتُ أول مرّة في حياتي بيضةً من جيراننا فلم تؤنّبني، ولم تطلب منّي إرجاعها إلىٰ الجيران، بل زغردت وقالت: لقد أصبح ابني رجلاً ولله الحمد!، فلولا لسان أمي الذي زغرد للجريمة لما كنت في المجتمع سارقاً.

بعض العلاجات:

١- غرس روح الإيمان في نفوس الأولاد، وإشعارهم بأنّ الله ﷻ رقيب عليهم في كل مكان وزمان.

٢- بيان مدىٰ أهمية الأمانة وكيف أنّ النبي ﷺ قد تميّز بين قومه بالأمانة، وهذا ممّا ساعده في نجاح دعوته الإسلامية.

٣- المحاولة قدر المستطاع في التوسعة علىٰ العيال.

٤- عدم التساهل مع هذه الظاهرة، ولا بدّ من ردعها بالشكل المناسب؛ لأنّ التساهل فيها يؤدّي إلىٰ تكرار هذه الحالة (من أمن العقوبة أساء الأدب).

المشكلة الثالثة: السباب والشتم

أيضاً من المشاكل التي قد تواجه المربّي أثناء تربيته للأولاد مشكلة السبّ والشتم، فتجد الطفل يتفوّه بألفاظ غير مناسبة أمام الآخرين، ممّا يؤدّي إلىٰ نفور الناس منه والنظر إليه بنظرة سلبية قد تؤدّي إلىٰ عواقب وخيمة في المستقبل علىٰ

نفسية الطفل.

ولعل السبب في ذلك يرجع إلىٰ أمور:

١- الأمر الأول: القدوة السيئة

فالولد عندما يسمع كلمات الفحش من أبويه فإنّه سيصدر منه في النهاية كلام فاحش وغير لائق.

٢- الأمر الثاني: المشاجرة بين الوالدين

الإنسان حينما تنفلت أعصابه عن زمام الأمور فإنّه قد يرتكب الكثير من الحماقات، ولذا وردت الأحاديث الكثيرة المحذّرة من الغضب، فقد ورد أنّ «**الغضب مفتاح كل شر**»[٥٣]، وأنّ «**الغضب يفسد الألباب، ويبعد عن الصواب**»[٥٤]، و«**إياك والغضب؛ فأوله جنون، وآخره ندم**»[٥٥].

ولذا فإنّ الزوجين إذا لم يكظما غيظهما وبدأوا بالمشاجرة أمام الأولاد، فإنّه ستصدر منهما أفعال وألفاظ غير لائقة، وبالتالي سوف يتلقّاها الأولاد ويتعلمونها.

٣- الأمر الثالث: مشاهدة القنوات غير المناسبة في التلفاز

عندما يُترك الطفل ليشاهد ما يشاء في التلفاز من مسلسلات وأفلام غير لائقة، وفيها ما لا يحصىٰ من الألفاظ البذيئة، فإنّ الولد سيتأثّر بمثل هذه الأمور.

٤- الأمر الرابع: الرفقة الفاسدة

ولعلّه أهم سبب في هذا الجانب، فالولد يذهب إلىٰ المدرسة، ويذهب إلىٰ المعاهد، ويخالط الناس في الشارع، فإذا أُلقي وتُرك لرفقاء السوء كيفما شاء، فإنّه من الطبيعي أن يتعلّم منهم لغة السبّ والشتم والفحش، ويتربّىٰ علىٰ أقبح العادات.

بعض العلاجات:

١- إبراز القدوة الصالحة للأطفال في حسن الخطاب وتهذيب اللسان وجمال التعبير.

٢- تجنّب المشاجرة أمام الأولاد، ومحاولة عرض المشاكل ومناقشتها بعيداً عنهم.

٣- تجنيب الأطفال صحبة رفقاء السوء.

٤- تلقين الأطفال الأحاديث المعصوميّة الناهية عن السباب والشتيمة، وتوضيح ما أعدّه الله تعالى لهم من إثم وعقاب كبيرين.

٥- انتقاء البرامج التلفزيونية المناسبة للأطفال.

تنويه:

هذه العلاجات تأتي فيما لو كانت هناك ظاهرة عند الطفل باستخدام الكلمات البذيئة والسب والشتم.

وإلا فإنّ التربويِّين ينصحون بالإعراض عن الطفل لو صدرت منه كلمة بذيئة بغير قصد قد سمعها بشكل عارض، لأنه قد يكون أمره ونهيه بعدم التلفّظ بها مدعاة لتركيزها في ذهنه، أو عناده وتمرّده والبوح بها مجدداً.

ثالثاً: المشاكل النفسية

من الأهداف الرئيسية في التربية أن تُنتج أولاداً يمتلكون صفات الشجاعة والجرأة، والانضباط عند الغضب، والشعور بالكمال، وحبّ الخير للآخرين.

ولكن هناك ظواهر تمرّ على الأولاد لا بدّ للمربّي أن يلتفت إليها حتى يتفادى حصولها، ثم إنّه إذا حصلت فإنّه يعرف كيفية التعامل معها.

المشكلة الأولى: ظاهرة الخجل

تعتبر ظاهرة الخجل من الظواهر المتفشّية عند الأولاد، بل قد تكون أمراً طبيعياً في بداية حياة الطفل، ولكنّ استمرار هذه الحالة يعدّ أمراً غير جيّد؛ لأنه سوف يُعيقه عن التطوّر في حياته بشكل سليم.

ولعلّ الأسباب في ذلك ترجع إلى عامل الوراثة، أو عدم محاولة خلط الولد مع غيره من الأطفال وفئات المجتمع، أو عدم محاورة الولد من قبل والديه وترك الحرية له في الكلام والتعبير، وغير ذلك.

فالعلاج الأنسب لهذه الظاهرة هو تعويد الولد على مخالطة الأولاد الآخرين، واصطحاب الولد مع الوالدين أثناء زيارة الأقارب والأصدقاء، وأخذه إلى المساجد والحسينيات، ومحاولة التحدّث معه أمام الآخرين حتى يتحرّر من شعور الخجل الذي يعيشه، وعدم تأنيبه أمام الآخرين لأتفه الأمور.

وينبغي التفريق بين الخجل والحياء، فالخجل هو انكماش الولد وانطواؤه عن ملاقاة الآخرين، أما الحياء فهو فضيلة أخلاقية وأدب من آداب الإسلام.

"يحكى أنّه قد قحطت البادية فى أيام هشام بن عبد الملك فقدمت عليه العرب فهابوا أن يتكلّموا وفيهم (درواس بن حبيب) ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام فقال لحاجبه: ما يشاء أحد أن يدخل علىّ إلا دخل حتى الصبيان! فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً فقال: يا أمير المؤمنين إنّ للكلام نشراً وطيّاً، وإنه لا يُعرف ما فى طيّه إلا بنشره، فإن أذنت لى أن أنشره نشرته. قال: انشر لا أبا لك! وقد أعجبه كلامه مع حداثة سنه فقال: إنّه أصابتنا سنون ثلاث: سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أنفقت العظم، وفى أيديكم فضول أموال، فإن كانت لله تعالى ففرّقوها فى عباده، وإن كانت لهم فعلامَ تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدّقوا بها عليهم فإنّ الله يجزى المتصدقين. فقال هشام: ما ترك لنا الغلام

فى واحدة من الثلاث عذراً. فأمر البوادى بمائة ألف دينار وله بمائة ألف درهم.

فقال: أردُدْها يا أمير المؤمنين إلى جائزة العرب فإنّى أخاف أن تعجز عن بلوغ كفايتهم. فقال: أما لک حاجة؟ قال: مالى حاجة فى خاصة نفسى دون عامة المسلمين. فخرج وهو أنبل القوم"(٥٦).

نلاحظ مدىٰ جرأة وحذاقة هذا الصبي المذكور في القصة الذي لو كان الخجل مسيطراً عليه لما أمكنه التحدّث بهذه الطلاقة، ولما أمكن لطاقاته الكامنة في نفسه من التفجّر والانطلاق، فالخجل يعتبر من أكبر عوامل حبس الطاقات وفتورها، فلعلّ الطفل لديه من الطاقات والإمكانات ما لا يعلمها إلا الله تعالىٰ، إلا أنّ الخجل يمنعه من إبرازها وتطويرها والاستفادة منها، فعلينا الالتفات إلىٰ هذه الظاهرة وعواملها، ومحاولة التخلّص منها.

المشكلة الثانية: ظاهرة الخوف

حالة الخوف ليست مختصة بالأطفال، بل هي تبرز لدىٰ الصغار والكبار. وحالة الخوف لدىٰ الأطفال تارة تكون إيجابية وأخرىٰ تكون سلبية:

تكون إيجابية حينما تُعدّ هذه الحالة ضمن الإطار الطبيعي ولا تتجاوزه، بحيث تكون هذه الحالة وسيلة لحماية الطفل من الأخطار والحوادث.

وتكون سلبية إذا تجاوزت الحدّ الطبيعي؛ لأنّها ستُسبِّب قلقاً نفسياً لدىٰ الطفل، وقد تزداد معه هذه الحالة إلىٰ حدٍّ يصعب علاجها بعدئذٍ.

ويمكن أن نذكر عدة أسباب لهذه الظاهرة لا علىٰ سبيل الحصر:

١- تخويف الأم وليدها بالأشباح والظلام وغير ذلك.
٢- قلق الأم الزائد وتحسّسها الشديد.
٣- تعويد الطفل علىٰ الانطوائية والعزلة بالمنزل.

٤- سرد القصص الخيالية المخيفة.

٥- مشاهدة أفلام الرعب.

بعض العلاجات:

١- تربية الولد على الإيمان بالله تعالى والتسليم لأمره، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[٥٧].

٢- إعطاء الولد فرصة تحمّل المسؤولية والاعتماد على النفس بحسب مقدرته ونموّه.

٣- عدم إخافة الولد -خاصة إذا كان يبكي- بالوحوش، واللصوص، والجنّي وغير ذلك، محاولاً إسكاته بهذه الأمور.

٤- تعريف الطفل -بطريقة مناسبة- بالشيء الذي يخاف منه، وأنّه ليس أمراً ممّا يستدعي الخوف منه.

٥- ذكر قصص البطولة والشجاعة للنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام وسائر الصحابة الشجعان.

خاتمة

في ختام هذا البحث نختار جملة من الأسئلة مرتبطة بالله تعالى عادةً ما يسألها الأطفال، وقد تُسبّب حرجاً للمربّين حيث إنّهم لم يكونوا على أهبّة الاستعداد للجواب عنها، ولذا نذكر هذه الأسئلة محاولين الإجابة عنها.

السؤال الأول: من هو الله؟

والجواب عنه يتّضح بعد ملاحظة عدّة أمور:

١- حاول أن لا تجيب بكلمات مغلقة غير مفهومة بالنسبة للطفل، كالأزلي،

الأبدي، واجب الوجود، المقدّس، بل لا بدّ أن تكون الإجابة متناسبة مع مرحلة الطفل العمرية.

٢- معرفة اللغة التي يفهمها الطفل، فمثلاً هو قبل سنّ السادسة يفهم كلمات مثل: (الحنون، الكبير، الطيّب، وغير ذلك)، وما فوق سنّ السادسة يفهم كلمات مثل: (القادر، في كل مكان، الكامل، وغير ذلك)، وفي مرحلة البلوغ يفهم كلمات أعمق، مثل: (الأزلي، الأبدي، العادل، غير محدود).

٣- معرفة التصوّرات التي يمتلكها الطفل عن الله ﷻ، فقبل الإجابة عن سؤاله ينبغي مبادرته بالسؤال: (ما هو رأيك في الموضوع؟)؛ ممّا يعطيه الثقة والشعور بالاحترام.

٤- معرفة منطلقات سؤاله، فهل سأل هذا السؤال لأنّه يشك في وجود الله ﷻ؟ أم أنّه يريد أن يطمئن فقط؟ أم هو حبّ الفضول والاستطلاع؟ فهذه كلّها أمور تساعد في اختيار الجواب المناسب للطفل، فتجيبه مثلاً: (إنّ الله تعالى أهمّ شيء في الوجود)، (الله هو نبع الحنان والدفء)، (الله أكبر من كلّ تصوّراتنا وتفكيرنا).

السؤال الثاني: أين هو الله؟

الإنسان بطبيعته لديه ارتباط وثيق بالمادة والطبيعة، فيتصوّر أنّ كلّ موجود إنّما هو محدود بهذا الوجود المادي الذي لا بدّ من أن يتواجد في مكانٍ ما وفي زمانٍ ما، والطفل بطبيعته لا يشذّ عن هذا الأمر، فيحسب أنّ الله موجود في مكانٍ ما كالمسجد أو السماء أو الجنّة وغير ذلك.

ويمكن أن يُجاب الطفل بأنّ: (الله موجود في كل مكان)، (الله قريب منّا يرانا ويسمعنا)، (في يوم القيامة سوف نذهب ونعود إلى الله).

السؤال الثالث: من أين أتى الله؟ من خلق الله؟

يُفضّل في الجواب عن مثل هذه الأسئلة التركيز على البعد الإيماني للطفل، بمعنى الابتعاد عن الأجوبة التي تشوّش ذهن الطفل والتي هي فوق إدراكه، كالدائم والأزلي والسرمدي، وأنّه قد خلق كل شيء ولم يخلقه شيء، فهذه أجوبة تصلح عندما ينضج الطفل من الناحية الذهنية والمعرفية.

أما قبل ذلك فالأفضل أن نُعلّم الطفل أنّ هذه المسألة إيمانية أي ينبغي الإيمان والاعتقاد بها حتى لو لم نعلم واقعها. وإذا أصرّ على السؤال فلا مناص عن إجابته بأنّه لن يعرف وهو في هذا العمر أكثر من هذا المقدار، وأنّه في المستقبل إذا جدّ واجتهد في طلب العلم وحافظ على إيمانه وأخلاقه فإنّه سوف يعرف الإجابة عن هذا السؤال.

السؤال الرابع: كيف هو شكل الله؟

كثير من الفرق وقعت في محذور التشبيه والتجسيم؛ وما ذلك إلا لميل الإنسان إلى المادة، فلذا تجدهم ينسبون كثير من الصفات البشرية إلى الباري عزّوجلّ.

وعلى أي حالٍ فالطفل إذا سأل هذا السؤال فإنّه يمكن -إضافة لما مرّ من ملاحظات في أسلوب الإجابة- أن يُجاب مثلاً: (الله هو الخالق العظيم الذي خلق كل هذا العالم)، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[٥٨]، (الله خلق كل شيء ولا يشبه مخلوقاته).

والخلاصة: إنّ الإجابة على أسئلة الأطفال بقدر ما هي بسيطة وساذجة، فهي معقّدة وتحتاج إلى فنّ ومهارة، وكلّما كان المربّون مطّلعين على ذهنية الأطفال وكيفية التعامل معها كانوا أقدر في إيصال المعلومة إليهم.

والحمد لله ربّ العالمين.

الهوامش:

(١) آية الله الشيخ عيسى قاسم ﷾، الزواج والأسرة، ص٥٧.

(٢) للأستاذ عبدالله ناصح علوان، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبدالعزيز بجدّة.

(٣) موسوعة أحكام الأطفال وأدلتها، ج٣، ص٢٥٣.

(٤) لسان العرب، ج٣، ص٢٩- ٣٠، كلمة (ربا). مجمع البحرين، ج٢، ص٦٧١، كلمة (ربا). المصباح المنير، ص٢١٧.

(٥) لسان العرب، ج٣، ص١٤، كلمة (ربب).

(٦) سورة الإسراء: ١٧.

(٧) مجمع البيان، ج٦، ص٢٢٧.

(٨) مقال بعنوان (مفهوم التربية في الإسلام)، الدكتور علي عبده علي الألمعي، مدير عام التخطيط والسياسات بوزارة التربية والتعليم بالمملكة العربية السعودية، المشرف العام على موقع منبر التربية، (www.minbr.com).

(٩) تذكرة الفقهاء، ج٢، ص٤٩٣- ٤٩٤.

(١٠) رياض المسائل، ج١٢، ص١٤٤.

(١١) الإحسائي، عوالي اللئالي، ج١، ص٣٥، ح١٨.

(١٢) الخلاف، ج١، ص٣٠٥.

(١٣) نهاية الإحكام في معرفة الأحكام، ج١، ص٣١٨.

(١٤) صراط النجاة، ج٣، ص٢٦٤.

(١٥) سورة التحريم: ٦.

(١٦) موسوعة أحكام الأطفال وأدلتها، ج٣، ص٢٩٤.

(١٧) سورة البيّنة: ٥.

(١٨) سورة المائدة: ٢٧.

(١٩) نهج البلاغة، ص٤٩٠.

(٢٠) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، ج٥، ص٢٩٩.

(٢١) رسائل الشهيد الثاني، الشيخ زين الدين العاملي، ج٢، ص٨٠٠.

(٢٢) سورة الزمر: ٩.

(٢٣) من الكتب القيمة في هذا المجال: كتاب (الطفل بين الوراثة والتربية) لمحمد تقي فلسفي.

(٢٤) سورة فصّلت: ٣٤.

(٢٥) الكافي، الكليني، ج٦، ص٢٧، ح٦.

(٢٦) الكافي، الكليني، ج١، ص٤٣، ح١.

(٢٧) الكافي، الكليني، ج٦، ص٤٧، باب تأديب الولد، ح٣.

(٢٨) المصدر السابق، ح٧.

(٢٩) الكافي، الكليني، ج٦، ص٤٨، ح١.

(٣٠) مستدرك الوسائل، ج١٥، ص١٦٨، باب ٦٣ من أبواب أحكام الأولاد، ح٣.

(٣١) جامع أحاديث الشيعة، ج٢١، ص٢٩٢، ح٢٣.

(٣٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص٢٩٥.

(٣٣) مكارم الأخلاق، ج١، ص٤٧٤، ح١٦٢٥.

(٣٤) الأمالي للصدوق، ص٤٦٢.

(٣٥) وسائل الشيعة، ج١٥، ص٢٤٨، باب ٢٠ من أبواب النفقات، ح٢.

(٣٦) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، ج٢، ص٣٢٠.

(٣٧) سيأتي في الخاتمة بيان أهم الأسئلة التي قد يسألها الأطفال وكيفية الإجابة عنها.

(٣٨) سورة الأحزاب: ٢١.

(٣٩) غرر الحكم، ص٣٠٩، ح٤٦.

(٤٠) مجمع البحرين، ج٣، ص١٩٥٢.

(٤١) سورة يونس: ٥٧.

(٤٢) سورة لقمان: ١٣.

(٤٣) سورة البقرة: ٢٥.

(٤٤) سورة النساء: ٥٧.

(٤٥) سورة التحريم: ٦.

(٤٦) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج١٥، ص١٩٤- ١٩٥، باب٨٣ من أبواب أحكام الأولاد، ح٤.

(٤٧) السؤال: هل يجوز تأديب غير الولي أو المأذون من قبله للطفل بضربه؟

السيستاني: "لا يجوز لغير ولي الطفل أو المأذون من قبله أن يضرب الطفل لتأديبه إذا ارتكب فعلاً محرماً أو سبَّب أذىً للآخرين، ويجوز للولي وللمأذون من قبله أن يضرب الطفل للتأديب

ضرباً خفيفاً غير مبرح لا يؤدّي إلى احمرار جلد الطفل، بشرط أن لا يتجاوز ثلاث ضربات، وذلك فيما إذا توقف التأديب عليه، وعليه فلا يحق للأخ الشاب أن يضرب أخاه الطفل إلا إذا كان ولياً أو مأذوناً من قبل الولي، ولا يجوز ضرب التلميذ في المدرسة بدون إذن وليه أو المأذون من قبله بتاتاً". راجع استفتاءات موقع السيد السيستاني ﷾، في خانة (الضرب).

(٤٨) الكافي، الكليني، ج٦، ص٥٠، باب برّ الأولاد.

(٤٩) الكافي، الكليني، ج٤، ص٤١.

(٥٠) المصدر السابق، ص٤٤.

(٥١) سورة غافر: ٢٨.

(٥٢) تحف العقول، ص٢٧٩.

(٥٣) الكافي، الكليني، ج٣، ص٧٤٠.

(٥٤) مستدرك الوسائل، المحدث النوري، ج١٢، ص١١.

(٥٥) المصدر السابق، ص١٢.

(٥٦) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الزمخشري، ج٥، ص٢٢٦.

(٥٧) سورة المعارج: ١٩- ٢٣.

(٥٨) سورة الشورى: ١١.

الفضائل الأخلاقية وسبل تطويرها في القرآن الكريم

الشيخ قاسم عبدالكريم جاسم

المقدمة

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[1].

تُبيّن هذه الآية أنّ الفضل لله، وأنّه بيد الله، وليس للإنسان من الفضل إلا بقدر ما يؤتيه الله، وعلىٰ هذا ليس للتّقي أن يدّعي فضلاً بتقواه، ولا للعالم أن يدّعي فضلاً بعلمه، ولا للمحسن أن يدّعي فضلاً بإحسانه، فالتقوىٰ والعلم والإحسان نعَم أنعم الله بها علىٰ الإنسان. قال الشاعر:

فلا تدّعوا فضلاً وإن نُلتم وعلماً فإنّ الفضل مسلكه

وما فضيلة الإنسان في هذه الحياة إلا اتّباعه للفضيلة وهو قادر عليها، وابتعاده عن الرذيلة وهو قادر عليها، وعمله علىٰ تخليص نفسه من شوائب الرذيلة قبل أن يقع في فعلها، ذلك لأنّ الفضائل تمتزج بغيرها في بعض الأحيان، لا بل ربما تحولت الفضائل إلىٰ أضدادها في فهم الناس أو في بعض الأفعال، ولهذا يقال: إنّه ما من فضيلة من فضائل الإنسان إلا ولها رذيلة من شكلها، ولا رذيلة إلا ولها فضيلة من جنسها.

وهذا هو السبب في صدور الأحكام الخاطئة من الناس، فربما ينسب إلى إنسانٍ ما الفضيلة التي هي من شكل الرذيلة أو الرذيلة التي هي من جنس الفضيلة، كما يُحكم في بعض الأحيان على الحازم المتأنّي بأنّه رعديد جبان، أو على المقتصد المدبّر أنّه بخيل شحيح وهكذا.

ويُحكم على المبذّر المسرف أنّه جواد كريم، أو على الوقح قليل الحياء أنّه جريء صريح، أو على الطائش المتهوّر أنّه شجاع مِقدام، ولا يوجد ميزان تُعرف به قيم الأعمال، ولا مقياس تُقاس به الأفعال، ولا ما يميِّز به الخير والشر ولا بين الفضيلة والرذيلة، إلا تعاليم الدين ومبادئ الدين، فكلّ ما ينطبق على الدين وتعاليمه فضيلة، وما يخالف الدين وتعاليمه رذيلة، فالدين هو الذي يعلمنا أنّ الاقتصاد وتنظيم الحياة المعاشية بحيث يكون الصرف بمقياس الدخل هو الفهم والحكمة والتدبير، وأنّ الحرص والتقتير والتأخير عن كثير من الواجبات بعد توفر الدخل والمادة هو البخل والإمساك.

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[٢]. وقال في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[٣].

الفصل الأول: تعريفات وكليّات

أوّلاً: تعريف النفس

لمّا كان موضوع هذا العلم نفس الإنسان من حيث يصدر عنها الجميل والقبيح بحسب الإرادة، ويستحقّ بها المدح والذمّ وإطلاق لفظ الشقاوة والسعادة، فلا بدّ من معرفة النفس وقواها بصورة إجماليّة، فنقول:

النفس ما يعبّر عنه كلّ أحد بأنا وأنت وأمثالهما، ولا شكّ في مغايرتها للبدن؛ لأنّ الإنسان يغفل عن كلّ شيء، حتى أجزاء بدنه إلا عن نفسه، ولأنّ البدن يتغيّر عمّا كان عليه من الكيف والكمّ، ولا تغيّر لها من حين تمييزها للأشياء إلى أن يموت.

وحدّ النفس أنّها جوهر ملكوتي مجرد يدرك المعقولات، وله تصرف في الهيكل المحسوس بتوسّط القوى والآلات.

ثانياً: الدليل على جوهرية النفس والآثار الدالة على بقائها بعد فناء البدن

والدليل على جوهرية النفس وتجردّها كونها محلاً للمجرّدات، كالمعاني الكلّية من المعقولات ومحلّية العرض لها محال، وكذا الجسم لكونه ذا وضع يقبل الانقسام، فيلزم أن يكون الحالّ كالمحل، فلا يكون مجرّداً، هذا خلف، ولعدم زوال الصور الحالّة فيها بطروّ غيرها عليها، بل يعينها، ولا الجسم كذلك، لزوال كلّ شكل منه بطروّ آخر، ولمخالفتها للماديات في الآثار والخواص.

والنفس وإن كانت حادثة بحدوث البدن، لكنّها باقية بفنائه لعدم قيامها به بمعنى كونه محلاً لها لما عرفت، بل هو آلة لتصرّفها، فلا يستلزم فساد البدن فساد النفس، والنفس أيضاً بنفسها لا تقتضي البدن، إذ طروّ العدم على الموجود يكون من ضدّه، ولا ضدّ للمجرّدات لكون التضاد في عالم الكون والفساد وتحقّقها فيه بتوسّط البدن، وإلا فهي بالذات من سنخ المجردات، فإذا لم يقتض ذاتها الفساد، ولا ارتباطها بالبدن، فلا يكون له موجب آخر.

والآثار الدالّة على بقاء النفس بعد فناء البدن كثيرة، كقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾[٥].

وفي الخبر: «**أرواح الشهداء تسرح في رياض الجنّة**»[٦]. وما دلّ علىٰ أنّ أرواح المؤمنين تجتمع ويستأنس بعضها ببعض في وادي السلام، وأرواح الكفّار في وادي برهوت[٧].

ثالثاً: أقسام النفس

من النفوس نفس نباتية وحيوانية وإنسانية، وإن شئت أطلقت القوىٰ عليها، ولكلّ منها قوىٰ متعدّدة، كلّ منها مبدأ فعل خاص، فقوىٰ الأولىٰ ثلاثة:

غاذية: يتم عملها بإعانة أربع أخرىٰ هي الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة.

ومُنَمِّية: يتم عملها بإعانة الغاذية والمغيّرة.

ومولّدة: يتم عملها بإعانتها والمصوّرة.

وللحيوانية قوتان:

قوّة علىٰ الإدراك بالآلات، إمّا الظاهرة أي الباصرة والسامعة والذائقة والشامّة واللامسة، أو الباطنة أعني الحسّ المشترك والخيال والوهم والحافظة والمتخيّلة.

وقوّة علىٰ التحريك الإرادي، وهي إمّا باعثة وهي ما إذا ارتسم في الخيال أمر مطلوب الحصول حرّكت الفاعلة علىٰ الإتيان به، فهي حينئذٍ قوّة شهويّة، أو مطلوب الدفع وحركاتها إليه، فهي حينئذٍ قوّة غضبيّة، أو فاعلة، وهي تحرّك الآلات والعضلات الجسمانية بالقبض والبسط، وجملة هذه القوىٰ موجودة في جميع الحيوانات من الإنسان وغيره.

وأمّا النفس الإنسانية فهي المختصّة بالإنسان من بين الموجودات بها تميزه عن غيره، ولها قوّة النطق، أعني إدراك الكلّيات بدون آلة جسمانية، فإن توجّهت إلىٰ معرفة حقائق الموجودات وقبول الفيض عن عالم المجرّدات سميّت عقلاً نظريّاً وقوّة

نظريّة، وإن تهيّأت لمزاولة الصناعات المؤدّية على مصالح المعاش والمعاد والتأثير فيما تحت قدرته من القوى والآلات فهي عقل عملي وقوّة عمليّة.

ولمّا كان تمييز النفس عن العقل بافتقارها إلى المادّة في الفعل أي كلّ ما يصدر عنها من التأثير والتأثّر فهي في جميع إدراكاتها محتاجة إليها، فقبل تعلّقها بالبدن واستعمال الآلات ليست فاعلة ولا قابلة، وأمّا بعدهما فتحصل الصور الجزئيّة في الآلات، إلا أنّها خالية عن الصور الكلّية إلى أن تميَّز به ما به تشترك الجزئيّات عمّا به تختلف فهي قبل التمييز المذكور عقل هيولاني لمشابهتها للهيولى الأولى في خلوّها عن الصور بالفعل وقبولها لها بالقوّة، وإذا ميزت فأوّل ما يرتسم فيها صور الكلّيات الضرورية الحاصلة من التمييز الحاصل من تكرير المشاهدات حكماً ومفهوماً، كامتناع اجتماع النقيضين والحرارة الكلّية مثلاً، وهي في هذه الحالة أي حصول الضروريات لها فعلاً واستعدادها لاكتساب النظريات منها عقل بالملكة، وإذا اكتسبت النظريّات بالفعل وصارت لصيرورتها مخزونة فيها مستعدّة لاستحضارها فهي عقل بالفعل، وجميع ما يمكن إدراكها من المعقولات حاصلة لها بالفعل حينئذٍ، إلا أنّها لاشتغالها بشواغل المادّة واحتجابها بحواجب البدن ليست حاضرة عندها مشاهدة لديها، فإذا ارتفعت علاقتها بالبدن ولم يبق لها حجاب أصلاً وصار جميع إدراكاتها حاضرة عندها مشاهدة لها سميّت عقلاً مستفاداً، وهذه غاية كمال القوّة النظريّة.

الفصل الثاني: المراد من تهذيب الأخلاق

هل الأخلاق قابلة للتغيّر؟

الغاية من تهذيب الأخلاق على النفس الإنسانية

الفضائل الحسنة والرذيلة في القرآن

أوّلاً: المراد من تهذيب الأخلاق

المراد من تهذيب الأخلاق تعديلها إلىٰ الوسط من الإفراط والتفريط، وردّ كلّ قوّة إلىٰ كمالها، وهو المراد من التغيير، لا إماطة القوّة رأساً، لأنّ لكلّ من القوىٰ فائدة ضروريّة خُلقت لأجلها، وهي بمنزلة الآلة لما هو مقصود لذاته، ولولاها لضاع المقصود الأصلي، فتعديل القوّة الغضبية خلوّ النفس عن الجبن والتهوّر، وكونها بحيث يحصل منه الغضب المحمود شرعاً وعقلاً، ولا يحصل المذموم كذلك، وكذا الشهوة، ولا ريب في إمكانه، فكما أنّ النواة يمكن صيرورتها بالتربية نخلاً لوجود قوّة النخليّة فيها وتوقّف فعليّتها علىٰ التربية التي هي بيد الإنسان، فكذا تعديل قوّتي الشهوة والغضب بالمجاهدة ممكن، وإن لم يمكن رفعها بالكلّية.

ثانياً: هل الأخلاق قابلة للتغيير؟

إنّ مصير علم الأخلاق وكلّ الأبحاث الأخلاقية، يتوقف علىٰ الإجابة عن هذا السؤال، إذ لولا قابليتها للتغيير لأصبحت كلّ برامج الأنبياء التربويّة والكتب السماويّة، ووضع القوانين والعقوبات الرّادعة، لا فائدة ولا معنى لها.

فنفس وجود تلك البرامج التربويّة وتعاليم الكتب السماويّة، ووضع القَوانين في المجتمعات البشريّة، هو خير دليل علىٰ قابليّة التغيير في الملَكات والسلوكيّات الأخلاقيّة لدىٰ الإنسان، وهذه الحقيقة لا يعتمدها الأنبياء عليهم السلام فحسب، بل هي مقبولةٌ لدىٰ جميع العقلاء في العالم.

ألا يمكن لِلتربية والتّعليم، أن تَتَجذّر في أعماق الإنسان وتغيّره؟

ثالثاً: الآيات والرّوايات التي يستدل بها على إمكانيّة تغيّر الأخلاق

ما ذكرناه آنفاً كان على مستوى الأدلّة العقليّة والتّأريخيّة، وعند رجوعنا إلى الأدلة النّقلية، يعني ما وصل إلينا من مبدأ الوحي وأحاديث المعصومين عليهم السلام، سوف تتبيّن لنا المسألة من خلاله بصورة أفضل. لأنّه:

١- إنّ الهدف من بعث الأنبياء والرّسل وإنزال الكتب السّماوية، إنّما هو لأجل تربية وهداية الإنسان، وهذا أقوى دليل على إمكان التربية، وترشيد الفضائل الأخلاقيّة لدى جميع أفراد البشر، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[٨].

وأمثالها من الآيات الكريمة التي تبيّن لنا أنّ الهدف من بعثة الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله: هو **تعليم وتزكية** كلّ أُولئك الذين كانوا في ضلال مبين.

٢- كلّ الآيات التي توجّه الخطاب الإلهي إلى الإنسان، مثل: **﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾** و**﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾** و**﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾** و**﴿يَا عِبَادِيَ﴾**، تشمل أوامر ونواهي تتعلق بتهذيب النّفوس، واكتساب الفضائل الأخلاقيّة، وهي بدورها خير دليل على إمكانيّة تغيير الأخلاق الرّذيلة، وإصلاح الصّفات القبيحة في واقع الإنسان، وإلاّ ففي غير هذه الصّورة تَنتفي عُموميّة هذه الخطابات الإلهيّة، فتصبح لغواً بدون فائدة.

وقد يقال: إنّ هذهِ الآيات، غالباً ما تشتمل على الأحكام الشرعيّة، وهذه الأحكام تتعلق بالجوانب العمليّة والسلوكيّة في حياة الإنسان، بينما نجد أنّ الأخلاق ناظرةٌ للصفات الباطنيّة؟

ولكن يجب ألا ننسى، أنّ العلاقة بين (الأخلاق) و(العمل)، هي: علاقة اللاّزم والملزوم لِلآخر، وبمنزلة العلّة والمعلول، فالأخلاق الحسنة تُعتبر مصدراً للأعمال

الحسنة، والأخلاق الرذيلة مصدراً للأعمال القبيحة، وكذلك الحال في الأعمال، فإنّها من خلال التّكرار تتحول بالتّدريج، إلىٰ ملكات وصفات أخلاقيّة في واقع الإنسان الداخلي.

٣- القول والاعتقاد بعدم إمكان التّغيير للأخلاق، مدعاة للقول والاعتقاد بالجَبر؛ لأنّ مفهومها هو: أنّ صاحب الخُلق السّيء والخُلق الحسن، ليسا بقادرين علىٰ تغيير أخلاقهم، وبما أنّ الأعمال والسّلوكيات تعتبر انعكاساً للصفات والملكات الأخلاقيّة، ولِذا فمثل هؤلاء يتحرّكون في سلوكياتهم من موقع الجَبر، لكننا نرىٰ أنّهم مكلّفون بفعل الخيرات وترك الخبائث، وعليه يترتب علىٰ هذا القول جميع المفاسد التي تترتب علىٰ مقولة الجبر[٩].

٤- الآيات الصّريحة التي ترغّب الإنسان في تهذيب أخلاقه، وتُحذّره من الرذائل، هي أيضاً دليلٌ محكمٌ علىٰ إمكانيّة تغير الصفات والطّبائع الإنسانية، مثل قوله تعالىٰ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾[١٠].

فالتّعبير بكلمة دَسّاها، والتي هي في الأصل بمعنى: خلطُ الشيء بشيء آخر غير مرغوب فيه من غير جنسه، مثل **(دسّ الحنطة بالتراب)**، يبيّن لنا أنّ الطّبيعة الإنسانيّة مجبولةٌ علىٰ الصفاء والنّقاوة والتقوىٰ، والتلويث، والرذائل تعرض عليها من الخارج وتنفذ فيها، والاثنان قابلان للتّغير والتّبدل.

نقرأ في الآية (٣٤) من سورة فُصّلت: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾.

تُبيّن لنا هذهِ الآية أنّ العداوات المتأصّلة والمتجذّرة في الإنسان: بالمحبّة والسّلوك السليم، يمكن أن تتغير وتتبدل إلىٰ صداقة حميمة بالتّحرك في طريق المحبّة والسّلوكيات السليمة، ولو كانت الأخلاق غير قابلة للتغير، لما أمكن الأمر بذلك.

ونجد في هذا المجال أحاديث إسلامية، تؤكّد هذا المعنى أيضاً، من قبيل الأحاديث التالية:

١- الحديث المعروف الذي يقول: «**إنّما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق**» هو دليل ساطعٌ علىٰ إمكانيّة تغيير الصّفات الأخلاقيّة.

٢- الأحاديث الكثيرة التي تحث الإنسان علىٰ حسن الخُلق، كالحديث النّبوي الشريف الآتي: «**لَو يَعلَمُ العَبدُ ما فِي حُسنِ الخُلقِ لَعَلِمَ أَنّهُ يَحتاجُ أن يكونَ لَهُ خُلقٌ حسنٌ**»[١١].

٣- وكذلك الحديث النبوي الشريف الآخر حيث يقول: «**الخُلقُ الحسنُ نِصفُ الدِّينِ**»[١٢].

٤- نقرأ في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الخُلقُ المَحمُودُ مِن ثِمارِ العَقلِ وَالخُلقُ المَذمُومُ مِن ثِمارِ الجَهلِ**»[١٣].

وبما أنّ كلاً من (العلم) و(الجهلَ) قابلان للتغيير؛ فتتبعها الأخلاق في ذلك أيضاً.

٥- وفي حديث آخر، جاء عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إنّ العَبدَ لَيَبلُغُ بِحُسنِ خُلقِهِ عَظيمَ دَرجاتِ الآخِرَةِ وَشَرفِ المَنازِلِ وَأَنّهُ لَضَعِيفُ العِبادةِ**»[١٤].

حيث نجد في هذا الحديث، مقارنةً بين حُسن الأخلاق والعبادة، هذا **أولاً**.

وثانياً: إنّ الدرجات العُلىٰ في الآخرة تتعلق بالأعمال الاختيارية.

وثالثاً: التّرغيب لكسب الأخلاق الحسنة، كلّ ذلك يدلّ علىٰ أنّ الأخلاق أمرٌ اكتسابي، وغير خارجة عن عنصر الإرادة في الإنسان.

مثيل هذهِ الرّوايات والمعاني القَيّمة كثيرٌ، في مضامين أحاديث أهل البيت عليهم السلام وهي إن دلّت علىٰ شيء فإنّها تدلّ علىٰ إمكانِيَّة تغيّر الأخلاق، وإلاّ فستكون لغواً وبلا فائدة.

٦- وفي حديث آخر ورد عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله، نقرأ فيه أنّه قال لأحد أصحابه واسمه جرير بن عبدالله: «**إنّك أمرؤ قَد أحسنَ اللهُ خَلْقَكَ فأَحسِنْ خُلُقَك**»[١٥].

وخلاصة القول أنّ رواياتنا مليئةٌ بهذا المضمون، حيث تدلّ جميعها على أنّ الإنسان قادر على تغيير أخلاقه.

ونختم هذا البحث بحديث عن الإمام علي عليه السلام، يحثّنا فيه على حُسن الخلق، حيث قال عليه السلام: «**الكَرَمُ حُسنُ السّجيةِ واجتناب الدَّنِيّةِ**»[١٦].

رابعاً: أدلّة مُؤيّدي نظرية ثبات الأخلاق، وعَدم تغيّرها:

وفي مقابل ما ذكرناه آنفاً، استدل البعض بروايات يظهر منها أنّ الأخلاق غير قابلة للتغيير، ومنها:

١- الحديث المعروف الوارد عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث قال: «**النّاسُ مَعادِنٌ كَمَعادِنِ الذَّهبِ وَالفِضَّةِ، خِيارُهُم فِي الجَاهِلِيّةِ خِيارُهُم فِي الإسلام**»[١٧].

٢- الحديث الآخر الوارد أيضاً عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إذا سَمِعتُم أَنَّ جَبَلاً زالَ عَن مَكانِهِ فَصدِّقُوهُ، وَإذا سَمِعتُم بِرَجُل زَالَ عَن خُلقِهِ فَلا تُصَدِّقُوهُ! فإنَّهُ سَيعُودُ إلى ما جُبِلَ عَلَيهِ**»[١٨].

الجواب:

إنّ تفسير مثل هذهِ الروايات، وبالنّظر للأدلة السّابقة، والروايات التي تصرّح بإمكانية تغيّر الأخلاق، ليس بالأمر العسير، لأنّ النّقطة المهمّة والمقبولة في المسألة أنّ نفوس الناس بالطبع متفاوتة، فبعضها من ذَهب والبعض الآخر من فضّة، ولكنّ هذا لا يدلّ على عدم إمكانية تغيير هذه النفوس والطبائع.

وبعبارة أخرىٰ: إنّ مثل هذهِ الصّفات النّفسيّة في حدّ المقتضي: ليس علّةً تامّةً، ولذلك رأينا وبالتجربة أشخاصاً تغيّرت أخلاقهم بالكامل، ويعود الفضل في ذلك للتربية والتعليم.

وبالنّسبة إلىٰ الحديث الثاني، نرىٰ أنّ المسألة أيضاً هي من باب المُقتضي، وليس علّةً تامّةً، أو بعبارة أخرىٰ: إنّ الحديث ناظرٌ لأغلبية الناس، وليس جميعهم، وإلاّ لخالف مضمون الحديث، صريح التّأريخ، الذي حكىٰ لنا قَصصاً حقيقيّةً عن أفراد استطاعوا تغيير أنفسهم وبقوا علىٰ ذلك حتّىٰ الممات.

ولخالف أيضاً التّجارب اليوميّة، التي رأينا فيها الكثير من الأشخاص الفاسدين، غيّروا طريقة حياتهم بسبب التّعليم والتربية، واستمروا يسيرون في خطّ الهداية والصّلاح حتى الممات.

وخُلاصة القول: أنّه وفي نفس الوقت الذي تختلف فيه سَجايا النّاس، لا يوجد أحد مجبور علىٰ الرّذائل والأخلاق السّيئة، وكذلك الحال بالنسبة للأخلاق الحسنة، فذَوُوا السّجايا الطيّبة إذا ما اتبعوا هواهم، سيسقطون إلىٰ الحضيض، وذَووا السّجايا الخبيثة، قادرون علىٰ بناء أنفسهم وذاتهم، من موقع التّهذيب والتزكية، والوصول إلىٰ أعلىٰ درجات الكمال الرّوحي.

ويجب التّنويه إلىٰ أنّ بعض الأفراد الفاسدين والمفسدين، ولأجل توجيه أعمالهم المخالفة للطريق السّليم، يتذرّعون بحجج واهية من هذا القبيل؛ وأنّ الله تعالىٰ قد جَبَلنا علىٰ ذلك الخُلق السّيء. وإن شاء أن يُغيّرنا لفعل!

وعلىٰ كلّ حال، فإنّ الاعتقاد بعدم إمكانيّة تغيير الأخلاق، ليس له نتيجةٌ إلاّ الوقوع في وادي الاعتقاد بالجبر، ورفض ما دعا إليه الأنبياء، والقول بأنّ سعي علماء الأخلاق وأطّباء النفس في إصلاح النفوس، هو سعيٌ غير مثمر، ويترتب علىٰ ذلك بالتّالي فساد المجتمعات البشرية.

ثالثاً: الغاية من تهذيب الأخلاق على النفس الإنسانية

الغاية في تهذيب الأخلاق هو الوصول إلى الخير والسعادة.

والخير إمّا غاية الوجود وهو المطلق أو آلة الوصول إليه وهو المضاف، لفظ الخير يحكي معنيين متناسبين وللتفرقة بينهما يمكن وصف أحدهما بالخير المطلق والثاني بالخير المضاف، والخير المضاف هو كل وسيلة توصلنا إلى الخير المطلق والفارق بينهما الوسيلة والغاية أو بين الغرض الأدنى والغرض الأقصى.

قد توصلنا الغاية إلى غاية أخرى أسمى منها فتكون الغاية الأولى خيراً مضافاً لأنّها أوصلتنا إلى الخير المطلق ولنا أن نعتبرها خيراً مطلقا أيضاً لأنّها غاية بعثنا إليها الشوق وتوصلنا إلى حصولها بالعمل.

قال المتأخّرون[١٩]: السعادة على ضربين:

أحدهما: ما يتعلق بالنفس حال تعلّقها بالبدن، وهو الأدنى، لأنّ لها في هذه الحالة جنبتين، روحانيّة وجسمانيّة. والثانية كالآلة للأولى، فما لم يستجمع فضائلها لا يتيسّر له اقتناء الفضائل الروحانية، إلا أنّ لها أيضاً مرتبتين أدناهما حصول الفضائل الجسمانيّة لها بالفعل مع الشوق التامّ إلى اقتناء الفضائل النفسانيّة، وأعلاهما حصول الفعلية والشوق كليهما لها في الفضائل النفسانيّة، إلا أنّ التفاتها إلى تنظيم العالم الجسماني واقتناء فضائله بالعرض.

والثاني: ما يتعلّق بالنفس بعد انقطاعها عنه فهي لاستغنائها حينئذ عن السعادة البدنيّة لا سعادة لها إلا المَلكات الفاضلة ومشاهدة الجمال الأقدس والاستغراق في بحار الأنوار الإلهية. والأولى لشوبها بالآلام الدنيويّة ناقصة كدرة، ولا يحصل للنفس لاحتجابها بحجاب البدن وتقيّدها بسجن الطبيعة العقل الفعلي والانكشاف التامّ واللذّة الكاملة الحقيقيّة الخالية عن الكدورات، ولو حصل لبعض المتجردين عن جلباب البدن مرّ كالبرق الخاطف، بخلاف الثانية، حيث أنّها لخلوصها عن

الكدورات المذكورة واتّصالها بعالم القدس يشاهده كما هو حقّه، وهي حينئذ سعادة أبدية لا انقطاع لها ولا زوال، فهذه أعلىٰ من المرتبة الأولىٰ، وهي السعادة الحقيقية التامّة، ولا تحصل إلا بعد مفارقة النفس عن البدن.

واعلم أنّ تفسير السعادة بالعشق أو الحبّ أو الزهد أو غير ذلك من الألفاظ المتداولة في ألسن العرفاء وعلماء الشريعة مبني علىٰ كونها من آثار المعارف الحقّة والوصول إلىٰ مرتبة الوحدة الصرفة ومشاهدة تلك الحضرة المقدسة، فهي من لوازمها الغير المنفكّة عنها، فالسعادة في الحقيقة ليست إلا تلك المعارف الحقّة كما فسّرها الحكماء الإلهيّون، وإنما وقع التعبير عن الملزوم باللازم مجازاً والمدّعىٰ واحد.

رابعاً: الفضائل الحسنة والرذيلة في القرآن

سنذكر في هذا المبحث ثلاثة موارد بشكل مختصر، والموارد كثيرة فيه والتفصيل في محله، ومنها:

أولاً: الحلم والغضب

تنويه:

الغضب كيفيّة نفسانيّة موجبة لحركة النفس إلىٰ دفع الأذيات أو التشفّي بالانتقام ونحوه، فإن كانت معتدلة كانت من فضيلة الشجاعة، وإن خرجت عن الاعتدال إلىٰ الإفراط فهو من المهلكات، وقد تشتدّ بحيث يمتلئ لأجلها الدماغ والأعصاب من الدخان المظلم فيستر نور العقل ويضعف فعله، فلا يؤثر في صاحبه الموعظة، بل تزيده غلظة.

الغضب في الروايات الإسلامية

والأخبار في ذمّه كثيرة:

فعن الصادق عليه السلام: «**الغضب مفتاح كلّ شرّ**»[٢٠]. وعن الباقر عليه السلام: «**الغضب جمرة من الشيطان [توقد] في جوف ابن آدم، وإنّ أحدكم إذا غضب احمرّت عيناه، وانتفخت أوداجه، ودخل الشيطان فيه**»[٢١]. وعن الصادق عليه السلام: «**وكان أبي يقول: أيّ شيء أشدّ من الغضب، إن الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرّم الله ويقذف المحصنة**»[٢٢]. وقال عليه السلام: «**إنّ الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتّى يدخل النار**»[٢٣]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الحدّة نوع من الجنون، لأنّ صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحكم**»[٢٤].

الحلم وسعة الصدر:

أمّا الحلم فهو طمأنينة النفس بحيث لا يزعجها الغضب بسهولة فهو المانع من حدوثه ابتداءً، ثم بعد هيجانه وظهور آثاره في جوارحه يسمّىٰ المانع من سرايته إلىٰ الغير تحلّماً وكظماً للغيظ، فهما ضدّان له، ولاشكّ في كون الحلم من شرائف الملكات، وكفاه فضلاً كونه من صفاته تعالىٰ الجمالية، واقترانه بالعلم في الأدعية والآثار ومدحه تعالىٰ أنبياءه في كتابه الكريم به.

والأخبار في الحثّ عليه ممّا لا تحصىٰ، وكذا كظم الغيظ، وكفاه فخراً عدم حصول ملكة الحلم إلا به.

ولذا قال صلى الله عليه وآله: «**إنّما العلم بالتعلّم والحلم بالتحلّم**»[٢٥].

ومدحه تعالىٰ عباده به بقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾[٢٦].

ثانياً: الصدق والكذب

الكذب في اللغة: الكذب نقيض الصدق، كذَب يكذِب كذباً وكذباً، فهو كاذبٌ وكذّابٌ وكذوبٌ، تقول: كذَّبتُ الرجل، إذا نسبته إلىٰ الكذب وأكذبته إذا أخبرت أن الذي يحدث به كذب.

الكذب في الاصطلاح: هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه سواء كان عمداً أم خطئاً.

الصدق في الآيات والروايات الإسلامية:

وقد كثر مدحه في الآيات والأخبار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٢٧]، ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[٢٨]، ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[٢٩].

وقال الصادق عليه السلام: «**إنّ الرجل ليصدق حتّى يكتبه الله صدّيقاً**»[٣٠]. وقال عليه السلام: «**من صدق لسانه زكى عمله**»[٣١]. وقال عليه السلام: «**لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإنّ ذلك شيء اعتاده، ولو تركه لاستوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته**»[٣٢]. وقال: «**إنّ علياً عليه السلام إنّما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله بصدق الحديث وأداء الأمانة**»[٣٣]. والأخبار كثيرة لا تحصى.

وأمّا الكذب هو الخبر المغاير للواقع. فإن كان باعثه الحسد والعداوة كان من رذائل الغضبية، وإن كان حبّ المال والطمع أو الاعتياد عليه من الاختلاط مع الكذّابين كان من رذائل الشهوية.

وقد يطلق على النية الغير الخالصة لله تعالى ومرجعه إلى الرياء، وعلى العزم الغير الثابت المشوب بالضعف والتردّد، فيقال: إنّه كذب في العزيمة، وقد يعزم على فعل لعدم مشقّة فيه، ثمّ إذا حصل التمكّن وهاجت الشهوات انحلّت العزيمة فيقال: إنّه كذب في الوفاء بها، ولعلّهما من رذائل الشهويّة.

وقد يستعمل في الأفعال إذا دلّ ظاهرها على ما يخالف الباطن، ويمتاز حينئذ عن الرياء باعتبار عدم الخلوص لله فيه دونه، إذ ربّ واقف على هيأته خاضع لله في صلاته لا ينوي بها غيره تعالى.

الكذب في الآيات والروايات الإسلامية:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إيّاكم والكذب فإنّ كلّ راج طالب، وكلّ خائف هارب**»(٣٤).

وقال الصادق عليه السلام لمّا قيل له قوم يعملون المعاصي ويقولون نرجوا فلا يزالون كذلك حتّى يأتيهم الموت: «**هؤلاء قوم يترجّحون بالأماني، كذبوا هؤلاء ليسوا براجين، إنّ من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه**»(٣٥).

فقد تبيّن من ذلك أنّ مجرّد الإقرار بالشهادتين مع فقد اليقين الحقيقي والتعظيم لله ورسله وأوليائه والاهتمام في امتثال أوامرهم ونواهيهم كذب في دعوى الإيمان.

ثمّ إنّ الكذب من أقبح الذنوب وأشنعها، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾(٣٦) ﴿**فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾(٣٧).

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**المؤمن إذا كذب بغير عذر لعنه سبعون ألف ملك، وخرج من قلبه نتن يبلغ العرش، وكتب الله عليه بتلك الكذبة سبعين زنية أهونها كمن يزني بأمّه**»(٣٨). وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يجد العبد طعم الإيمان حتّى يترك الكذب هزله وجدّه**»(٣٩). وقال عليّ بن الحسين عليه السلام: «**اتّقوا الكذب الصغير منه والكبير في كلّ جدّ وهزل، فإنّ الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير**»(٤٠). وقال الباقر عليه السلام: «**إنّ الله تعالى جعل للشرّ أقفالاً، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب،**

والكذب شرّ من الشراب»[٤١]. وعن العسكري عليه السلام: «**جُعلت الخبائث كلّها في بيت وجعل مفتاحها الكذب**»[٤٢]. إلى غير ذلك ممّا لا يحصى.

علاجه:

بعد التفكّر فيما ورد في ذمّه وما يترتّب عليه من الهلاك الأبدي وسقوط الكاذب في الدنيا عن القلوب، فلا يعتني أحد بقوله، وما يترتّب عليه من الخجلة والافتضاح، حتّى إنّه تعالى يسلّط عليه النسيان، كما ورد في الأخبار، والتذكّر لما ورد في مدح الصدق ـ أن يقدّم التروّي إذا أراد الكلام، فإن كان كذباً هجره تكلّفاً حتّى يعتاد عليه، وأن يجالس الصادقين، ويحترز عن الاختلاط مع الكذّابين.

ثالثاً: البخل والسخاء

تنويه:

إنّ النعم والمواهب الإلهية على الإنسان تكون في كثير من الموارد أكثر من حاجة الإنسان نفسه بحيث يمكنه أن يسهم الآخرين بها ويشاركهم في الاستفادة منها بدون أيّ ضرر يلحق به، ولكن بعض الناس وبسبب البخل يمتنعون من ذلك.

البخل في الآيات والروايات الإسلامية:

وقد نهى الله ورسوله عنها، فقال: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا**﴾[٤٣]. وقال: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا**﴾[٤٤].

والأوّل من نتائج حبّ المال، ومن رذائل القوّة الشهويّة من طرف الإفراط، ويترتّب عليه مفاسد دينية ودنيوية يشهد بها الوجدان، ويؤدّي إلى الحرمان عن صنوف السعادات من وجوه الخيرات والقربات وقسوة القلب وزوال المروءات بحيث

يسري إلى الغير ممّن ينظر إليه ويتسلّط الناس بسببه على عرضه وماله وغير ذلك من الآفات، وكفاه ذمّاً استعاذة الأئمّة عليهم السلام عنه في الدعوات.

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «**الشحّ والإيمان لا يجتمعان في قلب واحد**»[٤٥]. «**وما من صباح إلا وكّل الله تعالى به ملكين يناديان: اللّهمّ اجعل لكلّ منفق خلفاً ولكلّ ممسك تلفاً**»[٤٦]. وقال صلى الله عليه وآله: «**حلف الله بعزّته وجلاله لا يدخلن الجنّة شحيح ولا بخيل**»[٤٧].

إلى غير ذلك من الآيات والأخبار.

علاجه:

يتمّ بالعلم بمفاسده وآفاته، وما ورد في ذمّه، والعمل من البذل والإنفاق [تكلّفاً إلى أن يعتاد عليه، وإذا هاجت رغبته إلى الإنفاق] فلا يتوقّف ولا يعطي الشيطان فرصة بتوعيده الفقر وتخويفه بأنواع الوساوس فيمنعه عنه.

ومن معالجاته تحبيب الجاه والشهوة والعزّة بجلب القلوب إلى نفسه بالجواد والسخاء، فيبذل ولو بقصد الرياء حتّى يعتاد نفسه على السخاوة، ثم يعالج رياءه بما ذكر في علاج تلك الرذيلة، وهذا من قبيل المعالجة السميّة، فإنّ ذمائم الأخلاق ممّا ينبغي أن يسلّط بعضها على بعض حتّى يندفع الجميع فتكسر سورة الشهوة بالغضب وبالعكس، وهذه عادة جارية من الله سبحانه وتعالى في دفع المؤذيات كتسليطه الظالمين بعضهم على بعض. ومثاله كما قيل إنّ الميّت يستحيل دوداً ثم تأكل الديدان بعضها بعضاً إلى أن تنحصر في اثنين قويّين فيتغالبان إلى أن يقتل أحدهما الآخر. فيأكله ويسمن به، ثم يبقى جائعاً فيموت. فكذا المتّصف بذمائم الصفات يدفع بعضها ببعض إلى أن ينحصر في واحدة، فيسهل إزالتها بعد ذلك.

وأنفع العلاج في إزالة البخل إزالة سببه، أعني حبّ المال بإزالة أسبابه التي أشرنا إليها.

تنويه:

وأمّا السخاء فهي ملَكة شريفة بها يسهل الإنفاق فيما يليق به، وكفاه فضلاً كونه من أظهر صفات الأنبياء والأوصياء، كما قال الكاظم عليه السلام: «**ما بعث الله عزوجل نبيّاً ولا وصيّاً إلا سخيّاً، ولا كان أحد من الصالحين إلا سخيّاً**»[٤٨].

فلا يكفي مجرّد الإنفاق إذا لم يكن عن طيبة نفس، بل يكون حينئذ متسخيّاً إلا أنّه سبيل للوصول إليه، إذ لا تحصل الملكة إلا بتكرّر الفعل تكلّفاً حتّىٰ يعتاد عليه.

ثم إنّ له مراتب كثيرة، فمن أدّىٰ واجب الشرع والمروّة، [والعادة] ممّا يستقبح المضايقة فيها عرفاً كان في أوّل درجة من السخاء، ثم يترقّىٰ بالازدياد بقدر ما يتّسع له نفسه طلباً للفضيلة علىٰ درجات مختلفة باختلاف قدر المال وحاجة المحتاجين وفضلهم وورعهم وقرابتهم وغير ذلك، ويسمّىٰ في جملة هذه الدرجات جواداً إذا كان قصده مجرّد الفضيلة دون الأغراض الدنيوية من الخدمة والثناء وغيرهما، وأرفعها الإيثار، كما قال تعالىٰ:

﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[٤٩]. وإيثار الإمام علي عليه السلام لنفس رسول الله صلى الله عليه وآله علىٰ نفسه في ليلة المبيت علىٰ الفراش وسائر معاركه وغزواته مشهور، حتّىٰ أنزل الله في حقّه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ**﴾[٥٠].

وكذا إيثاره عليه السلام لقوته في ثلاث ليال متواليات حتّىٰ أنزل الله فيه: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾[٥١].

فمن أراد الاقتداء به واتباع منهاجه فليجتهد في المحافظة عليه مهما أمكنه.

فقد ورد في الخبر: «**أنّ موسى عليه السلام قال: يا رب أرني بعض درجات محمد صلى الله عليه وآله وأمّته، قال: يا موسى إنك لن تطيق ذلك، لكني أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة**

فضلته بها عليك، وعلى جميع خلقي، فكشف له عن ملكوت السماوات فنظر إلى منزلة كادت أن تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى فقال: يا رب بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة؟ فقال: بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار، يا موسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته وبوأته من جنتي حيث يشاء»[٥٢].

واعلم أنّ بذل الأموال المترتب علىٰ الجود والسخاء يتناول ما أوجبه الشارع كالخمس والزكاة والكفارات والنذورات والواجب من النفقات وما ندب إليه من تطوع الصدقات وأنواع الهدايا والضيافات والحقّ المعلوم والقرض، وما يبذل لحفظ الحرمة ووقاية العرض والمنافع العامة، وما يجري من الخيرات كالمساجد والمدارس وإجراء القنوات ونسخ المصاحف والكتب العلمية وغيرها ممّا فصل أحكامها في الفقهيات، ووردت في فضلها الأخبار الكثيرة، مضافاً إلىٰ الآيات، فلا نتعرض لها خوفاً من التطويل والإطناب، وإنّما نذكر قليلاً مما لها من الغايات والأسرار الدقيقة وبواطن الآداب، فنقول:

غايات وآداب:

من جملة غاياتها امتحان الموحدين لله، المدعين لحبه، المؤمنين بمواعيده في فراق محابهم التي يتمتعون منها ويتأنسون في عالم الحس بها والمدعين لمحبة رسوله وذريته الطاهرين وأداء حقوقهم في النصح والهداية، ثم تطهير النفس عن رذيلة البخل التي هي من خبائث الملَكات المهلكات كما أشرنا إليه، فإنّها لا تطهر إلا بتكلّف الذل وتكريره حتّىٰ تعتاد فتبدّل ملَكة البخل بملَكة السخاء، ثم شكر المنعم المفضل، فكما يستحقّ بإعطاء نعمة البدن الشكر بالعبادة البدنية والمجاهدات النفسيّة فكذا يستحقّ بإعطاء نعمة المال الشكر بالعبادة المالية، وما أقبح بالغنيّ المسلم أن ينظر

إلىٰ فقير محتاج إلىٰ القوت فلا يؤدّي حق الشكر لله علىٰ عدم جعله مثله في الاحتياج.

ومن جملة فوائدها تكفير مظالم العباد التي ركبته في معاملاته معهم بها، وفي خصوص الكفّارات تأديب العاصي بالرياضات علىٰ ما صدر منه من الخطأ والسيّئات ومقابلة المعاصي الصادرة عنه التي استحقّ بها العقاب، وازدياد النعم التي لم يستحقّها، ودفع البلايا والمصائب الدنيوية التي استحقها بدعاء الفقراء المؤمنين، وهذا كما أنّه السرّ في ترغيب الأغنياء في إعانة الفقراء والمساكين فكذلك هو السرّ في اختيار الفقر كثير من أوليائه الصالحين، كما أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السلام لمّا شكا إليه تعالىٰ من إجراء رزقه علىٰ أيدي بني إسرائيل : «**هكذا أصنع بأوليائي أجري أرزاقهم على أيدي البطّالين من عبادي ليؤجروا فيهم**»(٥٣).

ثمّ من أعظم الغايات حصول التشبّه بالمبدأ بسببه ومدخليّته في النظام الأصلح.

وأمّا الآداب الباطنة للصدقات فمنها اغتنام الفرصة بخطور الخير من باطنه تعجيلاً لإدخال السرور في قلب الفقير وحذراً من عوائق التأخير آفاتها التي معظمها لمّة الشيطان حيث يعد الفقر ويبتلي العبد بالنسيان، وصون الفقير عن ذلّ السؤال حتى يتحقّق الإحسان، والا فهي معاوضة بما بذله من ماء وجهه، كما ورد في الأخبار.

ومنها: إعلان المعطي بواجبها ترغيباً للناس بالاقتداء به إن لم يستح الفقير منه وأمن المعطي من الرياء، كما ورد النصّ به، وإسراره بمندوبها، كما ورد أيضاً إلا مع اطمئنان النفس عن آفات الإعلان والقصد إلىٰ ترغيب الناس عليه.

وأمّا الآخذ فيختلف حكمه باختلاف الأحوال والأشخاص الموجب لاختلاف القصد، فإنّ بعض النفوس تميل إلىٰ الإسرار خوفاً من سقوط منزلتها عند الناس، أو إفضاء علمهم به إلىٰ عدم إعطائهم إيّاه بعده وبعضها تميل إليه لإبقاء التعفّف

وستر المروءة وصيانة الناس عن الحسد وسوء الظنّ والغيبة، وبعضها تميل إلى الإظهار حثاً للمعطي على الزيادة بتطييب خواطره وللناس على الإعطاء بإعلامهم كونه من المبالغين في شكر الإحسان، وبعضها تميل إليه لإقامة سنّة الشكر والتحدّث بالنعمة، وإذلال النفس بكسر جاهها وغير ذلك من الأغراض الصحيحة والفاسدة.

ولكلّ منها علامات بها يمكن التمييز، بعضها ظاهرة وبعضها خفيّة، كميل النفس إلى الشكر في حضور المحسن أكثر من غيبته وبالعكس وغير ذلك.

فالأولى أن يلاحظ ويعلم ما هو الأقرب إلى خلوص النيّات وأبعد عن دقائق الآفات التي تشتبه كثيراً على أرباب الكياسات، فإنّه العلم الذي به يحصل النجاة، وهو الذي فضّل قليل منه على كثير من العبادات، فإنّ به حياتها كما أنّ بجهله مماتها.

ومنها: الاحتراز من المنّ بالإظهار عند الناس، وطلب المكافأة بالشكر والمدح والتعظيم والخدمة والمتابعة وغيرها [والأذى] بالتحقير والتعيير والإهانة وتقطيب الوجه والقول السيّء والاستخدام.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ**﴾[٥٤].

والأخبار كثيرة، وما أشدّ جهل من يمنّ على الفقير [أو يؤذيه] أو يستعظم ما يعطيه مع أنّه لا يعطيه إلا من ماله الذي أودعه الله إيّاه وجعله حمّال متاعبه لجهله وحماقته، كما عليه قولهم عليهم السلام: «**إنّ الله شرّك الفقراء في أموال الأغنياء**»[٥٥].

ولو سلّم فلا ريب أنّه من عطائه تعالى، فلو أعطيت عبداً لك أموالاً كثيرة فأمرته بإعطاء قليل منها لغيره ووعدته عليه أضعاف ذلك من الجزاء الجزيل والأجر الجميل، فلو منّ عليه في ذلك كان منّه في غاية القباحة، بل كان العبد في غاية الحمق والوقاحة، ولو تأمّل علم أنّ الأمر بالعكس، فإنه استحقّ بواسطته من رضا الله وحسن ثوابه ما لا يمكن أن ينسب إلى الدنيا بما فيها، فكان الأولى بحاله

الاعتذار عنه والامتنان منه والتواضع والانكسار لديه، وإظهار الخجليّة من قلّة ما أهدىٰ إليه، سيّما بالنسبة إلىٰ الذرّية العلويّة احتراماً لأجدادهم سادات البريّة، وتأسّياً بالله تعالىٰ في ذلك، حيث شرّكهم بنفسه إعظاماً لهم وإكراماً، فليكن احترازه من الاستعظام ووضع المنّة عليهم أكثر، وتواضعه بالنسبة إليهم أوفر.

ومنها: إعطاء الأحبّ إليه الأبعد عن الشبهة، فإنّه تعالىٰ طيّب لا يقبل إلا ما يكون أطيب، فمن يدّخر الطيّب لنفسه وينفق الري في سبيل ربّه إن كان قصده في الإنفاق هو وجه الله خاصّة كان مؤثراً لنفسه عليه تعالىٰ، وإن كان طمع الثواب في الآخرة كان مؤثراً للملك العارية علىٰ الملك الذي لا يفنى، ولو فعل ذلك بضيف ورد عليه لكان من أقبح الإهانة، فكيف يفعل بالله سبحانه مع كون ما يعطيه منه تعالىٰ، وقد أرشد الله إلىٰ ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾[٥٦]. وقال: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٥٧].

وقد ورد في الأخبار التماس الدعاء من الفقراء، وأنّه يستجاب لهم فيكم ولا يستجاب لهم في أنفسهم.

وقيل: إنّه نوع جزاء، وأرباب القلوب لا ينفقون إلّا خالصاً لوجه الله، لا يريدون جزاءً ولا شكوراً.

والحقّ أنّ التماس الدعاء حقيقة طلب مكافأة من الله تعالىٰ لا من السائل، إذ مطلوب المعطي فعل الله تعالىٰ، فإنّ الإجابة منه سيّما إذا كان القصد الباعث علىٰ الالتماس ورود الأمر به شرعاً وكون الدعاء الملتمس رضا الله تعالىٰ عنه.

ومنها: أن يكون إعطاء واجب الصدقات للمستضعفين من الشيعة دون خلّص المؤمنين والعلماء المتّقين العارفين بآل محمد حقّ المعرفة واليقين، فإنّها أوساخ الناس فلا يرضىٰ لهم بها.

وفي الخبر عن الصادق عليه السلام: «فأمّا من قويت بصيرته وحسنت بالولاية لأوليائهم والبراءة من أعدائهم معرفته فذلك أخوكم في الدين أمسّ بكم رحماً من الآباء والأمّهات المخالفين، فلا تعطوه زكاة ولا صدقة، فإنّ موالينا وشيعتنا منّا كالجسد الواحد، يحرم على جماعتنا الزكاة والصدقة، وليكن ما تعطونه من إخوانكم المستبصرين البرّ وارفعوهم عن الزكاة والصدقات، ونزّهوهم عن أن تصبّوا عليهم أوساخكم، أيحبّ أحدكم أن يغسل وسخ بدنه ثم يصبّ على أخيه المؤمن؟ إنّ وسخ الذنوب أعظم من وسخ البدن ...»[٥٨].

فليخصّ بالهدايا والصلات من أطيب ماله كما ذكرنا من كان من أهل المزيّة والاختصاص بشدّة اليقين بالله تعالىٰ دون الأكثر الذين لا يؤمنون بالله إلا وهم مشركون، فيقولون من ضعف يقينهم: لولا فلان لهلكت، لولا فلان ما أصبت، كما ورد عن الصادق عليه السلام، وبالستر والعفاف وتحمّل مشاقّ الفقر في سبيل الله تعالىٰ. وليخصّ من بينهم الأقارب وذوي الأرحام المحتاجين، حتّىٰ يجمع فضيلتي الإنفاق وصلة الرحم معاً، فقد ورد: «لا صدقة وذو رحم محتاج»[٥٩].

ومنها: إنفاق المعيل علىٰ عياله والتوسعة عليهم خالصاً لوجه الله، إذ لا عمل إلا بنيّة، واحترازه عن الوجوه المحرّمة والمشتبهة واقتصاده في التحصيل والإنفاق حتى لا يضيّعهم ولا يضيع بهم ومراعاته التساوي بينهم في كيفيّة الإنفاق وكمّيته، بل لا يفضّل نفسه عليهم فيهما.

ومنها: قصد امتثال الأمر والتسنّن بسنّة الرسول صلى الله عليه وآله والاستئناس والموادّة مع الإخوان في الهدايا والضيافات دون الرياء والمباهاة. وتخصيص الفقراء والأتقياء والجيران والأقارب بالمزيد. ويهتمّ في إكرام الضيف بالتواضع وطيب الكلام، ونفاسة الطعام وسائر ما ينبئ عن الاحترام بدون الإسراف الحرام.

ومنها: قصد الامتثال والثواب في الإقراض، ودفع ضرورة أخيه المؤمن بطلاقة وجه، ويسر كلام، وسهولة قضاء، وترك الطلب ما لم يعلم أنّه قادر على الأداء، وإبراء ذمّته مع العلم بعجزه، كما وردت به النصوص.

القسم الثاني من البحث يأتي في العدد القادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله ربّ العالمين.

الهوامش:

(١) سورة الحديد: ٢٩.

(٢) سورة الإسراء: ٢٩.

(٣) سورة الفرقان: ٦٧.

(٤) سورة آل عمران: ١٩٦.

(٥) سورة البقرة: ١٥٤.

(٦) الطبرسي، مجمع البيان، ج١، ذيل الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

(٧) بحار الأنوار، ج٦، ص ٢٦٨ و٢٨٧.

(٨) سورة الجمعة: ٢.

(٩) الكافي، ج١، ص١٥٥.

(١٠) سورة الشمس: ٩-١٠.

(١١) بحار الأنوار، ج١٠، ص٣٦٩.

(١٢) بحار الأنوار، ج٧١، ص٣٨٥.

(١٣) الآمدي، غرر الحكم، ص١٣٦، ح٣٤٩١- ٣٤٩٢.

(١٤) المحجة البيضاء، ج٥، ص٩٣.

(١٥) القمي، سفينة البحار، مادة خلق، ص٦٧٧.

(١٦) غرر الحكم، ص٢٢٩، ح٦٢٦٠.

(١٧) الكافي، الكليني، ج١٥، ص٤٢٢.

(١٨) النراقي، جامع السعادات، ج١، ص٢٤.

(١٩) القزويني، الغرة الغراء، ص٣٩.

(٢٠) الكافي، الكليني، ج٢، ص٣٠٣، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، ح٣.

(٢١) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠٤- ٣٠٥، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، ح٣.

(٢٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠٣، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، ح٤.

(٢٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، ح٢.

(٢٤) نهج البلاغة، الحكمة ٢٥٥، ص٧٠٥.

(٢٥) المحجة البيضاء، ج٥، ص٣١١.

(٢٦) سورة آل عمران: ١٣٤.

(٢٧) سورة التوبة: ١١٩.

(٢٨) سورة آل عمران: ١٧.

(٢٩) سورة الأحزاب: ٢٣.

(٣٠) الكافي، الكليني، ج٢، ص١٠٥، كتاب الإيمان والكفر، باب الصدق وأداء الأمانة، ح٨.

(٣١) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٤، كتاب الإيمان والكفر، باب الصدق وأداء الأمانة، ح٣.

(٣٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٥، كتاب الإيمان والكفر، باب الصدق وأداء الأمانة، ح١٢.

(٣٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٤، كتاب الإيمان والكفر، باب الصدق وأداء الأمانة، ح٥.

(٣٤) الكافي، الكليني، ج٢، ص٣٤٣، كتاب الإيمان والنذر، باب الكذب، ح٢١.

(٣٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٦٨، كتاب الإيمان والنذر، باب الخوف والرجاء، ح٥.

(٣٦) سورة النحل: ١٠٥.

(٣٧) سورة التوبة: ٧٧.

(٣٨) البحار، ج٧٢، ص٢٦٣. نقلاً عن جامع الأخبار، مع اختلاف.

(٣٩) الكافي، الكليني، ج٢، ص٣٤٠، كتاب الإيمان والكفر، باب الكذب، ح١١.

(٤٠) الكافي، الكليني، ج٢، ص٣٣٨، كتاب الإيمان والكفر، باب الكذب، ح٢.

(٤١) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٣٩، كتاب الإيمان والكفر، باب الكذب، ح٣.

(٤٢) بحار الأنوار، ج٧٢، ص٢٦٣. نقلاً عن جامع الأخبار.

(٤٣) سورة الإسراء: ٢٩.

(٤٤) سورة الفرقان: ٦٧.

(٤٥) جامع السعادات، ج٢، ص١١٢.

(٤٦) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٤.

(٤٧) المحجة البيضاء، ج٦، ص٧٤.

(٤٨) الكافي، ج٤، ص٣٩، كتاب الزكاة، باب معرفة الجود والسخاء، ح٤.

(٤٩) سورة الحشر: ٩.

(٥٠) سورة البقرة: ٢٠٧.

(٥١) سورة الإنسان: ٨.

(٥٢) المحجة البيضاء: ج٦، ص٨٠.

(٥٣) المحجة البيضاء، ج٧، ص٣٣٦.

(٥٤) سورة البقرة: ٢٦٤.

(٥٥) وسائل الشيعة، كتاب الزكاة، الباب ٢ من أبواب المستحقين للزكاة، ح ٤.

(٥٦) سورة البقرة: ٢٦٧.

(٥٧) سورة آل عمران: ٩٢.

(٥٨) المحجة البيضاء، ج٢، ص٩٣. نقلاً عن الإمام العسكري عليه السلام في التفسير.

(٥٩) وسائل الشيعة، كتاب الزكاة، الباب ٢٠ من أبواب الصدقة، ح٤.

الصبـــر

الشيخ محمد حميد أحمد

هذا بحث موجز حول صفة من الصفات المهمّة والمؤثرة على إيمان الإنسان وعلى حياته ومسيرته، ألا وهي صفة الصبر.

تعريف الصّبر لغة واصطلاحاً:

الصّبر لغة: هو نقيض الجزع كما في كتاب العين[1].

واصطلاحاً: هو مقاومة المكاره على الأعم من المحرّمات والمباحات، قال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم**﴾؛ أي: احبس نفسك معهم ولا ترغب عنهم إلى غيرهم[2]؛ فالصّبر حبس النفس على المكروه وتحمُّل ما ينوبها أو قسر النفس على مقتضيات الشرع والعقل أوامر ونواهي[3].

أقسام الصبر:

تقدّم في تعريف الصّبر أنّه: حبس النفس عن الهوى مع مراعاة تكليف المولى، وهو على أنواع وتقسيمات مختلفة. فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الصّبر صبران: صبرٌ على ما تكره، وصبرٌ عمّا تُحبُّ**»[4]، ففي الأمور الاختيارية فهو إمّا على ما تكره النفس وإمّا على ما تحبه، والشّق الأول من الرواية عبارة عن مقاومة النفس للمكاره الواردة عليها وثباتها في مقابلها، وعدم تأثرها، وعدم انفعالها، وقد يعبَّر عن ذلك

بالشجاعة وسعة الصدر أيضاً، والشّق الثاني عبارة عن مقاومة النفس لمدافعة القوىٰ الشهوانية والغلبة عليها بالعقل والفكر.

وعنه عليه السلام: «**الصّبر إمّا صبرٌ على المصيبة، أو على الطاعة، أو عن المعصية**»، وهذا القسم الثالث أعلىٰ درجة من القسمين الأوّلين[٥].

الصّبر في الإنسان قد يكون من طبيعته وجبلّته؛ فإنّنا نرىٰ بعض الأفراد يصبر علىٰ ما يرد عليه من المكاره ويتحمّل من المشاق ما لا يقدر غيره علىٰ تحملها، وقد يكون بالاكتساب والمصابرة، وهذا أفضل من القسم الأول، وهو موضوع منازل السائرين إلىٰ اللّه تعالىٰ في سيرهم وسلوكهم، وأهم عمادهم في التخلية عن الرذائل، والتحلية بالفضائل، والتجلية بالتخلّق بأخلاق اللّه تعالىٰ.

كما أنّ الصّبر عن الشيء تارة يكون مع وجود المقتضي وفقد المانع خارجاً، وأخرىٰ مع الميل النفساني وعدم المقتضي، وثالثة مع الميل ووجود المانع، وتختلف مراتب فضل الصّبر باختلاف هذه المراتب. وللصبر أنواع وأفراد كثيرة كلّها من الفضائل، ولكلّ فرد اسم مختص به، وضد كذلك: فيسمّىٰ الصّبر في الحرب شجاعة وضدّه الجبن، وفي المصيبة الصّبر-قول مطلق- وضدّه الجزع، وفي الحوادث المضجرة رحابة الصدر وضدّه الضجر، وفي الكلام كتماناً وضدّه الإذاعة والإفشاء، وإن كان الصّبر عن المفطرات سمّي صوماً وضدّه الإفطار، وعن شهوة البطن والفرج سمي عفّة وضدّه التهتّك، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمّي حلماً ويضادّه التّذمّر، وقد سمّىٰ اللّه تعالىٰ كلّ ذلك صبراً، وأشار إليه سبحانه في قوله: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾[٦].

عطاءات وثمرات الصبر:

هو أمّ الفضائل وأصل مكارم الأخلاق ومنه تتفرّع المواهب والمكارم؛ فكما أنّ (الحيّ القيّوم) أمّ الأسماء الحسنى ومنهما تتفرع سائرها، كذلك يكون الصّبر فهو

حقيقة المقاومة مع المكاره والشهوات والمشتهيات، والاستقامة مع ما يرتضيه العقل والشرع من محاسن الأخلاق والوصول إلى المعارف والكمالات والمواظبة على الواجبات وترك المحرمات فهو طريق للوصول إلى الكمالات.

وقد اعتنى الله تعالى به اعتناءً بليغاً، فقد وردت مادة (صبر) في القرآن الكريم فيما يقرب من مائة موضع! ولم يرد فضيلة أكثر ذكراً منه فيه، قال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[٨]، وورد أمر الاستعانة في قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ**﴾[٩].

إنَّ من أهم ما يعطيه الصّبر هي تلك العلاقة الوثيقة بين الصّبر والإيمان والتي عبّر إمام المتقين عليه السلام عنها أنّها بمنزلة الرأس من الجسد! فعنه عليه السلام: «**.. والصّبر في الأمور بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا فارَقَ الرأسُ الجسدَ فَسَد الجسد، وإذا فارق الصّبر الأمورَ فَسَدت الأمور**»[١٠]، وللرأس في الإنسان رئاسة البدن، والرأسُ مِن كلِّ شيءٍ أعلاه، يهديه إلى الهدف من طريقٍ سليم، ويَحفَظه من المزالق والمهاوي والسقوط، ومن هنا يتبيّن ولو بمقدار بسيط عِظم الصّبر بالنّسبة إلى الإيمان والعلاقة الوثيقة بينهما، وما قيمة الإيمان والدين بلا صبر -تعرف الأشياء بأضدادها-، فمع عدم وجود الصّبر نتصوّر الولوج في المحرّمات والجزع من البلاءات، والقنوط من رحمة الله، والخنوع والذلّ للسلطان، فكلٌّ هذا من وراء عدم وجود الصبر!

وهذا ما يحتاج إلى تأمّل وعزم للمحافظة على الصّبر بعد معرفة أهميته، بل إنّ بعض النصوص عبّرت أنّه هو الإيمان فكأنّما هو روحه وحقيقته.

وقد أشار نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله إلى عظيم منزلته لمّا سُئل عن الإيمان، فقال صلى الله عليه وآله: «**هو الصبر**»[١١]! كما جعله جزء الإيمان، فقال صلى الله عليه وآله: «**الإيمان نصفان؛ فنصف صبر، ونصف شكر**»[١٢]، وقال صلى الله عليه وآله: «**ما أعطي عطاء خيراً له وأوسع من الصبر**»[١٣].

من ثمار الصّبر النصر على الأعداء:

ومع كلٍّ ما تقدّم فإنَّ على مقدار الصّبر تلقى الأجر، ربما يكون اختلاف الثواب والجزاء عليه في القرآن الكريم لأجل اختلاف درجات الصبر، فهو تعالى يخبر بأنّه: ﴿**يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾[١٤]، ومحبته تعالى لشيء من أعلى المقامات وأجلها.

وأنّه مع الصابرين، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[١٥]، وأنّه بشّر الصابرين، فقال تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾[١٦]، وأنّه خير لهم، فقال تعالى: ﴿**وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**﴾[١٧]، وأخرى: يخبر بأنّ لهم الثواب الجزيل فقال تعالى فيهم: ﴿**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾[١٨].

ويخبر تارة بمضاعفة الأجر لهم، فيقول تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾[١٩]، وأخرى: أنّ لهم الأجر بلا حساب، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[٢٠][٢١].

ومن الثمار أيضاً: أنّ الصّبر لولاه لانهار الإنسان، وغدا صريع الأحزان والآلام، من أجل ذلك حرّضت الآيات والأخبار على التحلّي بالصّبر والاعتصام به، قال تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾[٢٢].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القَدرُ، وأنت مأزور**»[٢٣].

فكلُّ مقدّر كائن وواقع ولا مفر، فالصّبر خير ما استعمله الممتَحن فإذا لم أصبر فماذا أصنع؟ فإن جزعتُ جرّعتُ نفسي مرارتين، مرارة ألم البلاء ومرارة خسارة الجزاء، ولا أعين على نفسي بالجزع، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**لا تعُدّنَّ مُصيبةً أعطِيتَ عليها الصّبر واستوجبتَ عَلَيها مِنَ اللهِ ثواباً بمصيبةٍ، إنّما المُصيبةُ التي يُحرمُ صاحِبُها أجرَها وثَوابها إذا لَم يَصبِر عند نُزولها**»[٢٤].

تعرف الأشياء بأضدادها، ومن الواضح أنَّ ما يجرّد المرء من فضيلة الصبر، ويخرجه عن التجلّد، هو الجزع المفرط.

هل يضعفُ صاحب الإيمان والصبر؟

من آثار صبر المؤمن هو صموده وعدم تزلزله أمام الأعداء وإغراءاتهم؛ ففي كربلاء يتجلّى الصّبر وعدمه، فأمّا من صبر كان مثالاً لقول الإمام عليه السلام «**من كان باذلاً فينا مهجته موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا**»[٢٥]، فكلّ من كان مع الإمام الحسين عليه السلام في يوم العاشر كان علىٰ هذا الوصف العظيم، فالإيمان ليس البكاء والمشاعر والألفاظ وحسب، وعدم الصّبر تحقق في عمر بن سعد "عليه لعائن الله" عندما لم يصبر علىٰ إغرائه بحكم الريّ ولو كان بسفك ريحانة ومُهجة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**لمّا اشتدّ الأمر بالحسين بن علي نظر إليه من كان معه فإذا هو بخلافهم؛ لأنّهم كلّما اشتدَّ الأمرُ تغيّرت ألوانُهم، وارتعدت فرائصُهم، ووجبَت قُلوبهم، وكان الحسين وبعض من معه من خصائصهِ تُشرِقُ ألوانُهم، وتهدأ جوارحُهم، وتسكن نفوسُهُم**»[٢٦]، فعند تضايق حُلَقِ البلاء واشتدادها يظهر في قلب المؤمن المُتعلّق بالله لطفُ الله وقربه منه، بل قد لا تمرُّ عليه لحظات كتلك التي عاشها في أنسه مع الله في عمق البلاء، بل قد يطوي العبد في ذلك البلاء مسير عشر سنوات فيما لو تقرّب إلى الله بالأعمال الصالحة وهو في الرخاء.

وموقف آخر مع ابنة يعسوب الدين أم المصائب زينب عليها السلام، في جوابها علىٰ ذلك اللعين عندما قال لها: كيف رأيت صنع الله فيكم؟ فقالت عليها السلام: «**ما رأيت إلاّ جميلاً**»[٢٧].

المعرفة أولى طرق الحصول على الصبر:

أوّل ما يحتاج إليه المؤمن هو المعرفة وإدراك خطورة الشيء وبقدر معرفة أهمية الصّبر تكون العزيمة والهمّة، وهذا ما ذُكر ضمناً فيما تقدّم من علاقة الصّبر بالإيمان، وأنّه بمنزلة الرأس من الجسد، وفيما عُرِض كان في غالبه مُنصبّاً على تكليف نفس العبد إلا أنّ هناك تكليفاً أكبر قد يقع على عاتق العبد بحمل مسؤولية أمّة، قد ينخدع الإنسان بحسن ظاهره ومدح الآخرين له متغافلاً عمّا في نفسه من ضعف صبر ويقين، ولكن لا يستيقظ من غفلته إلاّ عند وقوعه أو سقوطه في الامتحان.

والكلام عن الصّبر والبلاء وغيره ممّا يحتاج إلى الصبر شدّة وضعفاً هو بمرتبة من المراتب؛ تكلّمُ عن الاستعداد للموت فعلاً، صحيح أنّه لا يوجد قياس بين بلاء بمرض وبين سكرة من سكرات الموت إلاّ أنّه هناك من البلاءات ما تكون مصيريّة على دينه، بل وعلى مجتمعه كما حدث لصاحب الإمام الكاظم عليه السلام وثقته محمد ابن أبي عمير عندما سُجن وعُذّب بصنوف الأنواع ليعترف بأسماء الشيعة، فالموقف خطير وحساس، وكما يُذكر في الروايات أنّه كاد أن يعترف حتى أحسّ صاحبه الذي كان قبله بفترة موجوداً في نفس السجن وهو محمد بن يونس بن عبدالرحمن فقال له: اتقِ الله، فثبت، وفي قبال هذه الحادثة ما حصل مع شريح القاضي وما سببته شهادته في إخماد قبيلة هانئ بن عروة، والتي لولاها لأمكن أن تتغيَّر الكثير من الأمور في كربلاء وغيرها من الحوادث التي امتُحن فيها الشيعة مع حجّة زمانهم، فمن كان مستعدّاً للموت ذاكراً له في كل حين تسهل عليه كثيراً مسألة الصبر، فالعبد لا يعلم بأيّ امتحانٍ يبتلى، وطبعاً لن يكون هناك إنذار، ومن الغفلة ألاّ نستعد وكأنّ المخاطب به غيرنا.

والاستعداد للصبر والموت هو أيضاً استعدادٌ لنصرة صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف، فما هو المقدار الواجب تحصيله من الإيمان والصبر؟ هل أكتفي بمستوى

سطحي من الإيمان؟ هل أكتفي بعنوان محبّة أهل البيت عليهم السلام وأنا لستُ أهلاً للاعتماد في دولة الظهور، ولا أعمل ما يُقربني إليهم، بل لا أعيش همّ الانتظار؟!

والابتلاء في زمان ظهور الإمام والاستعداد لدولته هو شيء عظيم، ففي رواية تبيّن شدّة الأمر في زمن الغيبة ما ذكر في كتاب الغيبة للنعماني عن الإمام الصادق عليه السلام: «**مع القائم من العرب شيءٌ يسير**»، فقيل له: إنّ من يصف هذا الأمر منهم لكثير! قال: «**لا بد للناس من أن يُمَحّصوا ويميّزوا ويغربلوا، وسيخرجُ من الغربالِ خلقٌ كثير**»[٢٨].

ومع هذا الامتحان الشديد يرىٰ القارئ عجيب الأوصاف في أصحاب الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف الذين يظهرون معه، ولعلَّ من أهم أسباب ذكر أوصافهم هو حثُّ المؤمنين علىٰ السعي والاجتهاد للتأسّي بهم في تحصيل تلك الأوصاف، وهذه ثمرة عظيمة توصل المؤمن إلىٰ مراتب عظيمة من الصلاح والقرب من الله عزّ وجلّ لأنّها تمثّل وسيلة لحثِّ المؤمنين ومنها:

هم المتوسّمون، رهبان بالليل ليوث بالنهار:

في بحار الأنوار أنّ الفضل بن شاذان روىٰ عن الباقر عليه السلام قال:

«**كأنّي أنظر إلى القائم وأصحابه في نجف الكوفة، كأنّ على رؤوسهم الطير، قد فنيت أزوادهم، وخلقت ثيابهم، قد أثّر السجود بجباههم، ليوث بالنهار، رهبان بالليل، كأنّ قلوبهم زبر الحديد، يُعطى الرجل منهم قوة أربعين رجلاً، لا يقتل أحداً منهم إلا كافرٌ أو منافق، قد وصفهم الله تعالى بالتوسّم في كتابه العزيز بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾**[٢٩]»[٣٠].

ولا يخفىٰ أنّه ليس في القاموس الإلهي إلاّ ميزان واحد، يقاس به الأفضلية، وهو الميزان الحقيقي وغيره ليست بموازين بل يتراءىٰ أنّها موازين، فلا حقيقة لها

ولا ثِقل فيها، وميزان الأفضلية هو (القرب إلى الله) قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣١].

ومن الروايات التي تصف أصحاب الإمام عجل الله فرجه ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أهل يقين وعبادة وولاية شعارهم يا لثارات الحسين**».

وروى الفضيل بن يسار عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«**لله كنز بالطالقان، ما هو بذهبٍ ولا فضّة، وراية لم تنشر منذ طويت، ورجالٌ كأنّ قلوبهم زبر الحديد لا يشوبها شكٌّ في ذات الله، أشدّ من الحجر، لو حملوا على الجبال لأزالوها، لا يقصدون برایاتهم بلدة إلاّ خربوها، كأنّ على خيولهم العقبان، يتمسّحون بسرج الإمام عليه السلام يطلبون بذلك البركة، ويحفّون به يقونه بأنفسهم في الحروب، ويكفونه ما يريد فيهم.**

رجالٌ لا ينامون الليل، لهم دويٌّ في صلاتهم كدوي النحل، يبيتون قياماً على أطرافهم ويصبحون على خيولهم، رهبان بالليل ليوث بالنهار، هم أطوع له من الأمة لسيّدها، كالمصابيح، كأنّ قلوبهم القناديل، وهم من خشية الله مشفقون، يدعون بالشهادة ويتمنّون أن يقتلوا في سبيل الله.

شعارهم: يا لثارات الحسين، إذا ساروا يسير الرعب أمامهم مسيرة شهر، يمشون إلى المولى إرسالاً، بهم ينصر الله إمام الحقّ»[٣٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «**من سرّه أن يكون من أصحاب القائم عليه السلام فلينتظر وليعمل بالورع ومحاسن الأخلاق وهو منتظر، فإنْ مات وقام القائم بعده كان له من الأجر مثل أجر من أدركه**»[٣٣].

طرق تحصيل الصبر:

بعدما تبيّن من أهميةٍ للصبر وأثره على بناء المؤمن، يأتي التساؤل في التحصيل

لهذه الخصلة العظيمة والتوفر عليها، فأنا في خطر عندما لا أكون واجداً لها، عندما يبيّن أهل البيت عليهم السلام بقولهم: «**إن الصّبر صبران، صبر على البلاء حسنٌ جميل، وأفضل الصّبرين الورع عن المحارم**»[٣٤].

وإنَّ التفكير في عواقب الأمور أيضاً من الأمور النافعة جداً لتقوية الصبر، نذكر بعضها:

١- التأمل في مآثر الصبر، وما يفيء على الصابرين من جميل الخصائص، وجليل العوائد والمنافع في الحياة الدنيا، وجزيل المثوبة والأجر في الآخرة.

٢- التفكّر في مساوئ الجزع، وسوء آثاره في حياة الإنسان، وأنَّه لا يشفي غليلاً، ولا يردُّ قضاءً، ولا يبدّل واقعاً، ولا ينتج إلا بالشقاء والعناء.

٣- تفهّم واقع الحياة، وأنّها مطبوعة على المتاعب والهموم:

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقدار والأكدار

فليست الحياة دار هناء وارتياح، وإنّما هي: دار اختبار وامتحان للمؤمن، فكما يرهق طلاب العلم بالامتحانات استجلاء لرصيدهم العلمي، كذلك يمتحن المؤمن اختباراً في أبعاد إيمانه ومبلغ يقينه. قال تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾[٣٥].

٤- الاعتبار والتأسّي بما عاناه العظماء، والأولياء، من صنوف المآسي والأرزاء، وتجلّدهم فيها وصبرهم عليها، في ذات اللّه، وذلك من محفزّات الصّبر والتحمّل.

ومن عوامل تحصيل الصّبر هي العبادة؛ فإنَّ الأئمة الأطهار عليهم السلام مع درجتهم العظيمة التي لا يدانيها أحد من الخلق إلاّ أنّهم لهم بُعدٌ عبادي يعينهم على تكليفهم العظيم، فلا يُكتفى بالقول إنّ فلاناً صابراً، بل أيّ شخص يحتاج أن يستزيد للحفاظ

على ملكة الصّبر وغيرها من الملكات، ومن طرق الاستزادة العبادة، وحتى علم أهل البيت عليهم السلام فإنّه قد ورد في رواياتهم عليهم السلام حاجتهم الدائمة للاستزادة من العلم، ولولا ذلك لنفد ما عندهم من العلم!

فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**ما من ليلة جمعة إلا ولأولياء الله فيها سرور**»، قلت: كيف ذلك جعلت فداك؟ قال: «**إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله صلى الله عليه وآله العرش، ووافى الأئمة عليهم السلام، ووافيتُ معهم فما أرجع إلا بعلم مستفاد، ولولا ذلك لنفد ما عندي**»[٣٦]، فإذا كان الإمام المعصوم عليه السلام ينفد ما عنده كيف بغير المعصوم؟! وهكذا الأمر في تقوية الإيمان والملكات، ففي الكافي عن الصادق عليه السلام: «**كان علي عليه السلام إذا هاله شيءٌ، فزع إلى الصّلاة، ثم تلا هذه الآية**: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصّبر وَالصَّلاَةِ﴾[٣٧].

وفي الفقيه عنه عليه السلام أيضاً في الآية: «**الصّبر الصيام، وإذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة، فليصم فإنّ اللّه تعالى يقول: اسْتَعِينُوا بِالصّبر والصَّلاةِ، يعني الصيام**»[٣٨].

وعن العياشي عن الصادق عليه السلام: «**ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمّ من غموم الدنيا أن يتوضأ، ثم يدخل مسجده، فيركع ركعتين، فيدعو اللّه فيهما، أما سمعت اللّه يقول: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصّبر وَالصَّلاَةِ﴾**»[٣٩].

خاتمة:

وأخيراً الصّبر لا يتحقّق إلا مع عقد القلب عليه، والعزيمة على الاستمرار عليه، وإلا فإنّ صِرف وجود الشيء لا أثر له، وإنّما الأثر يترتب على البقاء وهو يحصل بالصّبر والمصابرة والاستقامة على تحمّل المكاره، ولذلك كان الصّبر من عزائم الأمور فقال تبارك تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[٤٠]، ولا مفرّ من البلاء والامتحانات في الحياة الدنيا، فإنْ جزِع العبدُ خسر الأجر، وفي نفس الوقت هو في أذىً وألم ممّا هو فيه، وفي البلاء سقط الكثير؛ فكان البلاء محطة سقوط وانحراف عن

الجادة، وآخرون كان لهم بمثابة التحوّل والانتقال من الظلمة والضياع إلى النور، والكثير ممن اهتدوا في بعض هذه المحطات يكون لهم استذكار دائم لما حصل لهم، بل لا يعدّونه أذىً بل قد يوصفونها بأنّها من أجمل اللحظات؛ حيث شعروا بإحاطة وعناية المعبود لهم.

اللهم اجعلنا من خاصة شيعة محمد وآل محمد، ومن الآخذين بحقهم، مع إمام حقٍ تظهره، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(١) العين، الخليل الفراهيدي، ج٧، ص١١٥.

(٢) مجمع البحرين، الطريحي، ج٢، ص٥٧٧.

(٣) أخلاق أهل البيت عليهم السلام، السيد محمد مهدي الصدر، ص١٥٠.

(٤) نهج البلاغة: الحكمة ٥٥.

(٥) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ج١، ص٣١٩.

(٦) سورة البقرة: ١٧٧.

(٧) سورة هود: ١١٥.

(٨) سورة آل عمران:٢٠٠.

(٩) سورة البقرة: ١٥٣.

(١٠) الكافي، ج٢، ص٩٠ ، ح٩.

(١١) ميزان الحكمة، الريشهري، ج٢، ص١٥٥٦.

(١٢) تحف العقول، الحراني، ص٤٨.

(١٣) مستدرك الوسائل، النوري، ج٢، ص٤٣٠.

(١٤) سورة آل عمران: ١٤٦.

(١٥) سورة الأنفال: ٤٦.

(١٦) سورة البقرة: ١٥٥.

(١٧) سورة النحل: ١٢٦.

(١٨) سورة البقرة: ١٥٧.

(١٩) سورة القصص: ٥٤.

(٢٠) سورة الزمر:١٠.

(٢١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج١، ص٢١٩.

(٢٢) سورة البقرة: ١٥٥- ١٥٧.

(٢٣) نهج البلاغة، ج٤، ص٧١.

(٢٤) الكافي، الكليني، ج٣، ص٢٢٥.

(٢٥) مثير الأحزان، ابن نما الحلي، ص٢٩.

(٢٦) معاني الأخبار، ج٢، ص٢٨٨.

(٢٧) بحار الأنوار، المجلسي، ج٤٥، ص١١٦.

(٢٨) كتاب الغيبة، ص٢١٢.

(٢٩) سورة الحجر: ٧٥.

(٣٠) بحار الأنوار ج٥٢، ص٣٨٦، ومنتخب الأنوار المضيئة، ص١٩٥، وإثبات الهداة، ج٣، ص٥٨٥.

(٣١) سورة الأعراف: ٨.

(٣٢) بحار الأنوار، ج٥٢، ص٣٠٧.

(٣٣) مستدرك سفينة البحار، ج٦، ص١٩١.

(٣٤) الكافي، الكليني، ج٢، ص٩١.

(٣٥) سورة العنكبوت: ٢- ٣.

(٣٦) الكافي، الكليني، ج١، ص٢٥٤.

(٣٧) الكافي، ج٣، ص٤٨٠.

(٣٨) الكافي، ج٤، ص٦٣.

(٣٩) مجمع البيان، الطبرسي، ج١، ص١٩٤.

(٤٠) سورة لقمان: ١٧.

جذور الفكر الإرهابي في الزمان المعاصر

الشيخ محمود جليل طاهري

من الأمور الجديرة بالبحث والتحقيق والمطالعة والتنقيب، معرفة ودراسة الجذور الفكرية للإرهاب المعاصر الشاذّ عن الإنسانية والخلقة السليمة، لما في ذلك الأثر البالغ لمعرفة الحقيقة والتعمّق في مزاج الفكر التطرّفي، لكشف القناع والستار عن آرائه ومتبنيّاته، وفهم مبادئه وارتكازاته التي يقرأ من خلالها الواقع، ليبني بذلك منظومة فكريّة مُؤسَّسة علىٰ أساس تكفير الآخر وفساد معتقداته وأنّه علىٰ الباطل لا محالة، ولا يرىٰ إثبات هذه الفكرة وما توصل إليه لتطبيقها في الخارج، إلا من خلال إفناء وإعدام الرأي الآخر، وتصفيته والنيل منه بلغ ما بلغ.

وهذه الدراسة في واقع الأمر تربط بين الجانب الثبوتي وبين الجانب الإثباتي، ومن هنا ستكون الحيويّة والفاعليّة في قراءة الفكر الإسلامي، وخروج التنظير والتقنين من لباسه وثوبه العقلي والفكري إلىٰ المبدأ الخارجي والعملي.

ومع التأمّل نجد بأنّ معظم الأسباب والعوامل التي جُعِلت كمحرك، وباعث للطرف المقابل لاتخاذ هذا الأسلوب وهذه الكيفية المنبوذة -وبنسبة كبيرة جداً- هي أسباب وعوامل عقائدية وفكرية.

ولم تكن المدرسة المُواجهة والمتبنيّة لهذه العقيدة، عالمة ومنصفة بأركان الفكر الثقافي والمعرفي للطرف الآخر الذي له كيانه ووجوده.

فكما أنّ صاحب المدرسة التكفيرية المتشددة ينطلق في أعماله وخططه من بناء فكري وعقدي، يعتقد بصحتها ومطابقتها للتشريعات والتعاليم التي يؤمن بها، كذلك الآخر الذي يكون إقصائه ومواجهته بأشد أنواع التعذيب والترهيب، يمتلك مباني فكرية ودينية تحتّم عليه إما السكوت أو الردّ، حسب الموقف والقناعة الدينية، والإنسانية التي ينطلق منهما ويُذْعِن بأحقيتهما.

ومن الأخطاء الجسيمة والفادحة الحكم علىٰ المدارس الأخرىٰ، والقناعات المباينة من دون التعمق في مدارسها السلوكية وبنيتها العلمية، مضافاً إلىٰ عدم فهم الإسلام بصورة صحيحة ومنطقية، وبيانه علىٰ أنّه دين بعيد عن الواقع الإنساني الملائم والمتاخم للرفق والإحسان، أوصل تلك الجماعات إلىٰ هذا المأزق وهذه الإشكالية. فأصبحت هذه الفئة تصوّر للعالم والمجتمعات، من خلال تصرفاتها وأعمالها بأنّ الإسلام دين القتل والعنف، وقطع الرؤوس وأكل الأكباد والتمثيل بالأجساد والأبدان، وما إلىٰ ذلك من ممارسات، يندىٰ لها الجبين، ويكون ضحيتها المسكين الذي لا ناصر له ولا معين.

ومن خلال المشاهد الأخيرة في العالم الإسلامي والمعاصر، نجد أنّ القراءة الناقصة لمدرسة الإسلام الأصيل والازدواجية في تقييم الصحيح من السقيم والحق من الباطل، هي السبب الرئيس والعلة التامة في إرباك الساحة الاجتماعية والبشرية، مع ملاحظة وعدم خفاء أنّ الإرهاب في فترة من الفترات، صار هدفاً وغرضاً لقوىٰ الكفر والإلحاد في المجتمعات الأوربية والغربية أيضاً التي انطلقت من البعد العرقي فيما بينها تارة، فانتشرت فتنة العرق الأبيض والأسود، والطائفي أخرىٰ مع الديانة الإسلامية والمسلمين، من خلال التعدّي علىٰ المقدّسات والأرواح بالقتل والحرق

وما شابه، ولم تستمر هذه الفتنة كثيراً، إلى أن جاءت الموجة العارمة والعاصفة الشديدة، والتي مثّلت العنف بين أصحاب المدرسة الواحدة وهي فتنةٌ وطْأتها أشدّ من الأولى، وتبيّن لمن هو خارج عن الغطاء الداخلي من قبيل الديانات الأخرىٰ كاليهودية والمسيحية وغيرهما، عدم وجود الحصانة والضمان بين أبناء الجِلدة الواحدة -وأنّ هذا الصراع يبيّن عدم اتقان المنهجية الإسلامية في رسم ضوابط الإصلاح حينما يقع الاختلاف في الفكر والعقيدة- مما يعود بالسلب عليه كما ستقرأه تلك المناهج، وعدم صلاحيته لإدارة البشر والمجتمع.

وجاءت هذه الأفكار والقناعات لتلك الفئة انطلاقاً، من بعض عقائد المدرسة الثانية وهي مدرسة شيعة أهل البيت عليهم السلام، وأنّ هذه المفردات العبادية هي التي ترسم شخصية الفرد الشيعي روحياً وعبادياً -من قبيل زيارة القبور والتوسل بالصالحين والاعتقاد بالشفاعة وغير ذلك- تصيّره فرداً كافراً أو مرتداً، وبالتّالي: إذا تحقق الموضوع وأُحْرِز، صار الحكم واضحاً وفعلياً، وثبت عن طريقه (كفر تلك الفئة، وخروجهم عن الإسلام)، مما يعني وجود المسوّغ الفقهي الواضح للمدرسة الإسلامية الإقصائية -التي تدّعي فهم الإسلام ومعالمه- للقضاء علىٰ كلّ من يتبنّىٰ تلك العقيدة أو يروّج لها، والتعامل معه دقيقاً كالتعامل مع الكفار والمشركين، بأنّ تسفك دماؤهم، ولا تُراعىٰ أعراضهم، وتستحل حرماتهم، وإن شهدوا واعتقدوا بالله سبحانه، وبنبيه محمد صلى الله عليه وآله، وقالوا: (نشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله)، إلا أنّ هذه الشهادة كاذبة وصورية، ولم تتعد الجوارح وعالم اللسان، وبتعبير القرآن: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وعليه: فآيات الجهاد المذكورة في القرآن، والتي فيها حثٌّ علىٰ مقاتلة المشركين والكفار، ليسوا من مصاديقها الحصرية كفار أهل الكتاب والمشركين، بل حتى بعض المدارس الأخرىٰ الإسلامية لهم نفس الحكم، بملاك عقائدهم الضالة التي صيّرتهم كذلك.

ومع التحقيق في كتب المدرسة التكفيرية تجد كلماتهم الشنيعة في حقّ الشيعة،

وستعرف حينئذٍ منشأ الحقد لأتباعهم ومن يسير حذوهم علىٰ أصحاب العقائد الأخرىٰ وكيف تشبَّعوا، وأُشْبِعوا بالأفكار المنحرفة، بغية بغضهم وتحاملهم الشديد والعنيف علىٰ من يخالفهم في الجزئيات والمفردات، التي تكون مورداً لقبول الآخرين، كمدرسة شيعة أهل البيت عليهم السلام، وإليك بعض كلماتهم:

"وهذا حال من قاتل المرتدين، وأولهم الصديق ومن اتبعه إلى يوم القيامة، فهم الذين جاهدوا المرتدين كأصحاب مسيلمة الكذاب، ومانعى الزكاة وغيرهما، وهم الذين فتحوا الأمصار وغلبوا فارس والروم، وكانوا أزهد الناس، كما قال عبد الله بن مسعود لأصحابه أنتم أكثر صلاة وصياماً من أصحاب محمد، وهم كانوا خيراً منكم قالوا: لِم يا أبا عبد الرحمن قال: لأنّهم كانوا أزهد فى الدنيا وأرغب فى الآخرة، فهؤلاء هم الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم، بخلاف الرافضة فإنّهم أشدّ الناس خوفاً من لوم اللائم ومن عدوّهم وهم كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[٢].

إذاً، الرافضة وهم الشيعة، أعداء للدين الإسلامى، فيجب مقاتلتهم والوقوف أمامهم، وحالهم حال المنافقين فى صدر الإسلام، الذين يحسبون كل صيحة عليهم"[٣].

وفي مقطع آخر: "وأما من دخل فى غلو الشيعة كالإسماعيلية، الذين يقولون بإلهيّة الحاكم ونحوه من أئمتهم، ويقولون: إنّ محمد بن إسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله، وغير ذلک من مقالات الغالية من الرافضة، فهؤلاء شرّ من أكثر الكفار من اليهود والنصارى والمشركين وهم ينتسبون إلى الشيعة يتظاهرون بمذاهبهم"[٤].

وقال أيضاً: "وإنّما يخالف فى ذلک الغالية من الرافضة، وأشباه الرافضة من الغالية فى بعض المشايخ ومن يعتقدون أنّه من الأولياء، فالرافضة تزعم أنّ الإثنى عشر إماماً معصومون من الخطأ والذنب، ويرونه من أصول دينهم، والغالية فى المشايخ قد يقولون: إنّ الولى محفوظ والنبىّ معصوم، وكثير منهم إن لم يقل ذلک بلسانه، وقد بلغ الغلو بالطائفتين إلى أن يجعلوا بعض من غلوا فيه بمنزلة النبىّ وأفضل منه، وإن زاد

الأمر جعلوا له نوعاً من الإلهية وكل هذا من الضلالات الجاهلية المضاهية للضلالات النصرانية، فإنّ فى النصارى من الغلو فى المسيح والأحبار والرهبان، ما ذمّهم الله عليه فى القرآن، وجعل ذلک عبرة لنا لئلا نسلک سبيلهم، ولهذا قال سيّد ولد آدم: لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنّما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله"(٥).

هل اكتفىٰ علماء تلك المدرسة برمي الآخر بالفهم الخاطئ، بلحاظ معتقداته وسلوكياته أم أنّ هناك مبالغات في تصوير بعض الأمور التي لا صحة لها علىٰ أرض الواقع، من قبيل كلام ابن القيم الجوزية حينما قال: "**وكذلک الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم وترضّيهم عنهم وولايتهم إياهم، وتقديم من قدمه رسول الله منهم وتنزيلهم منازلهم التى أنزلهم الله ورسوله بها**"(٦).

فإن كان مراده من النقمة -كما يفهم ذلك من القرائن- هو تكفير أهل السنة أو قل بغضهم والحقد عليهم كما هو حال المدارس الإقصائية التي تكفّر وتتخذ المواقف التكفيرية سريعاً بسبب محبّتهم واعتقادهم في الصحابة، فهذا فهم خاطئ ولا يُصار إليه، بل يُكذّبه الوجدان قبل البرهان، وأما إن كان المقصود الموقف العلمي والتحقيقي لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، فهذا أمر خاضع للموازين العلمية، وأنّ هذه المدرسة لا تعتقد بعدالة الصحابة كلّهم؛ أي علىٰ نحو الموجبة الكلية، ولهم علىٰ إثبات ذلك أدلّة وبراهين معتمدة ومحكمة تُطلب من محلّها.

وبالتالي لا ينبغي تصوير هذا الخلاف العلمي والمدرسي، علىٰ أنّه صراع ونزاع اجتماعي بأن يُبيّن فيه الاختلاف في مقام النظريات بألفاظ فيها حزازة واشمئزاز تكشف عن حالة نفسية، كما عبّر وقال: "كذلك الرافضة ينقمون". ولذا أشرنا في السابق إلىٰ أنّ هذه الأفكار والمتبنيّات التي صِيغت بصياغات علمية -كما يُدّعىٰ- وبراهين مقلوبة هي أساس الإرهاب المعاصر، ولولا تنظير النخبة العلمائية وبيانها للمدارس المقابلة علىٰ أنّها مدارس انحرافية وباطلة، لما تأثرت الطبقة العادية، وهي الطبقة التي تأخذ تعاليمها من علمائها ومربّيها بهذه الأفكار.

فإذا كانت الشيعة مثلاً تعتقد بعقيدة معيّنة، كعقيدة الإمام الغائب والمنتظر وغيرها من العقائد مثلاً، فهل هناك مبرر ومسوغ لتسخيف هذه الفكرة والعقيدة، ورميها بالأباطيل والترّهات، ومن ثمّ يتطور الأمر إلىٰ الحروب الطائفيّة وغير ذلك؟!

هذه هي المشكلة الكبيرة التي تحتاج لإمعان في الأنظار والسلوكيات الأخلاقية والقلبية فإذا كان العَالِم المُنظِّر للمدرسة الإسلامية، هو صاحب فكر إقصائي وصاحب تسخيف لعقول المدارس الأخرىٰ، فهل تتوقع حينئذٍ من المتبوع والرعية الحكمة والتعامل الحسن مع أصحاب المعتقدات والمذاهب[٧]؟! مع أنّ هذا مخالف مخالفةً صريحة لسلوكيات النبي صلى الله عليه وآله وسيرته العملية، في تعامله مع أصحاب الديانات الأخرىٰ والعقائد الباطلة، منذ أن أقام في مكة المكرمة، إلىٰ أن هاجر إلىٰ المدينة؛ لتأسيس أركان الإسلام والحال أنّ تلك الجماعات تدعي أنّها تطبّق سيرة الرسول صلى الله عليه وآله، وسننه الكريمة!!

ولذا تكفير بعض الطوائف الإسلامية انطلق من ملاحظة عقائدهم، وصارت القراءات السطحيّة وغير العلميّة لمتبنّياتهم هي حالة الحكم النهائي، إلىٰ أن تم الوصول إلىٰ النتائج الفاسدة، وهو أمر طبيعي جداً ولا غرابة فيه، حيث إنّ المقدمات الفاسدة تُوصِل إلىٰ نتائج فاسدة، مما جعل بعضهم يُفتي بقتل الشيعة وهدر دمائهم بشكل واضح وصريح، والتّاريخ يحدّثنا ما حصل في مدينة حلب، حيث أفتى الشيخ نوح الحنفي بكفر الشيعة واستباحة دمائهم وأموالهم، تابوا أو لم يتوبوا، فزحفوا علىٰ شيعة حلب وأبادوا منهم أربعين ألفاً أو يزيدون، وانتهبت أموالهم وأخرج الباقون منهم من ديارهم[٨]، وأما ما يجري اليوم في الدول العربية والإسلامية هو بعينه ما حصل لأهل حلب وغيرهم، والتاريخ يعيد نفسه، مع بشاعة في منظر القتل والفتك.

والعجيب الملفت في ذلك أنّ الّذي قام بتكفير بعض المدارس الإسلامية،

اتُخِذت اتجاهه مواقف علمية، أوصلته إلىٰ حدّ الانحراف والضلال، من قِبل بعض الاتجاهات التي يشترك معها في الانتماء، فجاء في بعض المقالات -حيث كان الكلام عن فرع من الفروع الفقهية-: "ولا اعتبار بما قالته طائفة من الشيعة والظاهرية، من وقوع واحدة فقط[٩]، وإن اختاره من المتأخرين من لا يعبأ به، واقتدى به من أضله الله، قال السبكى وابتدع بعض أهل زماننا أى: ابن تيمية، ومن ثم قال العز بن جماعة إنّه ضال مضل"[١٠].

ونقل الدسوقي أيضاً في حاشيته بما يخص المورد المتقدم: "ونقل ابن عبد البر وغيره الإجماع على لزوم الثلاث فى حق من أوقعها، وحكى فى الارتشاف عن بعض المبتدعة أنّه إنّما يلزمه واحدة، ونقل أبو الحسن عن ابن العربى أنّه قال: ما ذبحت بيدى ديكاً قط ولو وجدت من يردّ المطلقة ثلاثاً لذبحته بيدى، وهذا منه مبالغة فى الزجر عنه اهـ وقد اشتهر هذا القول عن ابن تيمية، قال بعض أئمة الشافعية: ابن تيمية ضالّ مضلّ لأنّه خرق الإجماع وسلك مسلك الابتداع وبعض الفسقة نسبه للإمام أشهب لأجل أن يضلّ به الناس، وقد كذب وافترى على هذا الإمام، لما علمت من أنّ ابن عبد البر وهو الإمام المحيط قد نقل الإجماع على لزوم الثلاث، وأنّ صاحب الارتشاف نقل لزوم الواحدة عن بعض المبتدعة"[١١].

ووقع الكلام أيضاً في إهداء الثواب للنبي صلى الله عليه وآله من خلال القراءة، وجاء النقض علىٰ أحد أكابر هذه المدرسة، وإليك نصّ ما نُقِل: "ذكر ابن حجر فى الفتاوى الفقهية أنّ الحافظ ابن تيمية زعم منع إهداء ثواب القراءة للنبىّ لأنّ جنابه الرفيع لا يتجرأ عليه إلا بما أذن فيه، وهو الصلاة عليه وسؤال الوسيلة له.

قال: وبالغ السبكى وغيره فى الردّ عليه، بأنّ مثل ذلك لا يحتاج إلى إذن خاصّ، ألا ترى أنّ ابن عمر كان يعتمر عنه' عمراً بعد موته من غير وصيّة، وحج ابن الموّفق وهو فى طبقة الجنيد عنه سبعين حجة، وختم ابن السراج عنه' أكثر من عشرة آلاف ختمة وضحّى عنه مثل ذلك اهـ

قلت: رأيت نحو ذلك بخطّ مفتى الحنفية الشهاب أحمد بن الشلبى شيخ صاحب البحر عن شرح الطيبة للنويرى، ومن جملة ما نقله أن ابن عقيل من الحنابلة قال: يستحبّ إهداؤها له ' اهـ

قلت: وقول علمائنا له أن يجعل ثواب عمله لغيره يدخل فيه النبى'، فإنّه أحق بذلك حيث أنقذنا من الضلالة، ففى ذلك نوع شكر وإسداء جميل له، والكامل قابل لزيادة الكمال وما استدل به بعض المانعين من أنّه تحصيل الحاصل؛ لأنّ جميع أعمال أمّته فى ميزانه، يجاب عنه بأنّه لا مانع من ذلك، فإنّ الله تعالى أخبرنا بأنّه صلّى عليه، ثم أمرنا بالصلاة عليه، بأن نقول: اللهم صلّ على محمّد"[١٢].

الخلاصة: نفس المدرسة التابعة للصحابة، وقعت بينهم نزاعات علمية، واختلافات فكرية بل وصل الحال ببعضهم إلى رمي العلماء الذين ينتسبون إلى نفس المدرسة بالضلال والانحراف، كما قرأنا قبل قليل كلمات بعض أعلام المدارس السنيّة في حقّ ابن تيميه. وينبغي ختم هذا البحث ببيان مهم حاصله: إنّ القناعات والأفكار خاضعة للموازين العلمية والمعايير الدقيقة، ولا ينبغي التمسّك بالمنطق الفرعوني الذي فيه نمط الاستعلاء والتكبّر، وأنّ الأغراض لا تتحقق إلا بالعنف والقتل.

كما يحدثنا القرآن عن السحرة الذين آمنوا برب العالمين، فهددهم بالقتل والتصفية، كما هو حال الجماعات الإرهابية والتكفيرية في عالمنا، حيث يدَّعون الإسلام ظاهراً، إلا أنّ روح دعواهم هي الروح الفرعونية المتمرّدة على التعاليم الإلهية، ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١٣]، فما طلبه فرعون من أولئك، هو ما يطلبه إرهابيو العصر لكن مع اختلاف في العنوان واللغة ففرعون قال لهم: كيف تؤمنون قبل أن آذَن لكم، والحال أنّ الإيمان من

مقولات الجوانح ولا داعي لتحققها وإنشائها لإذن الآدميين، فكذلك في زماننا حيث إنّهم لا يرتضون عقائد الآخرين، بمعنى: أننا لم نأذن لكم حتى تعتقدوا وتؤمنوا بهذه الأمور والمعتقدات فتأمل.

والنموذج الآخر هو خطاب القرآن الذي بيَّن استبداد اليهود والنصارىٰ، وأنّهم يدّعون المركزيّة في الفهم الديني والعقدي، وهم المحور والميزان في التخطئة والصواب، ولا بدّ للجميع من أن يخضعوا لآرائهم ومعتقداتهم، ولخطورة هذا الفكر نبَّه الله نبيه الخاتم صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾(١٤)، والكلام هو الكلام، فلن ترضىٰ عنك المنظمات الإرهابية والمتطرفة، إلا إذا اتبعتهم ولنت لهم.

وفي الأخير: اتضح لنا أنّ جذور الإرهاب المعاصر، يكمن في عدم فهم البعد الديني والعقدي للطوائف الأخرىٰ، والقراءة الفاسدة والمضمحلّة البعيدة عن العلم والحِكمة لمعتقدات الآخرين.

الخاتمة

وهذه مجموعة من النتائج أذكرها علىٰ نحو الاختصار:

١- تبيّن من خلال هذا البحث، أنّ موضوع (الجهاد والإرهاب) ليس موضوعاً فقهياً وفكرياً بحتاً، بل هناك جوانب تاريخية مهمة تبين حقيقتهما ومنشأهما؛ بحيث يعرف الباحث والكاتب مبدأ هاتين القضيتين، ليرتبط بعد ذلك بالبيئة المعاصرة والحديثة، وهذه دلالة علىٰ أنّ دراسة (الجهاد والإرهاب لا بدّ من أن تكون بصورة تحليلية وسردية للوقائع والأحداث) التي وقع فيها هاتان القضيتان.

٢- اتضح أنّ منشأ الإرهاب، هو فكرة عدم تقبل الآخر ومشروعه، مع العلم تارة بالأحقية فتكون المحاربة حينئذٍ بسبب الأهواء والمطامع، أو عدم وضوح الصورة للطرف المقابل، أو دراسته بصورة ناقصة وجزئية؛ مما يشوش الفكر ويجعل

اعتقاد الفرد يتمحور في فكرة حاصلها: " حتميّة حرب البقاء والوجود"؛ بمعنى أنّ وجود المنافس هو حرب وإبادة، فلا بدّ من القضاء علىٰ كيانه وفكره، وكل ما يمثله.

٣- موقف الإسلام صريح وعلني بالنسبة إلىٰ الجهاد والإرهاب، وأوامره التشريعية بخصوصهما نابع من أدبيّاته الواقعية، والمُلائَمة التكوينية التي خُلق الإنسان عليها[١٥].

٤- إدراكات العقل -بخصوص الجهاد والإرهاب- قطعية وغير قابلة للتخصيص، ولا تتأثر بعوامل الزمان والمكان والوقت، ما دامت الضابطة هي (حسن العدل وقبح الظلم) وبالتالي الجهاد جهادٌ متى ما تحقق وتمت شروطه، وكذا الإرهاب، ولا دخالة لهما بعامل الزمان والوقت، مما يعني: (عدم النسبية في مفهوميهما).

٥- عرفنا أنّ السبب الرئيسي للإرهاب المعاصر، هو الفهم المغلوط والقراءة الناقصة للطوائف الأخرىٰ بلحاظ عقائدها وأفكارها، وأن الاقتتال الذي يحصل في زماننا، والحروب الطائفية منشأها، التحريض العلمي والعملي من النخب المتصدرة للفتاوىٰ، والتي بيدها القرار.

الهوامش:

(١) سورة البقرة: ٨.

(٢) سورة المنافقون: ٤.

(٣) ابن تيمية، دقائق التفسير، ج٢، ص٦٢.

(٤) ابن تيمية، دقائق التفسير، ج٢، ص١٥٢.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٢٣.

(٦) ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، ص٥٨.

(٧) قال ابن كثير في تفسيره، ج٢، ص٣٤: وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة وجوده، ثم

ظهوره من سرداب سامرا، فإنّ ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو من هوس العقول السخيفة وتوهم الخيالات الضعيفة، وقال في موضع آخر (نفس المصدر، ج٢، ص٣٩٨): فقد أخبر الله العظيم أنّه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبّهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيّد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإنّ الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم، عياذاً بالله من ذلك وهذا يدل علىٰ أنّ عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبّون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنّهم يترضّون عمن رضي الله عنه ويسبّون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله ويعادون من يعادي الله، وهم متّبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

(٨) راجع كتاب: (لا تخونوا الله والرسول، للبياتي١٥٧)، الناشر: مركز الأبحاث العقائدية.

(٩) الكلام عن وقوع وتحقق الطلاق، حيث إنّ هناك خلاف فقهي في ذلك.

(١٠) الشافعي الصغير، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، ج٧، ص٨.

(١١) الدسوقي، حاشية الدسوقي، ج٢، ص٣٦٢.

(١٢) ابن عابدين، حاشية رد المحتار، ج٢، ص٢٦٤.

(١٣) سورة الأعراف: ١٢٠- ١٢٤.

(١٤) سورة البقرة: ١٢٠.

(١٥) يعني الأوامر التشريعية الصادرة، تلاحظ البعد التكويني والنفسي في الإنسان، وهذه من امتيازات المقنن الإلهي، دون غيره.

شرب أبوال ما يؤكل لحمه
(حلّيّته وعدمها)

الشيخ على فاضل الصددي

مقدّمة:

لا ريب في جواز شرب أبوال الإبل للاستشفاء.

ويدلّ على ذلك -مضافاً إلى ظهور الاتفاق والتسالم المعتضد بدعوى الإجماع[1]- النصوص الخاصّة، وعمدتها موثّقة بل صحيحة أبي صالح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله قوم من بني ضُبّة مرضى، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : أقيموا عندي فإذا برئتم بعثتكم في سريّة، فقالوا: أخرجنا من المدينة، فبعث بهم إلى إبل الصدقة يشربون من أبوالها، ويأكلون من ألبانها..الحديث**»[2]. والظاهر أنّ أبا صالح هو عجلان الثقة[3]، ولا يضير بوصف الصحّة لسندها اشتماله على أبان بن عثمان؛ فإنّه ثقة جليل، ولم يثبت انحراف عقيدته.

وموثّقة عمّار بن موسى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عن بول البقر يشربه الرجل قال: «**إن كان محتاجاً إليه يتداوى به شَرِبَه(يشربه- ئل)، وكذلك أبوال الإبل والغنم**»[4].

وسندها في التهذيب المطبوع كالتالي: محمّد بن أحمد بن يحيى [عن أحمد بن يحيى] عن أحمد بن الحسن بن عليّ بن فضّال عن عمرو بن سعيد عن مصدّق بن صدقة عن عمّار الساباطي[٥]، بتوسّط أحمد بن يحيى بين محمّد بن أحمد بن يحيى وأحمد بن الحسن بن عليّ بن فضّال.

ولكن الظاهر -كما أفاده سيّد الأعاظم قدّس سرّه- أنّه من غلط النسّاخ، والصحيح محمّد بن أحمد بن يحيى عن أحمد بن الحسن بن عليّ بن فضال، فَزِيْدَ (أحمد بن يحيى). والقرينة علىٰ ذلك أنّ الشيخ روىٰ جزءاً من هذا الحديث في باب المياه وأحكامها، الحديث ٦٤٢، وجزءاً آخر في الحديث ٦٦٠، وفيهما: محمد بن أحمد عن أحمد بن الحسن بن عليّ. وفي الاستبصار: الجزء ١، باب سؤر ما يؤكل لحمه وما لا يؤكل، الحديث ٦٤. محمد بن أحمد بن يحيى عن أحمد بن الحسن بن عليّ، وروىٰ محمّد بن يعقوب قطعةً من هذه الرواية عن أحمد بن إدريس ومحمد بن يحيى عن محمد بن أحمد عن أحمد بن الحسن. الكافي: الجزء ٣، كتاب الطهارة١، باب الوضوء من سؤر الدوابّ ٦، الحديث ٥، وقد تكرّر هذا السند في التهذيبين والكافي، وفي جميع ذلك يروي محمّد بن أحمد بن يحيى عن أحمد بن الحسن بلا واسطة، ومما يؤكّد ذلك أنّ الشيخ الحرّ وصاحب الوافي، قد ذكرا هذا الحديث عن التهذيب في موارد متعددة، وفي جميع ذلك يروي محمّد بن أحمد بن يحيى عن أحمد بن الحسن بلا واسطة[٦].

كما أنّ سندها في موضع من الوسائل كالتالي: محمّد بن الحسن بإسناده عن محمّد بن أحمد بن يحيى عن أحمد بن الحسن عن عمرو بن سعيد عن مصدّق بن صدقة وعن عمّار بن موسىٰ[٧]. وبموجبه يكون عمرو راوياً لها عن مصدّق وعمّار.

ولكنّ الواو في (وعن عمّار بن موسىٰ) من سهو القلم جزماً.

ثمّ إنّ الموثّقة واضحة في جواز شرب أبوال غير الإبل من البقر والغنم للتداوي،

ومقتضىٰ إطلاقها الجواز وإن لم يبلغ مرتبة الضرورة وانحصار العلاج بها.

محل النزاع:

ثمّ لا شبهة في جواز التداوي بأبوال مطلق ما يؤكل لحمه فيما لو انحصر العلاج بها؛ وذلك لمطلقات حلّ المضطر إليه[٨]، ولكن هل يجوز شربها للتداوي والعلاج إذا لم يبلغ حدّ الضرورة؟

قد يقال: بعدم فهم خصوصيّةٍ عرفاً لأبوال النَعَم الثلاث من بين ما يؤكل لحمه، فيجوز شرب أبوال مطلق ما يؤكل لحمه للتداوي وإن لم ينحصر العلاج بها[٩]، هذا.

وقد وقع الخلاف بين الأعلام قديماً وحديثاً في جواز شرب أبوال ما يؤكل لحمه- اختياراً، وإن كانت أبوال الإبل، فعلىٰ مستوىٰ كلمات أعاظم العصر ذهب السيّد الإمام والسيّد الروحاني قدّس سرّهما إلى الحلّيّة[١٠]، بينما ذهب السيّد الشهيد قدّس سرّه والمرجعان الكبيران السيستاني والوحيد دام ظلّهما إلى الحرمة[١١].

أدلّة الحرمة:

وعمدة ما استدلّ به علىٰ الحرمة ما يلي:

الدليل الأول:

وقد استدلّ علىٰ الحرمة في المقام[١٢] وعلىٰ حرمة مطلق الخبائث[١٣] بقوله تعالىٰ: ﴿**وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ**﴾ في الآي المبارك: ﴿**..وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ..**﴾[١٤].

بتقريب في مقدّمات ثلاث، **الأولى:** إنّ ضمير الجمع في ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾ وإن كان يرجع إلى أهل الكتاب، لكن لا يحتمل أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله يحرّم عليهم شيئاً لا يحرّمه علينا، أو لا يحتمل أن تكون حرمة الخبائث بعنوانها أو بمنطبقها خاصّة بغير المسلمين، بل مقتضى مناسبة الحكم للموضوع أنّ المدار على الخبث سواءً كان الآكل مسلماً أم لم يكن، وهذا مقطوع به.

والثانية: إنّ متعلّق الحرمة بقرينة المقابلة في قوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ هو أكل الخبائث وتناولها.

والثالثة: إن المراد بالخبائث المحرّم أكلها -على ما ذكره جماعة- هو ما تشمئز منه أكثر النفوس المستقيمة، وتتنفّر عنه غالب الطباع السليمة[١٥].

وقد نوقش في الاستدلال بالآية بعدّة مناقشات:

المناقشة الأولى: وهي ناظرة للمقدّمة الثالثة، أنّه -بعد ظهور عدم إرادتهم ما تتنفّر الطباع وتشمئز عن أكله؛ إذ كثير من العقاقير والأدوية كذلك، مع أنها ليست خبيثة عرفاً ولا محرّمة شرعاً. بل كثير مما تتنفّر عنه الطباع إنما يكون لحرمته، أو توهّم حرمته، أو عدم الاعتياد بأكله. ولذا ترى تنفّر طباع أكثر العجم عن أكل الجراد دون العرب، وتنفّر طباع أهل البلدان عن الحيّة والفأرة والضبّ دون أهل البادية من الأعراب، وكأنّ كثيراً مما تتنفّر عنه الطباع الآن كانت العرب تأكله قبل الاسلام، كالضبّ، والمسلمون يتنفّرون من الخنزير دون النصارى إلى غير ذلك- فلو كان مراد الجماعة بالخبائث ما تتنفّر الطباع عنه مطلقاً، أكلا ولمساً ورؤية، كرجيع الانسان والكلب، وقيء الغير وقيحه وصديده ونحوها[١٦] فلا تكون أبوال ما لا يؤكل لحمه فضلاً عن أبوال ما يؤكل لحمه من الخبائث؛ لعدم التنفّر عنها كذلك، هذا فيما يرجع إلى الصغرى.

ومن النقوض على الكبرى تنفّر الطباع عن ممضوغ الغير وما خرج من بين

أسنانه مع أنّ حرمته غير معلومة، بل هي معلومة العدم، فلا يكون المراد من الخبائث في الآية مطلق ذلك، ولذا قال في المستند: "**وبالجملة: لا يتحصّل لنا اليوم من الخبائث معنى منضبطاً يرجع إليه، فيجب الاقتصار فيها على ما علم صدقها عليه قطعاً -كفضلة الإنسان، بل فضلة كلّ ما لا يؤكل لحمه من الفضلات النجسة المنتنة، وكالميتات المتعفّنة ونحوها- والرجوع فى البواقى إلى الأصل الأوّل**"[17].

ويلاحظ على ذلك أنّ المدّعى أنّ ظاهر عنوان الخبيث هو ما ينفر منه أغلب الطباع السليمة بحيث لا داعي نوعي لتناوله كفضلات الإنسان ورجيعه، فلا يرد النقض بكلّ ما ذُكِر، نعم ترد المناقشة في الصغرى بالنسبة لأبوال ما يؤكل لحمه.

المناقشة الثانية: أفاد سيّد الأعاظم قدس سره -هادماً للمقدّمتين الثانية والثالثة- بأنّ المقصود من الخبائث كلّ ما فيه مفسدة ورداءة ولو كان من الأفعال المذمومة المعبّر عنه في الفارسية بلفظ (پليد)، ويدلّ على ذلك إطلاق الخبيث على العمل القبيح في قوله تعالى: ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ**﴾ ويساعده العرف واللغة. إذن فالآية ناظرة إلى تحريم كلّ ما فيه مفسدة ولو من الأعمال القبيحة، فلا تعمّ شرب الأبوال الطاهرة ونحوها مما تتنفّر عنها الطبائع[18]. على أنّ إرادة تحليل النبي صلى الله عليه وآله وتحريمه بعض المأكول والمشروب دون سائر ما جاء به صلى الله عليه وآله من الأحكام ممّا لا يتناسب وسياق الآية الكريمة في توصيف الرسول النبيّ الأمّيّ صلى الله عليه وآله هذا، والذي أفاده قدس سره من معنى الخبائث إن لم يكن ظاهراً فلا أقلّ من الاحتمال، وهو كافٍ في دفع الاستدلال بالآية على حرمة شرب أبوال ما يؤكل لحمه- اختياراً.

وقد تُعُقِّبَ ما أفاده سيّد الأعاظم قدس سره بعدّة تعقّبات:

الأول: إنّ مقتضى مقابلة حرمة الخبائث بحلّيّة الطيّبات كون المراد خصوص الأكل؛ إذ لا يراد بالطيّبات الأعمال الحسنة؛ لعدم كون إحلالها من شؤون النبيّ صلى الله عليه وآله؛ إذ حلّيّتها ضروريّة، خصوصاً مع سبق مقطع الاستدلال بقوله تعالى: ﴿**يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾، فإنّ التنزّل عن الأمر بالمعروف إلى إحلال

الطيّبات بالمعنى المذكور ممّا لا يكاد يستقيم، (ولعلّه يريد ما يلي: إنّ المعروف ما فيه صلاح، والمنكر ما فيه مفسدة، فلو كان المراد من الطيّب أيضاً ما فيه مصلحة، ومن الخبيث ما فيه مفسدة لكانت الجملة بمنزلة التكرار)، فالمراد إذن هو إحلال الأكل، فبمقتضىٰ المقابلة يكون المراد بالخبائث القاذورات[١٩].

ويلاحظ علىٰ ما أفيد بدايةً نقضاً وحَلّاً، أمّا النقض فإنّ حلّيّة أكل الطيّبات - هي الأخرىٰ- ضروريّة، فلا مجال لدعوىٰ كون إحلال أكل الطيّبات من شؤون النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وأمّا الحَلّ فإنّ الطيبات التي حلّيّتها ضروريّة إنما هي الطيّبات بالحمل الذاتي، وأمّا الطيّبات بالحمل الشايع وبلحاظ أفرادها -كما هو ظاهر الآية- فليست حلّيّتها ضروريّة.

ويلاحظ علىٰ ما أفيد ذيلاً أنّ قوله تعالىٰ: ﴿**يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾ يتحدّث عن ولاية الأمر والنهي، وقوله تعالىٰ: ﴿**وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾ اللاحق له يتحدّث عن ولاية التشريع أو التبليغ، فلا يلزم من حلّ الطيّبات بمعنى الأفعال الحسنة أنّ يكون تكراراً للأمر بالمعروف، ليعود غير مستقيم.

الثاني: إنّ المتبادر من لفظ الخبيث عند العرف كلّ ما يكون رديّاً قبيحاً في طباعهم وفطرتهم من الأعيان القذرة المكروهة والأفعال القبيحة المستبشعة المعبّر عن جميع ذلك بالفارسية بـ (پليد)، وهو معنى عامّ يشمل استعمال ما يتنفّر عنه الطباع السّليمة في الأكل والشرب اختياراً[٢٠].

وفيه أنّه علىٰ تقدير إرادة الأفعال من الخبائث في الآية فهي متعلّق الحرمة، فلا تعوزنا إلىٰ التقدير، وعلىٰ تقدير إرادة الأعيان فليست هي المتعلّق بل هي متعلّق المتعلّق، فتعوزنا إلىٰ تقدير المتعلّق، وهو الأكل هنا بحسب الفرض، فإرادة الأفعال والأعيان معاً من الآية لا يكاد يصحّ؛ للزوم التقدير وعدمه في استعمال

واحد.

اللّهمّ إلا أن يقال: إن مقصوده استعمال اللّفظ في الجامع، وهو ما ينفر عنه الطبع، سواءً أكان مصداقه عيناً أو فعلاً، وليس مقصوده استعمال اللّفظ فيهما كي يأتي عليه الإشكال.

الثالث: إنّ لفظ الخبيث وإن كان يطلق على الفعل القبيح، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾، إلا أنّه يطلق على العين المستقذرة، والمنصرف من اللفظ الخبيث الحسّيّ، ولا سيّما الأطعمة والأشربة، خصوصاً بعد تقدّم كلمة (الطيّبات)[٢١].

ويلاحظ عليه أنّ الطعام أو الشراب حيث يستقذره الطبع ويستكرهه فهو مستخبَث، وليس المستخبث أبداً خبيثاً وذا مفسدة، بينما المنصرف من الخبيث ما كان ذا مفسدة، فهو بمعنى الذي خبث، كما في قوله سبحانه: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾[٢٢]، وبعبارة أخرى -كما في بعض الكلمات لتقريب كلام سيّد الأعاظم قدس سره- إنّ المتبادر من لفظ الخبيث هو ما يكون بذاته رديّاً وقبيحاً بأن يترتّب عليه المفاسد والمضارّ، ولا دخل لابتهاج الإنسان بالشيء أو تنفّره عنه في حسنه أو قبحه ورداءته[٢٣].

المناقشة الثالثة: أفاد في الجواهر أنّ المراد ببيان أنّ الذي حرّمه عليهم من الخبائث بخلاف ما أحلّه لهم، فإنّه من الطيّبات، لا أنّ المراد جعل ذلك عنواناً للحلّ والحرمة..[٢٤]، وأنّ عنوان الخبيث ليس متعلّقاً للحكم بل علّة له، فهو سبحانه إنّما حرّم ما حرّم لخبثه وضرره.

وهذه المناقشة ليست ببعيدة.

المناقشة الرابعة: أفاد أحد الأعاظم قدس سره بأنّ الآية ليست بصدد بيان تحريم الخبائث، بل بصدد الإخبار عن أوصاف النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّه يأمرهم بالمعروف (الخ)،

وليس المراد أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله يحرّم عنوان الخبائث أو ذاتها، ويُحلّ عنوان الطيبات أو ذاتها، بل بصدد بيان أنّه يُحلّ كلّ ما كان طيّبا، ويحرّم كل ما كان خبيثاً بالحمل الشايع، ولو بالنهي عن أكله وشربه، فإذا نهىٰ عن شرب الخمر وأكل الميتة ولحم الخنزير، وهكذا، يصدق أنه حرّم الخبائث، فلا دلالة للآية علىٰ تحريم عنوان الخبائث[٢٥].

ويلاحظ عليه: -بما أفاده أحد تلامذته دام ظله- من أنّ الخبائث جمع محلّىٰ باللام، ومفاده العموم، فالجملة وإن لم يكن(كذا) في مقام إنشاء الحرمة ولم تشرّع الحرمة قطّ علىٰ هذا العنوان العامّ بجعل واحد، لكنّها بعمومها تحكي عن تشريع الحرمة علىٰ كلّ ما هو من مصاديق الخبيث عرفاً أو شرعاً، فإذا ثبت خباثة شيءٍ أو فعلٍ بحكم العرف فلا محالة تدلّ الآية علىٰ تشريع الحرمة عليه في ظرفه[٢٦].

فالمحصّلة أن الخبائث وإن تناولت الأعيان إلا أنّها ليست متعلّقاً للحرمة، وعليه فلا يمكن الاستدلال بالآية لحرمة شرب أبوال ما يؤكل لحمه من الإبل والبقر والغنم مثلاً اختياراً.

الدليل الثاني -علىٰ الحرمة-:

ممّا استدلّ به علىٰ حرمة أبوال ما يؤكل لحمه- اختياراً موثّقةُ عمّار بن موسىٰ المتقدّمة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عن بول البقر يشربه الرجل قال: «**إن كان محتاجاً إليه يتداوى به شَرِبَه(يشربه- ئل)، وكذلك أبوال الإبل والغنم**»[٢٧]، فإنّها بمفهوم الشرط -الذي أخذه الإمام عليه السلام في الجواب- دالّة علىٰ المطلوب، وبه يخصّص أو يقيّد ما دلّ من الروايات علىٰ حلّيّة أبوال الإبل مطلقاً[٢٨]، أو أبوال ما يؤكل لحمه مطلقاً[٢٩] -لو تمّ دلالةً وسنداً-، كما ترفع به اليد عن أصالتي الحلّ والبراءة.

فتحصّل أنّ في مفهوم الموثّقة غنىً عما سواه مما استدلّ به علىٰ الحرمة.

والحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلّىٰ الله علىٰ محمّد وآله.

الهوامش:

(١) قال السيّد المرتضىٰ قدّس سرّه في الانتصار- : ٤٢٤ م٢٤٢-: «ومما يظن قبل التأمّل انفراد الإمامية به القول بتحليل شرب أبوال الإبل، وكلّ ما أكل لحمه من البهائم إما للتداوي أو لغيره، وقد وافق الإمامية في ذلك مالك والثوري وزفر- إلىٰ أن قال رحمه الله- والذي يدلّ علىٰ صحّة مذهبنا بعد الإجماع المتردّد أن الأصل فيما يؤكل لحمه أو يشرب لبنه في العقل الإباحة».

(٢) وسائل الشيعة٢٨: ٣١٠ ب١ من أبواب حدّ المحارب ح٧.

(٣) وثّقه ابن فضّال- معجم رجال الحديث١٢: ١٤٤ [٧٦٥١]-.

(٤) التهذيب١: ٢٨٤ باب تطهير الثياب وغيرها من النجاسات ح١١٩ [٨٣٢]، وسائل الشيعة٣: ٤١٠ ب٩ من أبواب النجاسات ح١٥.

(٥) التهذيب١: ٢٨٤ باب تطهير الثياب وغيرها من النجاسات ح١١٩ [٨٣٢].

(٦) معجم رجال الحديث٣: ١٥٦، ١٥٧.

(٧) وسائل الشيعة٢٥: ١١٣ ب٥٩ من أبواب الأطعمة المباحة ح١.

(٨) من قبيل: (وليس شيء مما حرّم الله إلا وقد أحلّه لمن اضطر إليه)، وحديث رفع عن أمّتي.. ما اضطروا إليه.

(٩) خلافاً لما في كلمة التقوىٰ- ٦: ٣٥١، كتاب الأطعمة والأشربة م٦٤- من عدم حلّ التداوي بغير أبوال الإبل من أبوال الأنعام. انتهىٰ. أقول: من البعيد جدّاً أن يراد عدم حلّ التداوي بها ولو في حال الضرورة، فيحمل علىٰ إرادة غير هذه الحال.

(١٠) انظر: تحرير الوسيلة٢: ١٦٢، كتاب الأطعمة والأشربة- القول في الحيوان م٣١، منهاج الصالحين للسيّد الروحاني قدّس سرّه٢: ٣٨١ م١٥٩٢.

(١١) انظر: منهاج الصالحين للإمام الحكيم قدّس سرّه، بتعليقة السيّد الشهيد الصدر قدّس سرّه٢: ٣٧٥، كتاب الأطعمة والأشربة، في المائع م١٨، تعليقة٣٥، منهاج الصالحين للإمام السيستاني دام ظلّه٣: ٣٩٢ م٩٠٣، نعم احتاط لزوما في أبوال الإبل لغير التداوي، منهاج الصالحين للإمام الخوئي قدّس سرّه، بتعليقة الشيخ الوحيد دام ظلّه٣: ٣٩٧ م١٦٩٨.

(١٢) قال المحقّق المامقاني قدّس سرّه في غاية الآمال- : ١٣ س٩- «وعندي أنّ هذا القول- يعني القول بالحرمة- هو الأقوىٰ، وفي آية تحريم الخبائث غنىً وكفاية بعد القطع بكون البول مطلقاً من الخبائث».

(١٣) وقد استدلّ بمثل الآية بعض العامّة علىٰ حرمة التدخين، وألّف رسالةً في ذلك، سمّاها (حكم

التدخين عند الأئمة الأربعة وغيرهم)، وهو الإمام محمّد بن جعفر الكتّاني المتوفّىٰ سنة ١٣٤٥ هـ ومما جاء فيها: «والخبائث: جمع خبيثة، مؤنّث خبيث، وهو منها كلّ ما تستكرهه وتستدفعه وتشمئز منه وتنفر عنه إلى الغاية النفوسُ الكريمة والطباع السليقيّة السليمة من العرب وغيرهم ذاتاً فقط، أو ذاتاً وطعماً، أو ذاتاً ورائحةً، أو ذاتاً وطعماً ورائحة، كالسمّ وغيره من المؤذيات- إلى أن قال- وهذه العشبة- يعني عشبة الدخّان- لا يتأتّىٰ لذي عقل سليم وطبع مستقيم من العرب وغيرهم من سائر المسلمين وجميع المؤمنين، أن يقول: إنّها عند غير المتعاطي ولا عند المتعاطي في ابتداء التعاطي قبل الاعتياد، من الطيّبات.. بل يلزم عند الإنصاف والاتسام بسمة الأشراف أن يقول: إنّها من المستخبثات ذاتاً وطعماً ورائحة.

أمّا الذات: فلما فيها من السمّيّة البطيئة بإجماع الحكماء..

وأمّا الطعم: فلما فيها من المرارة والزعاق والقزازة العظيمة الموجبة لقهر الروح والتأثير في البدن حالاً، وذلك في مبدأ التعاطي، وقد سمّىٰ الله الحنظل لما فيه من المرارة شجرةً خبيثة، فقال: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾، قيل: وهي شجرة الحنظل.

وأمّا الرائحة: فلما فيها من النتن الشديد والقبح البليغ الأكيد، وقد سمّىٰ رسول الله[صلى الله عليه وآله] في غير ما حديثٍ الثومَ شجرةً خبيثة وبقلةً خبيثة..

وإذا ثبت أنّها من المستخبثات ذاتاً وطعماً ورائحة بما أوضحناه من الدلالات، وكانت الخبائث محرّمة بنصّ الكتاب العزيز والآيات وكلام سيّد السادات، كانت محرّمة بلا ريب ولا شكّ عند أرباب العنايات وكلّ من له إنصاف من ذوي الغايات»: ٢٤- ٢٧.

وقد استدلّ بالآية الحرّ العامليّ رحمه الله أيضاً علىٰ حرمة التتن، وقد ألّف أحد أساتذة المحقّق البحراني قدس سره- وهو الشيخ سليمان بن أبي ظبية البحراني رحمه الله- رسالةً في الردّ عليه، فقال متعقّباً ما قاله: إنّه من الخبائث التي دلّ علىٰ تحريمها الكتاب، بقوله: «أقول: الصغرىٰ وكلّيّة الكبرىٰ ممنوعتان، وكأنّه أشار بذلك إلى قوله: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾، وأقول: إنّ الخبائث جمع خبيثة، وهي الخمرة، وجمعها باعتبار أنواعها وأصنافها؛ لأنّ فعيلاً لا يجمع علىٰ فعايل إلا نادراً كصديد وصدايد، ولا يحمل القرآن علىٰ الشاذّ النادر..» ص٥٥، وقد حقّق هذه الرسالة، وطبعها سماحة الشيخ فاضل الزاكي(دامت بركاته).

وفيه أنّ فعيلاً وإن كان لا يجمع علىٰ فعايل إلا نادراً، وأنّ القرآن لا يحمل علىٰ الشاذّ النادر إلا أنّ خبائث جمع لخبيث في قوله سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾، ولو كانت جمعاً لخبيثة، فلا يراد منها الخمرة، وأنّهم يعاقرون أصنافها.

(١٤) سورة الأعراف: ١٥٦- ١٥٧.

(١٥) انظر: زبدة البيان للمحقّق الأردبيلي قدس سره: ٦٣١، مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام للجواد الكاظمي قدس سره ٤: ١٤٦.

(١٦) انظر مستند الشيعة ١٥: ١٠.

(١٧) مستند الشيعة ١٥: ١١، ١٢.

(١٨) مصباح الفقاهة تقرير بحث الإمام الخوئي قدس سره بقلم الميرزا محمّد عليّ التوحيدي رحمه الله ١: ٧٣- ٧٥ موسوعة الإمام الخوئي قدس سره ٣٥: ٥٨، ٥٩، وانظر: مستند العروة الوثقى (ك الصوم) ١: ٢٣٧، ٢٣٨) موسوعة الإمام الخوئي قدس سره ٢١: ٢٥٤، ٢٥٥.

(١٩) تفصيل الشريعة (المكاسب المحرّمة): ٦٠.

(٢٠) دراسات في المكاسب المحرّمة للشيخ منتظري رحمه الله ١: ٢٢٦.

(٢١) انظر: حدود الشريعة ومحرّماتها ١: ٤٩.

(٢٢) سورة الأعراف: ٥٨.

(٢٣) دراسات في المكاسب المحرّمة ١: ٢٢٦.

(٢٤) جواهر الكلام ٣٦: ٢٤١.

(٢٥) المكاسب المحرّمة للإمام الخميني قدس سره ١: ٣٤.

(٢٦) دراسات في المكاسب المحرّمة للشيخ منتظري رحمه الله ١: ٢٢٨.

(٢٧) التهذيب ١: ٢٨٤ باب تطهير الثياب وغيرها من النجاسات ح١١٩ [٨٣٢]، وسائل الشيعة ٢٥ :١١٣، ١١٤ ب٥٩ من أبواب الأطعمة المباحة ح١.

(٢٨) وسائل الشيعة ٢٥: ١١٤ ب٥٩ من أبواب الأطعمة المباحة ح٣.

(٢٩) وسائل الشيعة ٢٥: ١١٤ ب٥٩ من أبواب الأطعمة المباحة ح٢.

Resalat Alqalam

Islamic, Enlightening & Comprehensive

- Advisory Board :
  - Sh. Abdulla Ali Al daqaq
  - Sh. Ali Fadhel Alsadadi
  - Sh. Ghazi Abdulhassan
- General Superviser :
  - Sh. Abdulraoof Hassan Alrabia
- Editor in Chief:
  - Sh.mohammed ali khatam
- Editor in Director:
  - Sh.Abbas Ali Alsayegh
- Chairman of the Editorial Board:
  - Sh.Aziz Hassan Salman
- Editorial Board:
  - S.Jalal Adnan Alawi
  - Sh.Ali Aqeel Aljamri
  - Sh.Mansoor Ebrahim Aljbaili

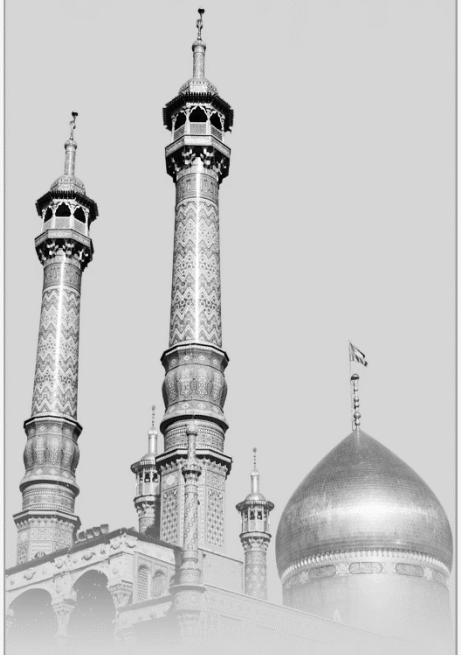

A Periodical Magazine Issued by the
Bahraini Students
of the Eductional Hawza the
Holy City of Qom

ماذا كان نصر الإمام؟

بقاء الإنسان ونموّه بدناً أو غير بدن قائم على التربية، فحيث لا تربية ومنها التغذية فلا إنسان، وإذا كانت التربية منقسمة إلى صالحة وفاسدة فلا شك أن التربية الصالحة دون الفاسدة هي التي يعتمد عليها نموّ الإنسان وصلاحه... والعبادة تعلّق بالجمال والكمال، وطلب القرب من الجميل الكامل استرضاءً له، واستجداءً من جماله، واسترفاداً من كماله، وفراراً من حالة النقص والضعف والانقطاع والوحشة إليه، وتلذُّذاً وتعزُّزاً بالتذلل بين يديه[1].

وتربيةُ الإسلام للإنسان تربيةٌ شاملة تستوعبه بكُلِّ أبعاده، وتدفع بكل طاقاته إلى الأمام وعلى الطّريق السّويّ إلى أقصى غاية عُليا ممكنة في صورة متكاملة متّسقة لا تُعاني من التّهافت والإرباك والقلق، وتَفي بكامل حاجاته، وتُعطي الأهميّة الكبرى، والشّأن الأعظم للجانب الروحي العلوي في وجوده.

وإنَّ للتربية لمقوّمات سواء كانت تربيةَ بدن، أو فكر، أو روح.

وهذه المقوّمات نجدها في الآتي:

١- التّغذية. ٢- الوقاية. ٣- التّرويض. ٤- العلاج.

فما من بدن، ولا فكر، ولا روح إلا ويحتاج في نُموّه إلى الغذاء الصالح الذي يتناسب وطبيعته، ولو فسد الغذاء لعاق عملية النمو وعطّلها، وربما قتل وأتلف[2].

---

(١) خطبة الجمعة (٣٩٠) ٢ ذوالحجة ١٤٣٠هـ - ٢٠ نوفمبر٢٠٠٩م.

(٢) خطبة الجمعة (٣٩١) ٩ ذوالحجة ١٤٣٠هـ - ٢٧ نوفمبر٢٠٠٩م.